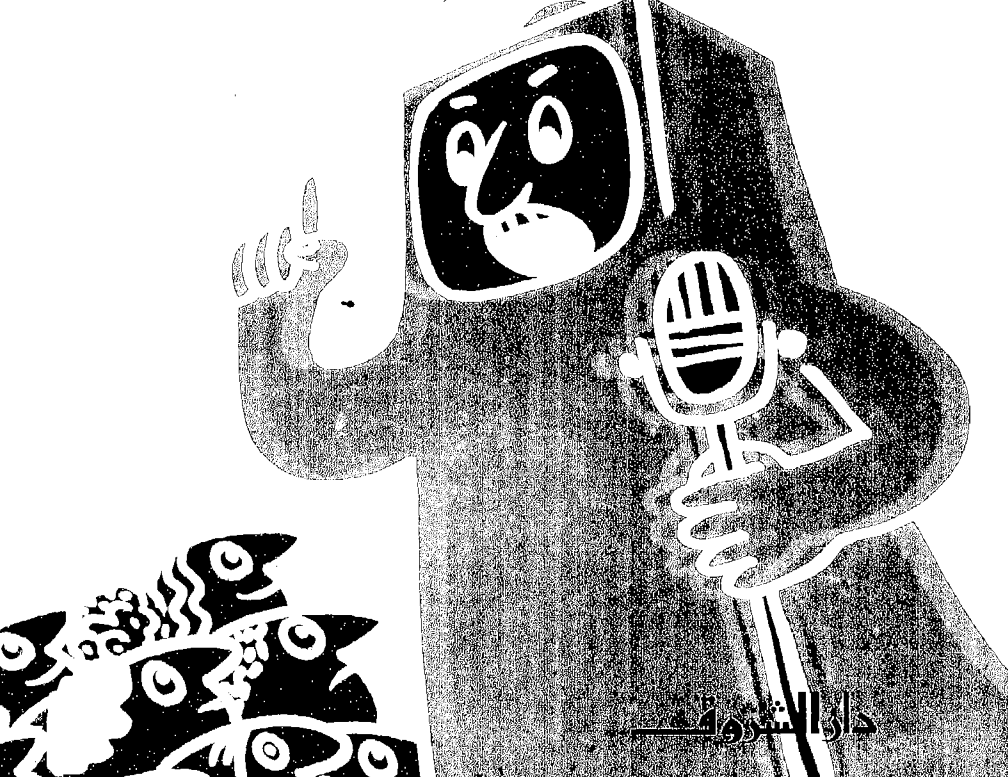
إيهاب الأزهري

الناس على دين إذاعاتهم

كتاب لكل الناس



دار الشروق

النَّاسُ على دين إذاعاتهم

الطبعة الأولى

١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م

بيروت : ص.ب : ٨٠٦٤ - هاتف ٣١٥٨٥٩ - ٣١٥١٠١ - برقياً : داشروق - تلكس : SHOROK 20175 LE
القاهرة : ١٦ شارع جواد حسني - هاتف ٧٧٤٨١٤ - ٧٧٤٥٧٨ - برقياً : شروق - تلكس : 93091 SHROK UN
SHOROUK INTERNATIONAL, 316/318 REGENT STREET LONDON W1, UK TEL 637 2743/4 TELEX SHOROK 25778G

قبل الكتاب

قليل من الخيال يصلح العقل!

محاورة تليفزيونية
مع توت عنخ آمون

قالت جريدة الأهرام إن صلاة العيد ستذاع من الكعبة في الساعة الرابعة من الصباح ، وستذيعها التليفزيون عبر القمر الصناعي .

نقلت جهاز التليفزيون الذي [illegible] وهو جهاز صغير أبيض وأسود إلى غرفة النوم ووضعته [illegible] ودخلت إلى السرير لأنام .. لكنني لم أنم [illegible] دق [illegible] وشغّلت الجهاز .. وفي الحال وجدت نفسي في الأراضي الحجازية ..

أحسست بسعادة غامرة بمرأى الكعبة والأراضي المقدسة .. والمسلمون يسعون حولها يرددون (لبيك اللهم لبيك) ورحت أردد نفس الكلمات .. و[illegible] وقد شفّت روحي وتوضأت .. وشعرت بأنني جزء من الحجيج وأنا أصلي معهم صلاة العيد .. ثم قمت فأغلقت جهاز التليفزيون .. واضطجعت

كنت مشغولاً [illegible] فريضة الحج قبل أن ألتقي بلقاء ربي .. وأحسست بندم شديد على ما شغلت به نفسي ، فلم أهتم بأن أحقق فرائض ديني كلها .. ورحت ألوم نفسي .

— ما لي أنا وما لي هذه القضية .. [illegible] الدولة لها وزيراً ، وما دامت قد اختارته الدولة فلا بد أنه خير والقضية في أيد أمينة .

وأغمضت عيني وأبعدت الفكرة عن ذهني ، وعدت أفكر في الكعبة .. وكيف أحب أن أشارك هذه الجحافل في الطواف حولها ..... و .....

يبدو أنني رحت في النوم ... بعض الوقت .. ولكنني سمعت صوتاً يناديني :

باسمي .

قمت مندهشاً .. واستدرت في أرجاء الغرفة أبحث عن هذا الذي ينادي ... وراعني أن التليفزيون الذي أغلقته منذ قليل قد عاد يعمل ... وأن شاشته [illegible] تلوناً مشرقاً .

أدركت في الحال أنني [illegible] في تلك الحالة المجهولة التي تفصل بين النوم واليقظة والتي هي عبارة عن سباحة [illegible] على أمواج [illegible] ... كنت أستطيع أن أركز ذهني وأعصابي حتى أستطيع أن أطفو على سطح تلك الأمواج فأستيقظ ثم أعود إلى النوم العادي ... ولكنني ابتسمت في داخلي وأنا أترك نفسي مستمتعاً بتلك السباحة التي تجعل تليفزيوني الأبيض والأسود يتحول إلى تليفزيون ملون .

وحدقت في الشاشة فوجدت على الشاشة وجهاً جميلاً رائع الجمال .. يملأها كلها .. وهو ينظر إليّ .. وعيناه تلمعان .. وكله يلمع كالذهب .. و ... أيضاً هو شفاف أرى من خلاله جحافل الناس .. يطوفون حول الكعبة .

وسمعته يناديني .. فقمت إليه في عجب شديد . ودار بيني وبينه الحوار التالي :

أنا : تناديني ؟

هو : نعم .

أنا : هل أعرفك ؟

هو : أكثر مما تتصور .

أنا : (بعد قليل) أنت .. أنت القناع الذهبي لتوت عنخ آمون ... تتحول إلي في حلمي

هو : بل أنا روح توت عنخ آمون .. أتحدث إليك عبر القمر الصناعي بينكم وبين الأراضي المقدسة .

أنا : وماذا تفعل عندك في الأراضي المقدسة ؟

هو : أحجّ .. أنا أحج كل عام منذ [illegible] الحج على المسلمين

أنا : عجبت [illegible] أمرك يا توت .. وأنت فرعون .. شاب صغير [illegible] .. [illegible] الشمس

هو : يا عزيزي .. أنا مصري [illegible] من ثلاثة آلاف وثلاثمائة عام . صرت روحاً عام ١٣٤٤ قبل الميلاد ، ومنذ ذلك التاريخ وأنا أواصل حياتي في عالم الأرواح بين الأرواح الشفافة ، وعالم هؤلاء مليء بالثقافة ، وآخر بالمتعة الروحية ، عشت بينهم أتعلم وأنضج .. كنت قد أدركت أن [illegible] للشمس كانت شكلاً من الإيمان بالله الواحد .. لذلك عندما جاءت [illegible] تحملها .. ولما جاء الإسلام دخل الإسلام أنا وغيري من الأرواح التالية .. وأنا هنا أحج في الأراضي الحجازية .. كما أفعل كل عام .. وقد قررت هذا العام أن أتصل بك عن طريق القمر الصناعي ... لم يكن من الممكن أن أتصل بك من أمريكا حيث أقيم .

أنا : من أميركا ... نعم !! (صائحاً) .

هو : (غاضباً) لا داعي لأن تصرخ مردداً كلامي .. كما يفعل المجنون عندكم .

أنا : لا تريدني أن أصرخ وأنت تقول إنك تقيم في أميركا ... إذن فقد أعاد الأميركيون إلينا نسخة مزورة وسرقوا القناع الذهبي الأصلي .

هو : يا عزيزي .. لقد اختلط عليك الأمر .. قناعي الذهبي موجود عندكم في مصر ... حيث كانت روحي تقيم عبر آلاف السنين .. ولكن روحي الآن تفضّل أن تعيش في أميركا .. مع أرواح الأجداد والآباء والأبناء .

أنا : (صائحاً في ذهول) الآباء والأبناء .. أرواحهم في أميركا .. ما معنى هذا ؟

هو : (في هدوء وبعد سكوت) اسمعني ... لقد جئت لأتحدث إليك حديثاً طويلاً .. فاصغ إليّ جيداً لتفهم الموقف .. وأظنك قادر على تقديره .

أنا : تفضل .. كلي آذان صاغية .

هو : أرواحنا ... أرواح جدودكم القدامى ... على مر التاريخ .. القديم .. والموغل في القدم ... كانت تواصل حياة الروح بينكم في مصر .. كانت ترعاكم حين تحتاجون إلى رعاية .. تقوي من عزائمكم ، تحنو عليكم ، تساعدكم ، تشجعكم ، تشد أزركم ، ولكنهم لم يعودوا بينكم ... كلهم هربوا .. الأرواح الصالحة كلها هربت من وسطكم .. لم يعد

يواصل البقاء ويحكم عبر الأرواح الفاسدة الذين كنا نسميهم فيما مضى :

«آكلوا التاريخ من فوق جدران المعابد»

أنا : (في عجب) آكلوا التاريخ من فوق جدران المعابد!!

هو : (يتهلل) دعني أشرح لك ... ملوك الفراعنة كانوا فعلاً فراعنة كما تسمونهم أنتم ... ولكن كان يجيء بين حين وآخر ملك ضعيف ... الملك الضعيف مثله مثل أي ضعيف آخر يكون ضعيف النفس .. فكان هؤلاء المفسدون يلتفون حوله ويستطيعون إقناعه بأن الملوك السابقين لم يصنعوا كل [illegible] الذي كتبوه على جدران المعابد .. وكانوا بسبب ضعفهم يصدقون ويأمرون الأتباع بأكل التاريخ بأن يمحوا هذا المكتوب على جدران المعابد وأن يمحوه ثم يسجلوا نفس الأعمال منسوبة إلى هؤلاء الضعفاء .. ولأنهم كانوا يصدقون الكذب

أنا : (في ذهول) انتظر .. انتظر .. إنني أتذكر أمراً كهذا .. أعلن للجرائد أنه قرر كذا وكيت .. تلقفت الصحافة هذا النبأ وطنطنت من أجله .. أنه صانع هذه الإنجازات العظيمة .. ومنجز كل الإنجازات [illegible] مع أن هذا «الكذا والكيت» سبق أن قام بها رجل آخر منذ عشرين عاماً !!

هو : أنت الآن فهمت ... وهذا من صنع الأرواح الفاسدة الذين تحولوا إلى آكلي التاريخ من فوق جدران المعابد .. ومن التاريخ الحديث ... أرواح سارقي القبور ، وتجار لحوم الذبائح

التي تقدم [illegible] في المعابد .. وتلقى في الصحراء لتفسد .
يسرقون [illegible] الذبائح الفاسدة [illegible] في الأسواق .

أنا : لحوم فاسدة تباع للناس ... كما يفعل تجار السموم اليوم بالضبط .

هو : الأرواح المفسدة [illegible] ... [illegible] يرتكبون هذه الجريمة .

أنا : معذرة يا توت .. عد إلى الأرواح الخيرة التي بدأت بالتحدث عنها ... وما [illegible] مع المصريين .. الأرواح التي ترعانا وتساعدنا .

هو : حسن ... أنت [illegible] الهرم الأكبر ...
طبعاً . كانت روحه [illegible] كثيراً [illegible] عما فعله مع رجل شهير [illegible] رجالكم [illegible] صرح ضخم يحمل اسم «مصر» ... صرح [illegible] كالأ[illegible] اسمه ؟!! أذكر أن اسمه كان يحمل معنى «معركة» .. أو «قتال» .

أنا : (في تفكير) اسمه «معركة» أو «قتال» .. وبنى صرحاً يحمل اسم مصر .. حرب .. طلعت حرب .

هو : تمام .. طلعت حرب .. خوفو يقول إنه ساعده ووقف بجواره يعضده ويساعده بروحه القادرة ... آه ... وأحمس .. أحمس أيضاً يفخر بأنه كان الروح المشجعة لأحد رجالكم .

أنا : أحمس طارد الهكسوس ؟

هو : تمام .. وقفت روحه خلف ذلك القائد ... الذي طرد الهكسوس أيضاً .

أنا : (في عجب) ليس في تاريخنا المعاصر هكسوس يا توت .

هو : إنه ليس تاريخكم المعاصر .. إنه [illegible] منذ مئات السنين ..

أنا لا أحفظ تواريخ محددة .. الذي [illegible] أحمس ساعد قائدكم في طرد الهكسوس من عاصمة [illegible]

أنـا : آه .. تعني .. طرد الصليبيين من بيت المقدس .. صلاح الدين الأيوبي ؟

هو : نعم .. هذا هو .

أنـا : لقد رممنا قلعة صلاح الدين من أجل أن تظل ذكراه [illegible] أذهان الناس .

هو : عظيم .. ولكن [illegible] ويبدو عليه التردد .. يتنهد) لقد [illegible] مثلك [illegible] الأمر .. ترميم [illegible] قد يستطيع [illegible] أذهان الناس .. ولكن هل يستطيع أن [illegible] روح صلاح الدين في نفوس الشباب بحيث يصنعون أعمالاً عظيمة كالتي صنعها هو .. وهذا ما نريده .. ما كنا نفعله معكم .. حين كنا في مصر .. أشك في ذلك .

أنـا : إذن كيف تظن أننا نستطيع أن نوقظ روح الأبطال في نفوس شبابنا ؟

هو : (في [illegible] التي [illegible] هذا السؤال .. أنت الذي كتبت وقلت أكثر من مليون كلمة تحدثت فيها عن الابتكار والإبداع والخيال والتجديد ولعنت التكرار والبطء والمط في الأغاني والمسلسلات ، و[illegible] الإنسان بالتراخي واللامبالاة و[illegible] القدرة التي وضعها الخالق في عقل الإنسان ،

وتخدر الرغبة [illegible] والتعلم وملاحظة أحداث العالم .

أنا : يا عزيزي [illegible] .. هذه المليون كلمة التي أحصيتها عليّ كنت أعني بها الإنسان الحي .. وهذا لا يعنيك أنت .

هو : (في استنكار) يا بني آدم .. أهم ما في الإنسان هو روحه ، والأمور التي تحدثت عنها لا تؤثر في جسد الإنسان إنما تؤثر في روحه .. وأنا روح .

أنا : تعني أن هذا [illegible] البطيء والمكرر يؤثر فيك ؟

هو : ينخر بداخلي كما يؤثر ذلك المرض اللعين .. أحسّ بأنني أتآكل .. ومن أجل [illegible] فضّلت أن أعيش في أميركا ... حيث [illegible] الحياة [illegible] حيث الناس يتحركون ويتصرفون ويعملون [illegible] ... وهم يقظون لكل ما يجري حولهم [illegible] حيث [illegible] الجديد والمبتكر .. حيث إيقاعهم الحي يطلق ذبذبات قوية تلمس روحي فأحسّ بنبض الحياة .. احفظ هذا الكلام لتقوله أو تكتبه .

أنا : ولكن يا توت .. أنا وضعت هذا الكلام من قبل في كتاب صغير .. و ...

هو : (مقاطعاً) اسمع .. الأهرامات الأولى تهدمت فوق رؤوس بانيها .. هل توقفوا ؟ ظلوا يبنون حتى تركوا للبشرية الأهرامات القائمة .. لا تطع أحقر مثل أنتجته البشرية «الباب الذي يأتيك منه الريح سده واستريح» وإلا توقف الهواء عن الدخول واختنق الناس [illegible] وتذكر أن الاستعمار فعل [illegible] أشياء خطيرة .

أنا : يا توت .. [illegible] أنك لا [illegible] الاستعمار رحل من بلادنا وصرنا أحرارا [illegible]

هو : (غاضباً) يوه .. [illegible] أنك تختلف عن كل الناس ... ولكنك مثلهم ... تردد نفس الكلام .. ألم تسمع بفلسفة الاستعمار الانجليزي ؟

أنا : (في بلاهة) فلسفة الاستعمار الانجليزي !

هو : (مقاطعاً) نعم .. لكل نظام فلسفته .. وكل إنسان في [illegible] يجب أن تكون له فلسفة .. والاستعمار الانجليزي هو [illegible] شيطان في [illegible] وقد [illegible] فلاسفته : (الاستعمار البريطاني إذا [illegible] بلداً [illegible] رحل عنها فإنه [illegible] يحكمها ما [illegible] أنتم [illegible] تتخلصوا [illegible] الاستعمار الانجليزي [illegible] كيف [illegible]

أنا : (في ضعف) [illegible] أعرف .. لأنه يترك في السلطة عقولاً علمها كيف تفكر بطريقة مفسدة في كل أمر من الأمور .

هو : وأخشى يا [illegible] الصغير أن يكون لديكم أصابع كثيرة تتحرك بتعاليم الاستعمار .. هل أصف لك [illegible] الاستعمار ؟

أنا : صفه لي

هو : إنه [illegible] مصر [illegible] ويمثل [illegible] .. لعله يقول الشعر [illegible] في حب مصر .. وهو يعمل من أجل تحطيم اللبنات التي تبني بها مصر حاضرها ومستقبلها

[الإنسان [illegible]]

أنا : (في سرعة) أعرفه [illegible] .. أعرفهم كلهم .

هو : (مكملاً) [illegible] آخر من الناس أجرى لهم الاستعمار ختاناً [illegible] استأصل فيه [illegible] الحساس الذي يدرك الحقائق في عقولهم ، فلم يعودوا يفرقون بين ما يصلح وما يفسد .

أنا : (ضاحكاً) الختان [illegible] تتحدث عن الختان هذا الحديث وأنت فرعون والختان فرعوني .

هو : (في خجل) [illegible] نعم .. كنا مخطئين نحن الفراعنة .. ولكن من حق أي إنسان عاقل أن يغير رأيه إذا عرف الصواب .

أنا : وأنتم الآن .. [illegible] في الخارج ... ولم تعودوا تساعدونا و[illegible] عزائم[illegible] صنع الخير لمصر .

هو : نعم .. للأسف .. ومن [illegible] هذا [illegible] .. علك تستطيع أن تصنع شيئاً في إيقاف [illegible] .. وموضوعه ..

أنا : مثل ماذا ؟

هو : أنت تعرف !

أنا : نعم .. ولكنني أريدك أن تقول شيئاً لأرى إذا كنا نفكر نفس التفكير .

هو : حسن ... أنت تعلم أننا نحن المصريين القدماء كنا نؤمن بأن الإله الأكبر : آمون عندما أراد أن يخلق العالم أطلق ضحكة قوية فكان العالم ... ثم ضحكة أخرى فكان النور ... وثالثة فكان الماء ... ورابعة وخامسة وسادسة ثم أطلق ضحكة سابعة فكانت [illegible] ومن أجل هذا نحن نحب الضحك فهو أصل كل شيء ... وننظر إلى عقولكم فلا نجد أبداً

ضحكة حلوة [illegible] فإذا بها نكد وحزن وبكاء وعويل .. [illegible] الأغاني [illegible] اتاً وأسى ..

ونحن نحب [illegible] التي تتحرك ونكره أن تسير الحياة ببطء وملل وتتوقف لتستكمل في اليوم التالي .

أنا : تكرهون المسلسلات !؟

هو : لا لم نعد نكرهها .. لقد تركناها وذهبنا ولن نعود قبل أن تتغير .. هل يكفي هذا ؟

أنا : نعم .. يكفي ..

هو : والآن .. أريدك أن [illegible] هرم من أهراماتنا العظيمة وتصبح [illegible] تلك السيدة الجميلة [illegible] تغني « اسمعوني [illegible] »

أنا : (ضاحكاً) [illegible] صاحبة الأغنية .

هو : (يضحك في [illegible]) هي جميلة ... جسم ممتلئ كجسم الأميرة ميريت وجه مستدير كوجه حتشبسوت ، وشفاه مليئة بالحرارة كشفاه نفرتيتي .

وصحت معجباً بتوت ولكنه قاطعني

هو : ولكن يا خسارة .. [illegible] لا يكتمل .. لو كان جمال هذه السيدة [illegible] من الأغنيات القصيرة سريعة الإيقاع .. [illegible] مثل داليدا .. داليدا التي ولدت في مصر

أنا : داليدا .. التي هربت [illegible] مثلكم

هو : [illegible] تعرف لماذا هربت داليدا من مصر وديمس روسوس ؟

أنا : نعم .. لأن الأغاني المطلوبة في مصر كانت الأغاني الطويلة الأم كلثوم ... وهم كانوا يغنون الأغاني العصرية القصيرة فسافروا إلى الخارج ... وكان لهم ما لهم من شأن .

هو : لهفي على مصر ... كنت أحب أن أبقى فيها كل دقيقة من بقائي الروحاني .. ولكن ما باليد حيلة .. لا أستطيع أن أتحمل المواتب .. اسمع .. إذا تغيرت أشياء كثيرة في سرعة الأداء والإنجاز والأعمال المبتسرة ...

أنا : الأعمال المبتسرة . أنت تتجنى علينا يا توت .. ليس لدينا أعمال مبتسرة ..

هو : يا عزيزي .. أنت [illegible] كثيراً في الأعمال المبتسرة فلم تعد تحس بأنها مبتسرة .. لن ترى أعمالاً تستكمل حتى نهايتها في مصر .. كم مرة رأيت شخصاً مفتوح البطن بعد أن أجريت فيه عملية جراحية .. وفات على الجراح أن يخيط الجرح .. كم مرة رأيت عمائر تبقى عشرات السنوات بعد أن توقف العمل فيها دون إتمام ... كم مرة رأيت أكوام القمامة ملقاة في نفس المكان في الطريق .

أتدري ما السبب في هذا ؟

أنا : قل لي أرجوك .

هو : أعمالكم الفنية المبتسرة .. انتظر حتى الغد لترى الكمالة وفي الغد يطلب منك أن تنتظر إلى الغد .. حتى الأطفال في برامجهم تحكى لهم حكايات مبتسرة فيخرج أبناؤكم لا يعرفون كيف يتمون عملاً .. ولا يحققون إنجازاً كاملاً ..

التليفزيون يفقد أولادكم وأنتم ... ن .

أنا : لم ينظر أحد منا [illegible] الأشياء في [illegible] ها .

هو : تعلموا أن تنظروا [illegible] النظرة الناقدة .. [illegible] تقبلوا الأشياء على علاتها .. ناقشوها .. وادرسوا آثارها عليكم وعلى أولادكم ... (يسكت) وعلى .. أماكنا التي هربت من مصر ... ومصركم .

أنا : تعني أننا [illegible] غير [illegible] الأشياء فقط [illegible] ودون .

هو : نعم .. نعود [illegible]

أنا : أؤكد لك [illegible] أنك [illegible] يحدث في مصر الآن [illegible] أبنا [illegible] بأيا [illegible] .. وفيما [illegible] نصلحها .. ونرم [illegible] أجلكم ... [illegible] وسمينا ميداناً [illegible] من ميادينا باسمه [illegible]

هو : نحن نعرف هذا جيداً .. نعرف أنكم ترممون أبو الهول وتبحثون [illegible] أ [illegible] اختبار ذقنه من الخارج .. ولكن هذا لا يرضينا .. [illegible] أرواحنا تعنينا أرواحكم .. نحن لا نفرح بعودة ذقن أبو الهول إلى وجهه .. ولكننا [illegible] بعودة الروح إلى [illegible] هذه البلد [illegible] وقد تعلمنا أخيراً أن أسلوب الفن عند [illegible] ترمم [illegible] جعل الروح متوازنة نائمة حائرة .. [illegible] هم هذا الكلام .. من فوق هرم خوفو ...

أنا : وإن لم يسمعوني ..

هو : [illegible] أخرى .. وثانية

أنا : إذا منعوني [illegible] أو قتلوني .

هو : لن تكون أول [illegible] يريد وجه وطنه وأهل وطنه ويمنعوه من أن يقولوا [illegible] أو يقتلوه .. والآن .. بعد أن قلت كلماتي التي يجب أن أقولها لك دعني أنصرف.

أنا : انتظر لحظة واحدة .. أستفسر منك عن أشياء :

هو : تفضل .

أنا : أبهذه الطريقة كنتم تقفون بجوار رجالنا ... طلعت حرب وصلاح الدين الأيوبي تساعدونهم ؟

هو : كلا .. كلا .. ليس بهذه الطريقة فقط .. فهذه طريقة ضعيفة ... «من رأى [illegible] منكم منكراً فليغيره بيده» كنا أحياناً نرفع أيدينا فترتفع [illegible] مواطنيك [illegible] .. ولكنني لست [illegible] في مصر حيث [illegible] أن [illegible] التأثير الإيحائي الفرعوني .. لذلك [illegible] أن [illegible]ه بلساني وهذا أضعف الإيمان ..

أنا : وهل تظهر لكل الناس على شاشات التليفزيون ؟

هو : لا طبعاً .. لك أنت فقط .

أنا : ولماذا أنا بالذات ؟

هو : ألا تعلم ؟

أنا : كلا .

هو : خسارة .. ألا تذكر أنك كتبت عني عدة مرات ... كنت صغيراً جداً عندما كتبت عني أول مرة .. وكنت أقف خلف ظهرك أحمل آلاف السنين وأنت في التاسعة عشرة من عمرك .. لا يبدو عليك التذكر .. أنا مضطر للذهاب الآن

فقد بذلت مجهوداً كبيراً لأظهر [illegible] الشاشة .

أنا : هل تعود لزيارتي [illegible] أخرى ؟

هو : هذا يتوقف عليك أنت .

أنا : ماذا أفعل لتعود ؟

هو : أولاً هات جهاز تليفزيون ملون .

أنا : سأفعل .

هو : واصرخ في الناس .. وداوم الصراخ .. إن الفن [illegible] يجب أن يتغير .. استعن برسام كاريكاتوري مشهور عندكم وهو شاعر [illegible] اسمه [illegible] على اسم القائد العربي الشهير .. [illegible] تعال [illegible] نحاول تنقية الهواء [illegible] الملوث ... [illegible] كالشيطان ... [illegible] لتعود أرواح [illegible] الرجال لتقوي سواعدهم وأرواحهم وعزائمهم من أجل القيام بالعمل المخلص من أجل بناء مصر .

هذه الأرواح التي هربت مضطرة لأنها لا تستطيع أن تعيش في هذا الجو الفاسد .. تريد أن تعود .. وتريدها أن تعود لتعود تساعدكم [illegible] ندفع عنكم أضرار الأرواح الشريرة التي توسوس [illegible] صدوركم [illegible] وسوسة شيطان الاستعمار وأصابعه التي تعيش بينكم .. تريد أن تعود .. أن تعود ..

وغابت صورة توت عنخ آمون عن ناظري .. واختفى لمعانه الذهبي [illegible] وراح صوته المدوي .

كان الجهاز هو نفس الجهاز الأبيض والأسود ..

تقلبت في سريري ... وقد طفوت على سطح الأمواج ... ثم قمت .

قمت مسرعاً لأسجل هذا الحوار قبل أن يضيع من ذاكرتي .

وتذكرت وأنا أكتب أنني سبق أن كتبت قصة نشرتها وكان عنوانها «الحاكم بأمر القمر» .. كان اسم بطلها .. توت وقصة أخرى كان عنوانها «أول جريمة في العالم» .. كان بطلها اسمه توت أيضاً .. إن توت لاحقني فترات طويلة من حياتي .

* * *

واليوم .... بعد أن اشتريت جهاز تليفزيون ملون ... فإنني في الانتظار ...

هل تسمعني يا توت ؟

أظنك تسمعني

ولكن هل يسمعني أحد غيرك ؟!!!


صلاح جاهين
تزويد القوات الجوية بالقنابل التليفزيونية
أكاديمية البحث العلمي
ـ القنابل التليفزيونية عبارة عن تليفزيونات بتذيع مسلسلات
من اياها .. تترمي على العدو يشوفها يتفرس يطق يمـوت !

الناسُ على دين إذاعاتهم

كتابٌ لكُلّ النّاس

إيهاب الأزهري

دار الشروق

النّاسُ عَلى دين إذاعَاتهم

كما في العنوان ـ كان الناس زمان ـ على دين ملوكهم .

كانوا يلتقون بهم في الأسواق ... وفي الأعياد ، وفي المساجد .. كانوا يحتكون بهم .. ويتطلعون إليهم كقدوة .. فيتأثرون بهم .

* وكان الناس دائماً على دين آبائهم وأجدادهم . لذلك كان المثل :

الولد سر أبيه . اقلب القدرة على فمها تطلع البنت لأمها .

ولكن في العصر الحديث ... تنازع السيطرة على الناس زعماء الأحزاب وقادة الرأي من الكتّاب والساسة والجرائد اليومية .

ولعله ظهر مثل يقول «الناس على دين ساستهم أو كتّابهم» ... ولكن لم يكتب للمثل البقاء .

* ثم جاءت الإذاعة .. تسللت إلى الناس كوسوسة الشيطان .. استحوذت منهم على الآذان والتفوا حولها . وما لبث أن جاء التليفزيون فاستوليا على أفراد الأسرة ... فضعف تأثير الأب .. بل صار التليفزيون هو الأم المؤثرة في الأسرة ... وأصبح الناس على دين هذه الأم .

الجُزءُ الأول

١ ـ فلسفة هذا الكتاب

إذا كانوا يعرّفون «التكنولوجيا» بأنها استخدام العلم في خدمة الإنسان فإنهم يجب أن يعرّفوا الاعلام بكل أجهزته (إذاعة ـ تليفزيون ـ مسرح ـ صحافة ـ سينما) بأنه استخدام كل الفنون في بناء الإنسان .

٢ - وَهٰذا الإعْلام .. عُمرهُ مليُون سَنَة !

وأعني بهذا الإعلام ليس الإعلام الذي يتوافر هذه الأيام في بلادنا العربية .. إنما أعني بهذا الإعلام ... الإعلام الذي وصفته في الفقرة السابقة ... الإعلام الذي يهمه أن يبني الإنسان ولا يهدمه .

والعالم منذ مليون سنة كان مختلفاً اختلافاً تماماً عن عالم اليوم .. وإذا كان بعض الناس يصفون المدنية المعاصرة بأنها «غابة الأسفلت» إلا أن الغابة التي كانت منذ مليون سنة تختلف تماماً عن غابة اليوم .

غابات ومستنقعات ورمال تغطي كل مكان ... والإنسان يعيش جنباً إلى جنب - ويموت أيضاً - مع عدد هائل من الحيوانات الضخمة ...

لدرجة أنك لو كنت موجوداً أيامها ، وراقبت ما يجري بنظرة محايدة ... فسوف تقول لنفسك :

إن هذا الإنسان الخائف الذي ما يكاد يحس بدبيب الحيوانات تقترب منه حتى يترك كل شيء ويجري ... يترك مسنيه ونساءه وصغاره لعلهم يعطلون هذا الحيوان من اللحاق به والفتك به ... يبدو أن هذا الإنسان قد جاء إلى الأرض ليكون مجرد غذاء للحيوانات الكبيرة .

ولكن الله كان يريد للإنسان مستقبلاً آخر . كان يريده سيداً للأرض ... ولذلك ميزه بجهاز عبقري وضعه له بين كتفيه وزرع فيه عقلاً معجزاً .

وببطء شديد تجمعت في ذلك الجهاز العبقري مجموعة خبرات وتجارب ...

في يوم كان هذا الإنسان ومجموعة من زملائه يجرون أمام ديناصور يطاردهم .. عندما لحق الحيوان بواحد منهم والتقطه بين فكيه .. وراقب هذا الإنسان في رعب زميله بين فكي الديناصور .. وبالرغم من الرعب الذي يستولي عليه إلا أنه لاحظ أن زميله ألقى بقطعة حجر كان يحملها ... ألقاها في عين الديناصور فإذا بالديناصور يصرخ ويفلت الزميل .. الذي وقع على الأرض وتكسرت ضلوعه .. ولكن الديناصور راح يصرخ في تألم وتوقف عن مطاردتهم .

في تلك الليلة وقف هذا الإنسان يشير بيديه لزملائه يروي لهم ما شاهد .. وانفعل الجميع بهذه الملاحظة وقام فنان فرسم على الجدران عين حيوان وفيها قطعة الحجر .. وفي الليالي التالية رأى هذا الرسم كثيرون وانتقلت إليهم ملاحظة أول إنسان سجلها عقله .

وببطء تجمعت تجارب أخرى ومهارات لتقليد مخالب الحيوان .. وقرون الحيوان ... وصنع الخنجر والبلطة والحربة .. وهنا أحس الإنسان أنه يملك القدرة والقوة على مواجهة الحيوان ...

وببطء تبخر الخوف الذي كان يحكم قلبه ودخله الاطمئنان .. ولما اطمأن أحس بالأمن ؛ ومع هذا الإحساس الجديد استطاع أن يتوقف عن الجري والهرب وابتدأ يتأمل .. وكان أول شيء تأمله هو

ابنه الطفل .. وضمه إلى صدره وابتدأ يحس بحبه لهذا الطفل ..

مع احساسه بالحب جاء الإحساس بالمسؤولية تجاه الأولاد .. وابتدأ يفكر في نقل تجاربه وخبراته في محاربة سيطرة الحيوان .. وإعداد أولاده لمواجهة أخطار الحياة السائدة أيامها .. وهو ما نطلق عليه اسم بناء الإنسان وإعداده ليصلح للحياة في البيئة التي تحيط به .

كانت القبيلة الصغيرة تجتمع في كهف كبير في ليلة محددة لعلها الليلة التي يكتمل فيها القمر .. وكان الأولاد والشباب يجتمعون يمارسون نشاطات معينة .. رقص وضرب على الطبول .. وشواء لصيدهم يشاركون في أكله .. ثم يقوم مقاتل ويقف في وسط الجمع .. يروي لهم كيف التقى بحيوان ضخم والتحم معه في صراع عنيف .. ولكنه غلبه لأنه ضربه في عينه .. ثم طعنه في صدره .. بعد أن أصابه في مفاصله .. وحطم له أسنانه وكان الفنانون يرسمون على جدران الكهوف صوراً لهذه الحيوانات ليشرح عليها المقاتل مناطق الضعف في الحيوان ليستطيع الشاب أن يقتله ويصيده .. ويتغذى على لحمه بدلاً من أن يتغذى الحيوان على لحم الإنسان .

وكان الصغار والشباب يستمعون إلى هذا المقاتل الذي تحول مع الزمن إلى راو محترف يعرف كيف يؤثر في مشاهديه عن طريق الحركة والصوت والتمثيل ويعلمهم كيف يواصلون الحياة في بيئتهم .. وأضيف إلى هذا الراوي مساعد له يرتدي جلود الحيوانات ويقوم بأدوار الحيوانات وازدادت جاذبية العرض والأثر الذي يحدثه .. حتى تحقق مع الزمن أن أصبحت هذه الوسيلة قادرة على بناء الإنسان

وإعداده ليكون قادراً على مواصلة الحياة وسط تحديات البيئة .. أي إنها أصبحت وسيلة إعلام .

وتمضي السنوات .. آلاف السنوات .. ويبتكر الإنسان بعقله المبدع المسرح .. ويستخدمه لنفس الغرض .. أن يعلم المجتمع كله كيف يحيا متغلباً على الصعاب أي يبني الإنسان .

وآلاف أخرى من السنوات ويخترع الإنسان الصحافة وبعدها السينما والإذاعة والتليفزيون .

وإذا نظرت إلى أحداث المليون سنة الماضية حتى اليوم نظرة شاملة فسوف تجد شبهاً كبيراً بين تلك الحفلات التي كانت تقام في كهوف القبيلة تحت ضوء القمر وبين التليفزيون اليوم .. في بلادنا ـ كلاهما من واجبه أن يقدم برامج جذابة ليجمع حوله الصغار والكبار ويتسلل إلى عقولهم ليبني شخصياتهم .. مستخدماً في هذا كل الفنون .

التمثيل والراوي والغناء والموسيقى والرسم والنحت ... و... كل الفنون .

ولكن هل يدرك تليفزيون اليوم وإذاعته ومسرحه وسينماه وصحافته بالهدف الذي كان جدهما الأول قد وضعه منذ مليون سنة .

هل يحس بالحب نحو الأولاد والشباب وبالمسؤولية تجاههم لإعدادهم لحياة اليوم ولحياة المستقبل .

كانت إذاعة الشباب تؤمن بأن تكون نموذجاً عصرياً كهذا الإعلام الذي كان منذ مليون سنة ... أن تعد جمهور المستمعين لمواصلة الحياة

في العالم الذي يعيشون فيه .. أن تنقل إليهم تجارب الحياة فإذا ما قابلوا مثلها عرفوا كيف يتصرفون أمامها .. وإذا لم يقابلوها فإن الثقة تملؤهم لأنهم يعرفون كيف يتصرفون حيالها إذا ما قابلوها .

٣ ـ تجْـرَبَة .. في الغَـابة الحَديثَـة !!

قبل سنوات طويلة مررت بهذه التجربة .. ولكنني أذكرها كما لو كانت وقعت لي بالأمس القريب .. أضعها لك هنا لأنني أعرف تماماً أنك تستطيع أن تستفيد منها . وأرجو أن تستطيع هذه الحكاية أن تجعل منك . كما جعلت مني .. إنساناً أفضل .. أكثر قدرة على مواجهة مشاكل الحياة .

كنت في زيارة للمعرض الزراعي الصناعي بالجزيرة . وقد تعبت من اللف والدوران وحان الوقت لبعض اللهو في الملاهي المجاورة .

وكانت هناك بعض اللافتات تشير أن الذهاب إلى الملاهي يمكن أن يتم من خلال ممر في نهاية أرض المعرض فاتجهت إلى هناك . كان باب الممر مغلقاً . وقد اجتمع عنده عدد هائل من الناس يشاركونني نفس الرغبة .. وقد وقفوا ينتظرون الموعد الذي سيفتح عنده الباب .. ونظرت في ساعتي . بقيت دقائق قليلة .. وانتظرت أراقب الناس يتجمعون . وقلبت نظري أقيس أبعاد الموقف . كان الباب والممر صغيراً .. وتوقعت أن يكون العبور في هذا العدد الضخم خطراً .. قد تتمزق فيه ملابس .. وتتحطم نظارات . وهؤلاء الأطفال الذين ينتظرون . وهؤلاء السيدات الحوامل .. وهذا الرجل ، وهذه السيدة العجوز المحنية ، هذا العبور

خطر عليهم ـ وأوشكت أن أبتعد عن الجمع وأخرج من بابه الأصلي المتسع .. ولكن عندئذ فُتح الباب ـ واندفع الناس عابرين .. كل يريد أن يسبق . حتى لا «ينزلق» في الزحام .. أدركت أن الزحام سوف يكون صعباً .. ولكنني كنت قد أصبحت جزءاً لا ينفصل من الموجة المندفعة . ولا مجال للتراجع . بالرغم من أنني كنت أتمتع بلياقة بدنية عالية ومجموعة لا بأس بها من العضلات إلا أن الخوف تسلل إلى نفسي خوفاً على الأطفال والكبار والحوامل من ضغط الموجة .

وحتى تلك اللحظة لم تكن صورة الموقف الرهيب قد اكتملت تماماً .

بعد خطوات قليلة متعجلة مرتبكة للموجة التي كنت في وسطها قابلتها من الناحية الأخرى موجة مشابهة قوية متعجلة مرتبكة .. كتلة أخرى متحركة من البشر ..

كان الباب من الناحية الأُخرى قد فُتح .. في نفس اللحظة . في دقة متناهية ..

واصطدمت الموجتان لا كتلاطمهما كما تتوقع من حركات الموج .. ولكن لتصطدما كصخرتين صلدتين من البشر .

وانفتحت فوهة من الجحيم .. وشاهدت صورة ليوم الحشر .. شاهدت أذرعاً تعلو فوق سطح الموجتين كأنها تغرق وتتشبث بأي شيء .. بالقشة التي لم تكن موجودة . وارتفعت صرخات استغاثة لضعاف أشرفوا على الغرق تحت أقدام الموجتين . شاهدت ضلوعاً توشك أن تتحطم . ونظرات لهفة كتلك النظرة التي شاهدتها يوماً في عين شاب سقط من فوق السقالة في بيتنا من الدور العاشر والتقت

نظراته بنظراتي عندما مر في جزء من الثانية من أمام البلكونة التي كنت أقف فيها في الدور الرابع قبل أن يسقط إلى مصرعه ... شاهدت نساء يصرخن لأن أولادهن وقعوا تحت الأقدام ، الأنفاس من حولي توشك أن تختنق . والناس يرتطمون ويضغطون في تلك الحالة التي يقال عنها (لقد شاهدت الموت بعيني : قلت لنفسي : يجب أن يتصرف أحد في وقف هذا التلاطم وإلا لسوف تنشر الجرائد غداً عدد الضحايا في هذه الحادثة) .

وصرخت : (مش كده يا ناس .. مش كده . الناس حاتموت بالطريقة دي) .

اتجهت إليّ الأنظار .. الرعب اختلط بالتساؤل في عيونهم ... شيء صغير بداخلي يحب المواقف الضاحكة أطلق ضحكة ساخرة وهو يقول إلى عقلي : «أمال إزاي ؟» .

يبدو أن أحداً ليس مستعداً لسماع صوت يقول له «ليست هذه هي الطريقة» ، إنما أحسست بذراعين تتشبثان بذراعي ... التفت وجدت سيدة صغيرة حامل .. تتعلق بي . تحتمي بظهري .. وعيناها امتلأتا بالرعب والاستنجاد .

فجأة خطر لي الحل .. ولكني تأخرت ثوان قليلة قبل أن أنطق به . لأنه حل بسيط .. بسيط .. بسيط لدرجة السذاجة . كيف لم يخطر في بال كل هؤلاء الناس ؟ .. تأخرت ثوان قليلة .. ولكن الضغط الشديد أخرجه من فمي .

صحت بأعلى صوتي :

ـ « كل واحد يتجه إلى اليمين .. كل واحد يعرف طريقه ويتجه إلى اليمين» .

وفي نفس الوقت ابتدأت أنحرف ناحية يميني .. باذلاً كل قوة عضلاتي .. وأشرت إلى شاب طويل القامة مثلي يأتي من الناحية الأخرى أن ينحرف إلى الناحية الأخرى .

ورحت أشير وألوح وأشير إلى الذين يسيرون معي أن ينضموا إلى اليمين ـ وأشير إلى القادمين من أن ينحرفوا إلى يمينهم . ولا شك أن الرعب الذي تملك الناس هو الذي جعلهم يدركون الحكمة في صوتي المرتفع فينفذون . هرباً من الضغط والتهديد والاختناق وخطر الموت .

وما لبثت الموجتان المصطدمتان أن انفكتا .. وانفرج الضغط .. وبعد أن تحولنا إلى موجتين سارت كل واحدة منهما إلى يمين الطريق الذي تسلكه .. وما لبثت كل موجة أن وصلت إلى هدفها . ووقف الناس يلهثون ويجاهدون لاستعادة تنفسهم السليم .. ولكن دون أن يفقد أحد شيئاً عظيم القيمة . كنت متوتر الأعصاب إلى درجة كبيرة كمن أنقذ من الموت بعد أن كان على شفا الغرق لدرجة أنني لم أفهم لمسة الامتنان التي نلتها من السيدة الحامل الصغيرة التي كانت ملتصقة بي حتى عبرت بها إلى بر الأمان .

الذي لا شك فيه أنني خرجت من هذه التجربة إنساناً أفضل مما كنت قبلها .. فقد اكتسبت منها خبرة . بل عدة خبرات . ونقلت هذه الخبرات لصغاري .. كما كان يفعل الصائد ما قبل التاريخ . يعلم أولاده تجاربه .. ويسلحهم ليواجهوا الحياة بمعرفة مشاكلها والقدرة على مواجهة هذه المشاكل وحلها ..

وعندما بدأت إذاعة الشباب بثها في السادس من أكتوبر عام ١٩٧٥ .. كانت هذه التجربة واحدة من التجارب العديدة التي نقلت لمستمعي إذاعة الشباب .. ضمت هذه التجربة بالذات إلى برنامج للتدريبات الذهنية عنوانه «وقود العقل» .. فإن نقل التجارب للمستمع يجعل منه إنساناً مسلحاً لمواجهة الحياة . وهذا هو أحد العناصر الأولى التي أعنيها .

عندما أتحدث عن «بناء الإنسان» .

٤ ـ الفتَاة الحُلوَة التي ضَرَبَتني عَلى يَديَ

ثغر الإسكندرية الذي حصلت من مدرسته الثانوية على شهادتي ومن جامعته على الليسانس يختلف تماماً عن الذي عدت إليه أصطاف بعد سنوات من الإقامة الكاملة في القاهرة .

ازدحام شديد ولغط أشد وسيارات كثيرة .. ولا نظام .. ثغر مختلف تماماً عن الذي عرفته .. ولم أشعر بعظم الاختلاف إلا عندما هبطت إلى محطة الرمل وسرت في واحد من تلك الشوارع الضيقة التي تتفرع منها ...

وقفت على طرف رصيف الشارع أتحين فرصة مناسبة للعبور عبر أمواج الازدحام المتلاطم عندما أقبلت فتاة جميلة رشيقة .. تسير بخطوات فاتنة وتعلق بها نظري الذي يحب متابعة هذه المناظر الخلابة .. وأقبلت الفتاة حتى وصلت إلى حيث كنت أقف وهمت بأن تهبط الرصيف لتعبر الشارع .

رفعت يدي أمامها بسرعة .. إلى صدرها . أمنعها من الهبوط إلى الطريق وأنا أقول :

ـ انتظري .

فتراجعت الفتاة إلى الخلف في غضب ورفعت يدها وضربت اليد

التي مددتها نحوها وهي تصيح :

ـ ابعد إيدك يا مجرم يا سافل .

وسقطت يدي بجواري وراقبت الفتاة الحلوة تهبط إلى أرض الشارع متأخرة ثانيتين عن اللحظة التي كانت ستهبط فيها إلى الشارع أول الأمر ، فخبطتها نهاية السيارة التي كانت تسير بسرعة في الاتجاه العكسي الممنوع خبطة خفيفة فكادت تقع لولا أنها تماسكت .

لاحظت أن بعض المارة قد توقفوا يراقبون .. بعضهم رأى الموقف كله .. وبعضهم رأى الضربة التي نلتها على يدي .. وقفوا يراقبون ماذا سوف يحدث الآن .

أدركت الفتاة أنه لولا الثانيتان اللتان أخرتهما لها على الرصيف لكانت السيارة قد دهمتها .. أدركت هذا في لحظة واحدة ـ إذ يبدو أن العقل السليم في الجسم السليم وجسم الفتاة الحلوة كان رائعاً فيجب أن يكون عقلها رائعاً ففهمت الموقف كله في الحال .

عادت الفتاة مرة أخرى إلى الرصيف واقتربت مني وهي تمد يدها إلى يدي التي ضربتها منذ ثوان قليلة .. وقالت في صوت مرتجف :

ـ أنا آسفة يا أستاذ .

هززت كتفي وذراعي وقلت :

ـ خلاص ...

فإذا بالفتاة تقترب مني أكثر .. على وجهها تعبير غريب من الغضب على نفسها وقالت :

ـ خلاص إزاي ... وأنا ضربتك على ايدك وأنت كنت بتنقذ حياتي .

وابتسمت وأنا أكتشف فجأة أن ما حدث الآن شيء يثير الضحك ... وقلت :

ـ معلش ... حصلت لي قبل كده كثير ... ضربوني على إيدي وأنا كنت با انقذ مش حياتهم بس ... لأ ... أكثر من حياتهم .

وصاحت الفتاة في ابتسامة كالتي ظهرت عليّ :

ـ مين «ولاد الكلب دول» ... غيري .

كانت تتكلم في جد .. وغضب .. وهي تدرك أنها تشتم نفسها .. واتسعت ابتسامتي ثم انفجرت ضاحكاً واشتركت معي في الضحك .. وأمسكت الفتاة بيدي التي ضربتها .. ووجدنا نفسينا نسير على الرصيف متشابكي الأيدي .. لم نعد نحس بما يجري حولنا .. أحسسنا بأنها تجربة خاصة .. تجري في مكان خاص .

وكانت الفتاة تهمس في أذني :

ـ احكيلي عن ...

وانفجرت ضاحكاً مرة أخرى وهي تشتم وتلعن الآخرين الذين ضربوني على يدي ... جلسنا في مكان تحدثنا فيه كثيراً .. واعتذرت كثيراً .. وحكيت لها كل الحكايات السابقة .

وكيف تعلمت أن أضحك ... حتى لا أموت كمداً . ؟

٥ ـ وتعلّمت أن أضحك .. حتّى لا أموت

الإنسان فقط ... هو الذي يستفيد من تجارب الآخرين .

تلقيت دعوة لإلقاء محاضرات في فن الدراما والمنوعات الإذاعية من معهد التدريب الإذاعي والتليفزيوني في العراق ... وقبلت الدعوة أنا وزميل إذاعي عزيز هو « بهاء طاهر » .

اتفقت مع بهاء أن يكون لقاؤنا في المطار يوم السفر في ساعة معينة .. ولكن بهاء تأخر وتأخر ... وكان أن سافرت وحدي .

ما كدت أهبط بغداد .. ثم الفندق .. ثم المعهد وإدارة الإذاعة حتى لاحظت ملاحظة فريدة ...

شعار أنيق الطباعة تجده وتجد أمثاله من الشعارات معلقة على الجدار .. كان هذا الشعار بالذات يقول :

ـ دقيقة واحدة تضيعها في عملك فإنك تضيع خطوة على طريق التقدم والرقي .

عندما وصل بهاء في اليوم التالي وجهت نظره إلى الشعار فأبدى اعجابه الشديد به وقال وهو يضحك في مرارة :

ـ سأذكر تجربة تأخري عن الطائرة ما حييت ... فالتأخير يجر التأخير ..يجر مزيداً من التأخير .

واستفاد بهاء من تجربته ... وأرجو أن نستطيع أن نستفيد من تجربتي التي أرويها هنا .

* * *

عندما التقيت بالدارسين في المعهد وجدتهم مجموعة من الشباب المتحمس الذي يرغب في الاستفادة من تجاربنا الطويلة ، وفي لقائي الأول بهم كنت قد شرحت لهم خلاصة تجاربي في العمل الإعلامي وفلسفتي الخاصة التي توصلت إليها عن الإعلام في بلاد العالم الثالث . (وهو ما شرحته في (١) ، (٢) ، (٣)) .

قلت لهم تعالوا نضع برنامجاً إذاعياً مثالياً .. يتوفر فيه أن يكون مسلياً ومفيداً بأن نقدم المعلومات التي تساعد الإنسان المتلقي أن يتعلم كيف يعيش في هذه الحياة ... كيف يواجه مصاعبها .. كيف يفهمها أكثر حتى يكوّن لنفسه اتجاهات خاصة توصله بسرعة إلى إصدار القرار الصحيح .. فيما يواجهه في الحياة .

ودار بيننا حوار طويل مثمر أنتجنا بعده برنامجاً عظيماً ليس مجال الحديث عنه هنا ..

* * *

بعد أن انتهى الوقت المخصص للمحاضرة عدت إلى الفندق حيث علمت من بعض الصحف أن الصديق الإذاعي عبد العزيز المنصور مدير عام البرامج في إذاعة الكويت قد حصل من جامعة القاهرة على درجة الدكتوراه .. وكان يجب أن أرسل له برقية تهنئة .

نصحوني في الفندق أن أذهب بنفسي إلى مكتب التلغراف على بعد عشر ثواني ـ فذهبت ـ بعد أن كتبت نص البرقية حتى أختصر

الإجراءات . وخطي دقيق واضح مقروء .

التجربة التي مررت بها في مكتب التلغراف بسيطة عادية ... والمصيبة أنها كذلك فقد التقيت بواحد من الملايين من البشر .. في تجربة مضحكة ومريرة .

* * *

أول ما طالعني في مكتب التلغراف الشعارات الأنيقة على الجدران ـ وفي مقدمتها الشعار الذي تحدثت عنه من قبل .

«إذا ضيعت دقيقة واحدة في العمل ضيعت خطوة إلى التقدم والرقي» .

كان هذا الشعار يعلو رأس الموظف الشاب المختص الذي كانت تقف أمامه سيدة واحدة ، انتظرت دوري بعد أن تفرغ وأنا أنظر إلى ساعتي وأمني نفسي بسرعة الإجراءات ما دام الموظف المختص لن يضيع دقيقة واحدة .

شغلت نفسي في الدقيقة الأولى بالنظر حولي ... وسعدت جداً عندما وجدت أن الساعة المعلقة على الحائط مضبوطة وتعمل ... وتحمل ماركة «بغداد» فهي من انتاج العراق حتى استقر نظري أخيراً على الموظف الشاب ... لاحظت أن الشاب يهز رأسه وهو يحرر إيصالاً للسيدة التي تقف أمامه ... كما لو كان يردد بينه وبين نفسه نغمات أغنية تملأ أذنيه .

وتذكرت صديقاً وزميلاً ـ يعمل بالإذاعة مذيعاً ـ يهز رأسه هكذا .. وهو يقرأ نشرة الأخبار كقارئ القرآن .. وهو يتلوه مجوداً .

وابتسمت ... وأنا أتحرك لأتخذ مكاني أمام الشاب بعد أن انصرفت السيدة التي كانت تسبقني .

قدمت له نص البرقية ورحت أراقبه بكل دقة .

نظر إلى البرقية متأملاً .. وشفاهه تتحرك بالكلمات يقرأها بينه وبين نفسه على النغمات التي كان يحرك على إيقاعها رأسه ... واتسعت ابتسامتي لأن هذه أول مرة أكتب رسالة فيضع لها قارئها موسيقى .

ثم وضع نص البرقية أمامه ... وتراجع برأسه ... وأمسك بالقلم .. الذي راح به يمر على كلمات البرقية كلمة كلمة .. يقرأ كل كلمة على حدة كما اتضح من تحركات شفتيه .. ظننت أنه يعد الكلمات ليحدد سعر البرقية ... ولكن عد الكلمات كان خطوته التالية وشفتاه تتحركان بالأرقام في صوت هامس تستطيع أن تسمعه ..

ـ واحد .. اثنين .. ثلاثة .. أربعة .. خمسة .. ستة .. وتوقف عن العدّ ونظر إليّ متسائلاً :

اسم المرسل إليه عبد العزيز المنصور .

ـ تمام .

ـ مدير عام البرامج في إذاعة الكويت .

ـ نعم .. خطي واضح وهذا هو المكتوب أمامك أليس كذلك ؟

هز رأسه .. وعاد يعد الكلمات ... ولكنه توقف قبل النهاية وسأل :

ـ اسمك إيهاب ؟

تسلل شيء من الضيق في صوتي وأجبت سؤاله بسؤال :

ـ الاسم المكتوب عندك أيه ؟

فنظر الرجل إلى نص البرقية ورفع نظره إليّ ليقول اسمي وهو يبتسم فأقول له :

ـ عظيم جداً ... هذا هو اسمي .

وهز الرجل رأسه على نغمات ما ... ثم راح يقرأ البرقية كلمة كلمة ويعد كلماتها .

دقائق طويلة في البحث عن دفاتر وإعادة عدّ الكلمات ثم طلب مني ديناراً أعطيته له في الحال ... فوضعه بجواره ثم ابتدأت عملية تحرير الإيصال ... أو لأكون أكثر دقة في تعبيري ... ابتدأت معزوفة تحرير الإيصال .

القلم في يده كأنه كعصاة المايسترو قائد الأوركسترا تتعلق على بعد سنتيمترات من البرقية .. وراح يصنع بها دوائر تتناغم مع الدوائر التي يصنعها برأسه متناغمة بدورها مع النغمة المتكررة التي كانت في أذنه . وحاجباه يتراقصان هما الآخران مع كل تكوينه . في تناسق يكرر الجملة الموسيقية ويعزفها في ذهنه مرة أخرى وفي إعجاب شديد بنفسه يحرك حاجبيه .

وأخيراً قدم لي الإيصال بعد أكثر من ١٥ دقيقة على حسب ساعتي والساعة العراقية الموضوعة بجوار الشعار العراقي .. مع أن إرسال برقية ـ وهي شيء عاجل في الغالب الأعم ـ لا يجب أن يستغرق أكثر من ٥ دقائق على الأكثر .

هممت بالانصراف دون أن أسأل السؤال الذي كنت أحب أن أوجهه له .. ولكن منظر الأشخاص المنتظرين لدورهم منعني أن أسأله .. فإذا به هو الذي يستبقيني ليسأل :

– أنت بتعمل في الإذاعة العراقية .
– لا ... في الإذاعة المصرية .
– مصري ... لك في بغداد كثير .
– أمس فقط وصلت .
– هل شاهدت مسلسلاتنا التي ننتجها في بغداد وتذاع في التليفزيون ؟
– ليس بعد ... سأشاهدها الليلة .
– ستجدها رائعة .
– أرجو ذلك ... ما دمت قد استبقيتني ... فهل تسمح لي بسؤال .
– تفضل ..
– يبدو أن صوتك جميل .. فقد راقبتك طول الربع ساعة التي مرت .. كنت تغني بينك وبين نفسك .

وضحك الشاب في تسلية وأجاب :

– لا لا .. كنت فقط أردد كلمات أغنية .
– ما هي هذه الأغنية التي كانت تدور في أذنك وتهتز لها كلك .. فأخبرني باسمها وهو يضحك ويهز رأسه ... شكرته وخرجت .

* * *

وفي حماس بالغ عدت إلى الفندق أسأل عن موعد إذاعة المسلسلات في التليفزيون تحركني الرغبة الملحة في أن أعرف .

وقبل موعد إذاعة المسلسل كنت أحتل المكان المناسب أمام جهاز التليفزيون الملون في صالة الفندق ... وجاء المسلسل مؤكداً أن الإنسان على دين إذاعته لا يستطيع أن يهرب من القالب الذي تضعه فيه ... حكاية صغيرة وأحداث قليلة كان من الممكن أن تقدم في ثلاث

دقائق .. ولكن مع الحشو والمط والإعادة والتكرار استغرقت ساعة وربع .

هذه هي الحال ـ هذه حقيقة مؤكدة ـ بالنسبة للفن الذي يعرض في بلد من البلاد عن طريق أجهزة اعلامه .. الناس على دينه ... إذا كان سريع الإيقاع كان دين الناس اليقظة والسرعة والوعي ... فإذا كان مترهلاً بطيئاً ... فالناس كذلك ....

... على دين إذاعاتهم .

في اليوم التالي .. في المحاضرة التالية رويت التجربة كاملة وأكدت لهم أن الأغنية التي كانت تملأ أذن الشاب موظف التلغراف لا بد أن تكون أغنية مترهلة .. وبالفعل اتضح أنها كذلك مثلها مثل تسعين في المائة من الأغاني العربية المكررة المعاني الممطوطة المتراصة المتورمة بالأورام الخبيثة التي تقتل اليقظة والانتباه والإبداع وتزرع في النفوس البشرية سموم التسويف واللامبالاة والتراخي .

رويت هذه التجربة في كل زمان ومكان ، وكانت تجتذب قصصاً كثيرة مشابهة أو عكسية تؤكد أن الإيقاع يسيطر على حياة الناس ويشكلها وأن الناس على دين إذاعاتهم .

وبعثت بالتجربة إلى الزميل الإذاعي القديم «ديمتري لوقا» الذي هاجر إلى استراليا منذ سنوات طويلة ومع رجوع البريد جاءني رده يقول :

ـ أنا معك في كل ما قلته عن الإيقاع خصوصاً بعد أن تعرضنا هنا في بلاد المهجر لهذا الإيقاع السريع في كل شيء .

وروى لي ديمتري حكايات عن الإيقاع عندهم مقارناً بإيقاع الحياة والعمل في مصر والبلاد العربية .

وأتذكر ... الأيام الشديدة المرارة في يونيو عام ١٩٦٧ عندما تحرك الجيش المصري في استعراض هائل للقوة .. ثم فجأة ... وفي ساعات قليلة احترقت كل طائراتنا على الأرض ... وانهار كل شيء ... وقالوا أيامها :

– كنا نتوقع الهجوم من هنا ولكنه جاء من هناك .

وأحس في حلقي بطعم العلقم وأنا أذكر كلمات مجرم الحرب الإسرائيلي موشى ديان : بهذه الطريقة المباغتة هزمت مصر هذه المرة ، وأستطيع أن أهزمها بنفس الطريقة عدة مرات ، فإن المصريين يفطرون فولاً ، ويتغدّون كورة ، ويتعشون أم كلثوم .

بالرغم من أنني أكره العقلية الإسرائيلية لآلاف الأسباب التاريخية والخلقية .. القديمة والحديثة .. إلا أنني أجد في طعم العلقم الذي تضمه كلمات تلك العبارة التاريخية المذكورة دواء شافياً ... لو فهمناه .

تعني هذه الكلمات أننا في مصر وأدنا القدرة على الإبداع التي أعطاها الله للبشر .. وأهملنا ملء عقولنا بالمعرفة الجديدة ... وكونا عادات لا فكاك لنا منها كلها ضارة مترهلة .

نأكل الفول في الصباح ولا نفكر في ابتكار غيره .. ونتغدّى كرة قدم ولا نفكر في لعبات أخرى .. حتى ان مستوى الكورة هبط هبوطاً شديداً في السرعة والاداء ولكن لا زلنا نتعصب لها لدرجة أن أحد رجال الكرة المبرزين في مصر يقول في صلاته «احمدك ربي أن خلقتني زملكاوياً» .

ونتعشى أم كلثوم وأغانيها المكررة حتى بعد أن تركت الحياة الدنيا نعشق أغانيها الطويلة الممطوطة ونريد أن نجعل كل شخص يغني نسخة من أم كلثوم .

كانت مقولة موشى ديان المريرة في عام ٦٧ ، ولا زلنا نهيل التراب على قدرة الإبداع بل أضفنا شكلاً فنياً متأخراً عقلياً واعتدنا على مترهلات المسلسلات تفعل فينا ما كان يفعله الأفيون مع شعب الصين .

تخلص شعب الصين من الأفيون وتقدم ... أطلق الأقمار الصناعية وصنع الصواريخ الموجهة والطائرات وصنع القنبلة الذرية ... ونحن لا زلنا ندمن الكورة ونتعاطى المسلسلات .

* * *

وتتداعى المعاني المريرة في ذهني عارضة مجموعة هائلة من الصور المحفوظة في مخزن الذكريات ... وأضحك وأنا ألقي أمام بصري صورة للممثل الكوميدي بيتر سيلرز الذي اختار أن يلعب دور مفتش البوليس الوقور الفريد الذي يشرف على تحقيق الجرائم .. وعندما يصل إلى القصر الكبير في سيارة الشرطة يمد أحدهم يده ليساعده ، ولكنه يضرب اليد في ازدراء .. ويترك السيارة وحده فيقع ويكاد يغرق في الفسقية الكبيرة في حديقة القصر .

وأستمر في الضحك وأنا أمنح لنفسي الحق في أن أتخيل وأكتب المشهد التالي .

المكتب صغير .. ولكن عليه عدد كبير من آلات التليفون وآلات الاتصال المختلفة ... والموظف الشاب الجالس إلى المكتب تبدو عليه الأهمية الشديدة وهو أنيق في ملابسه اللامعة .

الموظف الشاب ـ تماماً كالموظف الشاب في مكتب التلغراف يهز رأسه على نغمات أغنية . ولأنه كان يجلس وحده ، فقد كان يرفع صوته أحياناً ويهمس بكلمات الأغنية التي تدور في خاطره بنفس الطريقة التي سمعها وتأثر بها .

كان عهد جميل .. حاسد وعزول .. والبال مشغول .. البال مشغول ..

كان عهد جميل .. حاسد وعزول .. والبال مشغول .

(جرس التليفون) يدق .

يستمر الموظف الشاب يهز رأسه بعض الوقت حتى يكتمل النغم «المسلطن» في رأسه ثم يرفع السماعة ... والبال مشغول .. البال مشغول .

الشاب (في التليفون) آلو .. آلو .. آلو .. لا أحد يرد .

يضع السماعة مكانها ويستكمل هز رأسه على نفس النغمة .. التي تسيطر عليه .

كان عهد جميل .. حاسد وعزول .. والبال مشغول .. البال مشغول ..

(جرس التليفون) يقرع مرة أخرى .

الشاب يمد يده إلى نفس آلة التليفون ويرفع السماعة ويستمر التليفون في الدق ... فيدرك أن الجرس قادم من التليفون الثاني .. يضع سماعة التليفون الأول .. والبال مشغول ويرفع سماعة التليفون الثاني .. كان عهد جميل .. حاسد وعزول .. ويضع السماعة على أذنه التي تهتز ... كان عهد جميل .

الشاب (في التليفون) آلو .. آه .. هو أنا ... أبداً .. أبداً .. أنا لم أغادر مكاني منذ الساعة ٢٤١٨ ... هاهاها ... والبال مشغول البال مشغول .. إشارة هيه .. حسني .. سأكتبها حالاً .. ولكن لحظة واحدة حتى أبحث عن دفتر الإشارات ...

كان عهد جميل حاسد وعزول والبال مشغول والبال مشغول ..

وبعد دقائق من البحث وهز الرأس على نغمات نفس الأغنية ومقطعها الذي استمع إليها يتكرر عشرات المرات فتسلطن المقطع في عقله ووجدانه .. كان عهد جميل ... وتملأ أذنه حاسد وعزول .. ولا يستطيع إلا أن يرددها .. والبال مشغول .. فهي تسيطر عليه تماماً .. والبال مشغول .. وتتحكم في تصرفاته وحركته كان عهد جميل .. طول الوقت .. حاسد وعزول ودائماً .. والبال مشغول .. البال مشغول.

بعد دقائق يعثر على الدفتر كان عهد جميل.

الشاب (في التليفون) أخيراً وجدت دفتر الإشارات وهذا هو القلم .. تفضل ... أملني الإشارة .. هيه ... ماذا قلت ؟ .. كيف لم تقل شيئاً ؟ .. سمعتك تقول شيئاً فعلاً قلت لي «حا أقولك حاجة» ... قل ما تريد ... هاهاهاها ... كنت تردد أغنية سمعتها في السيارة ... حا اقولك حاجة اسمعها ... وفكر فيها وانساها .. هاهاها ... عجيب أمر هذه الأغاني ... أنا أيضاً كنت أردد كلمات أغنية كانت تملأ أذني ... كان عهد جميل .. حاسد وعزول آه ... فعلاً .. البال دائماً مشغول بالأغاني التي نسمعها ... والبال مشغول .. البال مشغول والآن .. الإشارة .. هل هي إشارة عاجلة ؟ .. آه معك حق ... الإشارات دائماً عاجلة ... من أين ؟ .. الحسكة ؟ .. أين هذه

الحسكة ؟ .. تذكرت ! ! .. لي قريب فيها .. يعمل هناك في المراقبة الجوية .. كنا نحب نفس الأغاني .. كان عهد جميل حاسد وعزول هيه .. الإشارة من الحسكة ... ماذا تقول الإشارة ... شوهدت طائرات مجهولة الهوية .. مجهولة ... لا بد أنها طائرات صديقة .. فالحسكة إلى الجنوب ... الطائرات العدوة تأتي من الغرب .. كان عهد جميل حاسد وعزول والبال مشغول ... الطائرات على ارتفاع منخفض ... ألم أقل لك انها طائرات صديقة .. لو كانت طائرات عدوة لجاءت على ارتفاع عال .. كان عهد جميل حاسد وعزول .. اطمئن .. لقد كتبت الإشارة وسأوزعها حالاً .. ماذا قلت ؟ .. هاهاها .. تردد نفس الأغنية .. حا اقولك حاجة اسمعها .. كلا .. لن أنساها . هاهاها .. انها الأغنية التي ترددها انتقلت إليّ .. يبدو أن الأغاني معدية كالكوليرا .. حا اقولك حاجة .. هاها .. هاها .

ووضع الشاب السماعة .. وراح يقرأ الإشارة مرة أُخرى .. وهو يهز رأسه على نغمات اختلطت فيها الكلمات .. حا اقولك حاجة اسمعها .. وفكر فيها وانساها .. كان عهد جميل حاسد وعزول والبال مشغول ..

ثم مد يده للتليفون .. ليرسل الإشارة ويعممها إلى الجهات المطلوب توزيع الإشارة عليها ..

حا اقولك حاجة اسمعها .. وفكر فيها وانساها ...

وفجأة دوّت انفجارات ضخمة ... واهتز المكان كله .. ولكن ليس على نغمات أغنية بطيئة الإيقاع تكرر نفس الكلمات والنغمات .. وإنما اهتز المكان كله وارتجف كله على نغمات إيقاع سريع عصري . هزات وقعت كثيراً في العالم المعاصر فهزت الأرض كالزلزال تحت

أقدام اللاهين الغائبين عن الوعي فلما استيقظوا وجدوا أن دنياهم قد انتهت .

تحت أقدامه اهتزت الأرض بفعل الانفجارات .. ومع صفارات الإنذار التي جاءت متأخرة كثيراً اختفت كلمات الأغاني الخاملة المعاني .. واختفت كل المعاني .. وبعد ساعات أخرى كان قد عرف معنى ما حدث .

لقد دخلت ١٢ طائرة إسرائيلية تتنزه في الأجواء ثم ألقت أطناناً من القنابل على المفاعل الذري العراقي ودكته تماماً .

* * *

أمر طبيعي جداً أن تضرب الطائرات الإسرائيلية المفاعل الذري العراقي .. أو مفاعل ذري في مصر أو في الكويت أو في أي مكان آخر في الوطن العربي .. أمر طبيعي لا يثير الفزع .

ولكن الذي يثير الفزع والرعب هو ما حدث بعد إتمام الجريمة وهو أن الـ ١٢ طائرة الإسرائيلية عادت إلى قواعدها سالمة ...

١٢ طائرة إسرائيلية تتنزه في الأجواء العربية وهي تصور تفاصيل النزهة وإلقاء القنابل على فيلم تليفزيوني تعرضه أمام مناحم بيجين عندما تعود سالمة غانمة إلى قواعدها فتلقى التهاني من رئيس العصابة .

يتم هذا بسبب غياب اليقظة والفهم والوعي وسرعة التصرف وسرعة اتخاذ القرار ... والأمراض الخبيثة التي يقاسي منها المواطن العربي بسبب تعرضه للمسلسلات الممطوطة المكررة المتورمة .. مع أن واجب هذا الاعلام أن يخلق لدى المواطن العربي تلك القدرة على أن

(يفهمها وهي طايرة)

فلا تنتظرها حتى تهبط وتضرب المفاعل الذري وتعود إلى قواعدها سالمة غانمة .

وتعربد الأسئلة في كياني :

كيف ؟

كيف لم تكن قواعد الصواريخ جاهزة حول المفاعل الذري لتسقط كل الطائرات المغيرة .. كيف لم يزود هذا المفاعل بقواعد صواريخ تسقط أي ذبابة تقترب من المفاعل .. حتى لو كانت الذبابة عربية ضلت طريقها .

كيف لم يقدر أحد المسؤولين هذا الاحتمال ويحسب حسابه ؟

كيف نظل هكذا متراخين .. حركتنا بطيئة .. نهز رؤوسنا على نغمات أغان مترهلة تزرع التراخي .

حا اقولك حاجة اسمعها .. وفكر فيها وانساها
حا اقولك حاجة اسمعها .. وفكر فيها وانساها
أنا في انتظارك خليت ناري في ضلوعي وحطيت
أنا في انتظارك خليت ناري في ضلوعي وحطيت

. . . . .

وأحس ، بالنار تشتعل في ضلوعي .. وأحس بالحسد الشديد المرير وأنا أقرأ في جرائد العاشر من يوليو سنة ١٩٨١ أنه عندما اقتربت طائرة واحدة ميج ١٧ من الجزء الشمالي الشرقي من جنوب أفريقيا .. كانت طائرات جنوب أفريقيا قد أحاطت به في الجو ... ودار بينهما حوار ساخن .

– من أنت وماذا تريد ؟

- أنا هارب من موزمبيق وأطلب اللجوء السياسي .
- أهلاً وسهلاً .. ولكن لا تأتي بأي حركة لا نقول لك عليها ... ومدافعنا موجهة إلى بطن طائرتك .. اتجه معنا إلى هذه الناحية وستهبط معنا في قاعدة جوية ندلك عليها .

وجرت الاتصالات بين طائرات جنوب أفريقيا من الجو لتكون الطائرات والدفاع الجوي والمطار مستعدة لأي احتمال خيانة .

أحسست بغيرة تشتعل في ضلوعي .. لأن العالم كله .. وجنوب أفريقيا أيضاً تفهمها وهي طايرة وتطير لتحيط بها ... لتتجنب شرها .

بينما نحن ..... !! !!

وفي حماس الرغبة في أن أعرف إجابة للأسئلة التي تبدأ بلماذا ؟ رحت أبحث عن إذاعة جنوب أفريقيا .

لم أفكر في السفر إلى هناك فإذاعة جنوب أفريقيا عند أطراف الأصابع على مؤشر الراديو . ورجعت إلى الكتاب الذي أهدانيه أحد العاملين في إذاعة وتليفزيون جنوب أفريقيا .. كنت قد التقيت به في لندن في الـ B. B.C. وكتب لي إهداء على الكتاب «إلى الرجل الذي يشترك معي في النظر إلى الـ B. B. C. إلى أنها أستاذة العالم في الإعلام الراقي » .

واستمتعت طويلاً وأنا استمع إلى برامج الإذاعة وأنا أراجع برامج التليفزيون .. نوعيات ذكية متجددة سريعة الإيقاع .. مبتكرة .. تفتح العيون على ما يجري في العالم .. تعطي للمستمع الخبرة وتحرك خياله وتبقي مستوى تذوقه الفني على أعلى المستويات وتشجع لديه القدرة البشرية التي وهبها الله للإنسان على الإبداع .

والإبداع هو أن تفكر في شيء ينفع الناس لم يفكر فيه أحد من قبل .

وتذكرت أن أول طبيب جراح أجرى جراحة نقل قلب كان من جنوب أفريقيا .

هذا الإبداع والابتكار هو السمة التي تميز شعباً يهز رأسه على نغمات متورمة مكررة عن شعب يهز رأسه على نغمات سريعة جديدة تشجع اليقظة والانتباه والإبداع .

فالناس على دين إذاعاتهم .

الإذاعة وزرع الإبداع

منذ عشر سنوات أجريت عملية جراحية خطيرة في جنوب أفريقيا أثارت ضجة عالمية ... كانت زرع قلب بشري مكان قلب فاسد .. وقدمت هذه العملية لشخص واحد امتداداً في عمره المنتج لسنوات قليلة ..

هناك عملية زرع أخرى أكثر خطورة يجب أن تتم في هدوء ودون إثارة ضجة . زرع الإبداع في العقل البشري المصري ... لتقدم امتداداً إلى الأبد للحياة المنتجة .. النضرة الخضراء . السعيدة .. لمصر كلها .

عن هذه العملية الأخيرة يدور الحديث هنا . زرع القلوب .. وزرع الإبداع وبناء مصر !! .

* * *

قال لي :

– هات تاريخ الجبرتي ... واقرأ فيه صفحة كذا .

وقرأت الصفحة التي أشار إليها .. وضحكت كثيراً وأنا أقرأ كيف أن أجدادنا المصريين كانوا دائماً خبراء في فنون الهتاف المسجوع ، فقد كانوا يهتفون :

– يا خفي الألطاف .. نجنا مما نخاف .

كان ذلك أثناء إلقاء الحملة الفرنسية للقنبر (القنابل) على جدودنا .

وعن القنبر قال الجبرتي :

– ولم يكونوا من قبل رأوه ولا سبق لهم أن عاينوه .

وبعد أن قرأت كل الكلام المسجوع في تاريخ الجبرتي عما حدث في مصر عام ١٧٩٨ قال لي كلمات لا زلت أذكرها حتى اليوم :

– في نفس الوقت كانوا في الغرب يبدعون الآلة البخارية وكانت قد سارت في فرنسا وانجلترا أول سيارة تدار بالآلة البخارية ... وكان المواطن الفرنسي والانجليزي يفزع من السيارة في الطريق أول الأمر ، كما كان زميله المصري يفزع من القنبر .

ولكن تحت عيني الرجل الغربي تطورت السيارة في مائة عام ، راقب العقل الغربي هذا التطور واشترك في إبداع التطوير والتجديد والابتكار . منذ أولى المحاولات : إيقاد نار تحت وعاء ماء لاستخراج البخار واستخدامه كقوة محركة لإدارة عجلات .

ويستمر العقل يتابع كل تطور صغير ... كل مكبس يضخم طاقة البخار .. كل شمعة احتراق كل مروحة تبريد .. كل زيادة في السرعة .. كل تغيير طفيف طرأ على السيارة تابعه العقل الغربي بكل تفاصيله . واشترك بطريقة أو بأخرى في تحسينه .

وشرح لي أبي أيامها كيف أن مصر التي تأخرت طويلاً عن زميلاتها من العالم المتمدين (كان يسمي مصر : الزميلة التي تأخرت قليلاً) يجب أن تلحق بزميلاتها في كل المجالات .

وكان يرى أن معايشة العقل الأوروبي لكل الاختراعات وفي مقدمتها السيارة التي تسير في الطريق تتطور تحت عينه كل يوم .. هذه

المعايشة هي التي جعلت هذا العقل يتدرب على التجديد والابتكار .. أي ان هذه المعايشة زرعت في العقل القدرة على الإبداع .

أما مصر فقد فاتها أن تعايش نمو السيارة وتتدرب على هذا النمو ... فهي قد عرفت السيارة فجأة .. وراقبتها في فزع أول الأمر كأنها شيء من إبداع الشيطان ... ثم قبلتها على علاتها كما قبلت نماذج كثيرة من إبداعات العقل الأوروبي .

لذلك اهتم أبي بمشروع لمهندس مصري شاب لأنه رأى أنه يستطيع أن يقدم للعقل المصري ـ بشكل مركز ـ ما كسبه العقل الأوروبي الذي عاصر تطور السيارة جزءاً جزءاً وفهمها شيئاً فشيئاً ولم يفاجأ بها كاملة النمو .

هذا المهندس المصري الشاب ابتدأ يتحرك سنة ١٩٢٧ .. سافر إلى أمريكا وفرنسا وانجلترا وإيطاليا .. وزار كل المصانع التي تنتج سيارات كاملة أو قطع غيار منها .. ثم عاد إلى مصر حيث وضع مشروعاً لسيارة جديدة تماماً .. تختلف عن أي سيارة أجنبية واحدة ... لأنها مكونة من أجزاء من مئات المصانع ... من كل أرجاء العالم الغربي .

يستورد هذه الأجزاء ويركبها في مصر ... وفي نفس الوقت يصنع الأجزاء جزءاً جزءاً .. وبعد عشر سنوات تكون كل أجزاء السيارة قد تم تصنيعها في مصر .. بأيد مصرية تدربت ومهندسين مصريين أجروا التعديلات وطوروا .. تحت عيون كل المصريين الذين يعايشون كل تغيير في كل قطعة وكل مسمار .. ويكون العقل المصري قد عايش في هذهالفترة المركزة ما عايشه العقل الأوروبي في مائة عام .

كان أبي يتابع هذا المشروع باهتمام شديد جداً لأنه كان يرى فيه

رمزاً للإبداع الذي يمكن أن يزرع في العقل المصري ليجتاز شقة التخلف عن اللحاق بزميله العقل الغربي .

ولكن الوزارة المختصة بمثل هذه المشروعات في مصر أيامها رأت رفض المشروع ... ذلك لأن العقل البريطاني الاستعماري الذي كان يصدر القرارات أيامها أدرك بذكائه الفذ أن هذا المشروع يستطيع أن ينمي العقل المصري المبدع .

بعد رفض هذا المشروع بسنوات قليلة أنشأ العقل البريطاني الإذاعة المصرية ، ورسم لها سياسة تستطيع أن تبقي العقل المصري متأخراً لا يقدر على اللحاق بالعقل الأوروبي .. بوأد روح التجديد والابتكار وخنق الإبداع لدى المواطن المصري .

وعلماء العالم ومفكروه يؤكدون أن توفير القدرة على الإبداع في عقول أفراد أمة من الأمم يعني تقدمها ورقيها أما غياب القدرة على الإبداع والتجديد والابتكار ، والاعتماد على التقليد والنقل والاقتباس والاستيراد يعني انهيارها .

عندما قامت ثورة ٢٣ يوليو بعد مشروع المهندس الشاب بربع قرن .. دار الحديث في الصحف والإذاعة وفي كل مكان حول الإنجاز الرائع للثورة المباركة عندما تم اتفاق مع شركة فيات للسيارات الإيطالية على أن تصنع هنا في مصر .

وفجأة .. وجد العقل المصري سيارة تقليد كاملة أمامه . هي هي نفس السيارة التي كانت تجري في الشارع المصري تحمل علامة «فيات» تغير فيها شيء ضخم .. صارت تحمل علامة «نصر» .

ولم يثر في العقل المصري غير الإبداع المصري المشهور : إبداع النكتة :

رُوي أيامها أن مهندساً مصرياً دُعي إلى إيطاليا لزيارة مصانع فيات .. وبعد أن زار كل المصانع سأله المرافق :

– هل تريد أن ترى شيئاً آخر ؟

فأجاب المهندس المصري :

– كنت أحب أن أرى مستر فيات .

– ليس هناك أحد اسمه مستر فيات .. فيات اختصار لجملة مكونة من ٤ كلمات «فابريكات ايطالية في تورينو» .

وهز المهندس المصري رأسه وسكت ولم يلبث أن سأله المرافق الإيطالي :

– وأنتم ... هل عندكم مستر «نصر» .

وابتسم المهندس المصري في تسليم وإبداع الفكاهة يلهمه بالرد :

– لا لا .. كلمة نصر مكونة من حروف جملة من ثلاث كلمات تصف انتاجنا من السيارات . [**نصب صناعي رسمي**]

وتسير السيارة التقليد في الشوارع المصرية لا تصنع شيئاً للعقل المصري ، غير إبداع الفكاهة والتقليد وإبداع الفكاهة لا يخلق الأمم ولا يبني شيئاً .

بناء مصر اليوم لا يمكن أن يتم إلا إذا سبقه زرع القدرة على الإبداع (وليس التقليد) والتخيل والتجديد والابتكار ... وهو ما نطلق عليه اسم «بناء الإنسان المصري» .

فإنه إذا غابت عن إنسان ما القدرة على الإبداع والابتكار فانه يعجز عن تصور وتخيل ما يمكن أن تتطور إليه الأمور ... إذا غابت تلك القدرة فإنه إذا نظر حوله فلن يرى ما تسجله عدسة الكاميرا

مثلاً ... إنما سيرى فقط ما اعتاد على رؤيته ... وقد يعجز تماماً عن رؤية العيوب .

وأضرب هنا مثلاً صغيراً .. تستطيع أنت بنفسك أن تتأكد منه . هو رجل من أصحاب توكيلات السيارات .. من كل الأنواع والأحجام والماركات والجنسيات ... تقرأ اعلاناته وترى صور معارضه الفاخرة في التليفزيون وفي المجلات الفاخرة .

ومع ذلك ... فلكي تصل إلى محلاته الفاخرة هذه فعليك أن تخوض في مجموعة من البرك من المياه الراكدة أحياناً أو تسقط في مطبات صغيرة وكبيرة ، ضحلة وعميقة .. أحياناً أخرى .

عينا هذا الرجل تقع كل يوم على هذه المطبات ولكنه لا يراها ، لا تسجلها أجهزة الرؤية عنده ... لأنه قد يملك القدرة على استغلال أمواله في تجارة رابحة بالفعل والتقليد والاستيراد ولكنه لا يملك القدرة على الإبداع والتخيل لكي يستطيع أن يتخيل كيف سيكون الطريق أمام محله الفاخر يسر الناظرين لو بذل جهداً صغيراً ووجه نسبة ضئيلة من مكاسبه لإصلاح الشارع أمام محله .

ولكن عينيه تنظران ولا تسجلان .. لأن العقل لا يأمر أجهزة الجسم بالبناء والعمل .. بل العقل يهمس دائماً «وأنا مالي» .

والإنسان الذي تحتاجه مصر هو الذي يملك العين القادرة على اكتشاف العيب ثم العقل الذي يستطيع أن يتخيل كيف ستكون الصورة رائعة لو تم إنجاز إزالة هذا العيب .. ثم أمر أجهزة الجسم بالتحرك ، وفي هذه الحالة سيعمل هذا العقل وحده على البناء وعلى محو الأمية وعلى تحديد النسل وعلى الانضباط في العمل وفي الطريق

وفي المرور وعلى العمل في كل المجالات .

لذلك فنقطة البدء في بناء مصر هي زرع الإبداع في عقل المواطن المصري أي إعادة بناء الإنسان المصري لكي يعود إلى أصالته وجذوره مبدعاً قادراً على العطاء كما كان على مر العصور .

وإذا كنت تعرف أن الذي قام بعملية زراعة القلب البشري اسمه «الدكتور بارنار» فدعني أعرفك بالوحيد القادر على زرع الإبداع والابتكار في العقل البشري .. الذي يستطيع أن يستخدم الفن في بناء الإنسان اسمه «الإذاعة والتليفزيون» .

* * *

عندما نشر هذا المقال السابق في جريدة الأهرام في سلسلة مقالات تحت عنوان «تعالوا نبني مصر» تحدث عنه الكثيرون ..

إلا أن أعجب من تحدث عنه كان أحد الزملاء الإذاعيين الذي جاءني يقول :

– أعجبني جداً مقالك في الأهرام ... ولكنك لم تقل لنا كيف تستطيع الإذاعة أن تزرع الإبداع والابتكار في العقل البشري ؟

وسكتت طويلاً أبحث عن إجابة غير قاسية وفي النهاية أجبته .

أنا كتبت هذا المقال لأعرف الإنسان العادي بأهمية الإذاعة والتليفزيون في حياة الأمم وبنائها عن طريق بناء ناسها .

وليس مطلوباً من الإنسان العادي تفاصيل الطريقة التي تصنعها الإذاعة من أجل تنفيذ هذا الواجب ... ولكنك أنت ـ بصفتك عاملاً تعمل في الإذاعة ـ يجب أن تعرف كل التفاصيل .

وتحركت ابتسامة خفيفة على شفتي لما وجدته هو أيضاً يبتسم ..

وسكت .. وسكت هو لحظة ثم قال :

– ولكنك كان يجب أن تقول كيف ... فالرجل العادي يجب أن يعرف أيضاً .

قلت له :

– حسن ... قل للناس العاديين الذين تعرفهم أن الذي يجب أن تصنعه الإذاعة والتليفزيون من أجل زرع الإبداع في الإنسان المصري ... هو أن تبدأ بالتوقف عن إنتاج هذا الحشد الهائل من المهلهلات والبرامج البلهاء .. والأغنيات المتورمة والاعتماد على تعبير « من فضلك أعطنا فكرة عن » الذي يستخدمه المذيعون مع المتحدثين ويظنون أنهم يصنعون برامج إذاعية .

– وبعدها .

عاد يسأل :

– بعدها .. يجب أن يضع كل إنسان يعمل في حقل الإذاعة والتليفزيون أمام عينيه دائماً شعاراً يقول :

(لا تقدم للناس شيئاً إلا ما يبني الإنسان ...
واعلم أن الناس على دين إذاعاتهم ..
فإذا أردت ناساً أذكياء عصريين
فلتكن إذاعتك ذكية عصرية) .

« دولار بناء الإنسان العربيّ »

يطلق العالم اسم « دولار البترول » على أموال الخليج ، وهذه التسمية لا تعنيني .

إنما يعنيني ذلك القدر من الدولارات التيأثرت في الآونة الأخيرة في الوطن العربي .. بحيث تستحق هذه التسمية التي وضعتها على رأس هذه الكلمة .

(دولار بناء الإنسان العربي أو هدمه)

اعتاد المنتج الخليجي أن يملأ حقيبته بدولارات الفن ذات الشحنة العالية التي تصيب العقل العادي بصدمات كهربية فتسبب له الاختلال.

ويهبط المنتج أهلاً وسهلاً في بلده وبين أهله .

ولبعض الفنانين والفنيين في مصر حاسة شم عالية لدولار الفن .

وتدق أجراس التليفونات تبلغ كل الزملاء أن « فلان » وصل ويكون هذا الحدث ـ وصول فلان ـ بداية لتطورات درامية مثيرة مثل التطورات الدرامية التي وقعت عندما جاءت أنجريد برجمان في فيلمها المأخوذ عن مسرحية « الزيارة » المشهورة .

في إحدى الحفلات التي تقام في بيت «ع . ع» يتحدث رجل يجد صعوبة في الكلام :

– عندي لك قصة هائلة .. معالجة جديدة لأكبر قصص الحب في العالم «مجنون ليلى» .

ويلتفت ع . ع إلى المتحدث ويقول له :

– روميو وجولييت .

فيقول الرجل الذي يجد صعوبة في الكلام :

– أستاذ علي .. أنا اختصاصي أن أدير الإنتاج .. أما العمل الفني فأنت ابن بجدتها تحدث أنت يا أستاذ علي .

ويتحدث الأستاذ علي ... الذي أعد الدعوة في بيت «ع . ع» .. ويقول :

– الحكاية تبدأ بفتاة حلوة صغيرة .. تلعب دورها هذه الفتاة الحلوة التي تجلس أمامنا (ابتسامة من الفتاة الحلوة) تقع في حب أستاذها الوقور .. وسوف يتعاقد لنا مدير الإنتاج مع الأستاذ محمود مرسي .

ويرفع مدير الإنتاج الذي يجد صعوبة في الكلام يده ويقول :

– اطمئنوا إلى أن الأستاذ محمود مرسي سيكون معنا ... فهو لا يرفض لي طلباً ... لا مؤاخذة يا أستاذ علي .. آسف للمقاطعة .

ويهز الأستاذ علي رأسه وهو يضحك ويكمل كلامه :

– لما يجد الرجل الوقور أن الفتاة الصغيرة تحبه يتدله في حبها .. لماذا ؟ .. لأنه عاش طول حياته غارقاً في العلم والبحث العلمي ولم يعرف الحب .. ويتقدم لأهلها ليتزوج بها .. ولكن بين أبو الفتاة وهذا الأستاذ عداء قديم .. ولكنه لا يستطيع أن يقول لابنته التي دلعها طول حياته «لا» .. ولذلك فهو يتصنع الموافقة .. ويقوم بإبلاغ زوجة الأستاذ وأولاده ... الذين يقلبون حياة الأستاذ إلى

جحيم .. ويضطر في النهاية إلى العودة إلى زوجته وأولاده .
يسمع المنتج صاحب الحقيبة ذات الشحنة العالية القصة ويتساءل :
– هل هذه هي قصة «روميو وجولييت» ؟
ويبتسم الأستاذ علي ويقول :
– أنظر إلى العداء بين الأستاذ وأبو الفتاة الجميلة .. نفس الموقف .. وهي رؤية عصرية .
– ولكن .. أليست هذه نسخة طبق الأصل من مسلسل كذا ... ومسلسل كيت ..
– لالالا .. وجهة النظر هنا مختلفة تماماً . في مسلسل كذا كان الحب بين البطل وخادمته . في مسلسل «كيت» كان الحب بين الموظف الكبير والأرملة الشابة .. لا لا لا .. هذا موضوع جديد تماماً ..
ويميل الرجل الذي لا يجيد الكلام على أذن المنتج صاحب الحقيبة ويهمس :
– اختصاصي الإنتاج .. والأستاذ «ع . ع» ستتفق معه على ١٣ حلقة ولكنه سيجعلها ١٦ حلقة .

ولا يخرج صاحب الحقيبة إلا بعد أن يكون قد دفع عربونات لـ «ع . ع» ومدير الإنتاج ... والفتاة الحلوة وأعطى لمدير الإنتاج مبلغاً كبيراً ليوصله إلى «محمود مرسي» .

وعندما يتصل مدير الإنتاج في الغد بصاحب الحقيبة ويبلغه أن محمود مرسي رفض العمل لأنه مشغول في عمل آخر في نفس الوقت يكون التراجع مستحيلاً فقد وقّعت العقود .. وأوشكت الكاميرا أن تدور والنتيجة ستكون مسلسلاً هابطاً ممطوطاً متورماً .. كالمسلسلات

السابقة يعطل القدرات ويئد العقل .

هذه هي لعبة دولار الفن العربي .. التي لا يخرج منها غير شيء مفيد واحد :

فكاهة يرسمها مصطفى حسين وينشرها هنا أو هناك .

ترزي يقيس قماشاً قدمه له الزبون للتفصيل .. ويقول للزبون :

جايب لي مترين كستور وعايزني أفصل لك منها ١٣ جلبية .. ليه ؟ .. أنت فاكرني مخرج تليفزيوني ؟

وتستمر لعبة المسلسلات مع أصحاب الحقائب ذات الشحنات العالية التي تصيب العقل بالخلل .. وينتج فناً متأخراً عقلياً .. تمزق كل شيء جيد في شخصية الإنسان العربي ...

لعبة المسلسلات

في أيام رأس السنة في عام ١٩٧٥ زرت الكويت .. وفي اليوم الأخير من الزيارة التي استغرقت أسبوعاً .. طفت على المحال هناك .. وخصوصاً محال لعب الأطفال .. كنت أيامها أكتب مسلسلاً تليفزيونياً عنوانه «لعبة التفكير» وكنت أرغب في أن أضع في بعض حلقاته بعض لعب الأطفال التي استحدثتها مصانع الغرب لتبني شخصية الطفل وعقله وتحثه على نمو الذكاء وتدفعه إلى الابتكار والتجديد .. أي التي تثير خياله وتدفعه إلى التفكير .

رأيت في طوافي بمحال اللعب عدداً هائلاً من العرائس والقطارات والسيارات التي تتحرك عن بعد والإنسان الآلي ولعباً كثيرة تحفل بها محال اللعب في القاهرة .. ثم أخيراً عثرت على بغيتي .

علبة معدنية ملونة سطوحها تزخر بالزراير في شكل جداول «جدول الضرب» .... إذا ضغطت على الزرار الذي عند ٥ × ٦ جاءتك النتيجة من داخل العلبة بصوت جميل لفتاة صغيرة تقول لك ٥ × ٦ = ثلاثون .

هممت بشراء اللعبة ولكن صاحب المحل قال لي .. جرب كل الجداول .. فجربتها .. وفوجئت بأن أكثر النتائج خاطئ مما يدل

على أن هناك خللاً باللعبة .. وطلب مني صاحب المحل أن أبحث في محل آخر في حي بعيد لعل تكون عنده نسخة صالحة من اللعبة .

ولكنها كانت في المحل الآخر فاسدة .. وعدت من الكويت وأنا أضرب أخماساً في أسداس ولا أحصل على الإجابة الصحيحة .

ولكنني حصلت على الإجابة في زيارتي الأخيرة لدولة قطر التي تمت في بداية عام ١٩٨٠ .

في أول ليلة لي هناك التقيت بالصدفة بالصديق العزيز محمد إبراهيم وكيل التليفزيون هناك ودعاني للسهر في بيته ..

ما كدت أجلس حتى قال لي :

– أعلم بحبك للعب الأطفال التي تعلم وتساعد الطفل على اجتياز بعض الحواجز التعليمية في تسلية ومتعة .. هذه اللعبة ساعدت ابني ولكنه أفسدها للأسف .

وأعطاني اللعبة .. إنها جسم من البلاستيك الملون في حجم حاسب الكتروني متوسط الحجم .. اللعبة تحمل اسم «تكلم وتهج» .

وذكر لي أنه اشتراها من لندن منذ شهور ولكنه متأكد أنني أستطيع أن أجدها في بعض المحال في قطر وبالذات في محل كبير ذكر لي اسمه .

في اليوم التالي مباشرة ذهبت إلى المحل ووجدت اللعب معروضة .. كم ثمنها ؟ ٣٥٠ ريالاً قطرياً أو ما يعادل ٧٠ جنيهاً مصرياً أو ٩٨ دولاراً وطلبت شراءها على أن أدفع ثمنها بالدولار حيث لم يكن موجوداً معي عملة قطرية .. ولكنهم رفضوا .. وطلبوا مني أن أغير الدولارات التي أحملها من أحد تجار العملة .. وهو قريب .. وذهبت

مع صديق .. وغيرت المبلغ وعدت فرحاً لأشتري اللعبة .

دعني أشرح لك اللعبة .. اللعبة بها حروف الهجاء كلها .. وأرقاماً .. تضغط على رقم ٧ مثلاً فتقول لك اللعبة – بصوت فتاة صغيرة حلو ـ تهج كلمة كذا . «وهي كلمة بسيطة الهجاء» فتضغط على زراير الحروف متهجياً الكلمة .. وإذا كان هجاؤها صح قالت لك اللعبة ذلك وطلبت منك أن تتهجى كلمة أخرى «أصعب» .. وهكذا تتدرج الكلمات في الصعوبة ..

وفيها عدد هائل من الكلمات .. عدت أشتري اللعبة فقيل لي ان القطعة الأخيرة من اللعبة بيعت منذ ٥ دقائق لشخص رآني وأنا أجربها . فما كدت أذهب أغير العملة حتى اشتراها .

قلت لهم حسناً .. أريد منها واحدة أخرى .. قالوا إنهم سيحاولون .. ثم في اليوم التالي قالوا إنها لم تعد موجودة في قطر كلها .

وشكوت في كل مكان .. حتى كانت لحظة التنوير التالية التي عرفت فيها السبب . عندما قال لي أحد الخبراء :

– أنت تبحث عن لعبة تتكلف كثيراً في الإنتاج .. التاجر لا تهمه هذه اللعب لأن نسبة ربحه فيها تكون قليلة .. انه يشتري اللعب الرخيصة فقط لأنها تحقق ربحاً كبيراً .. ولذلك لن تجدها .

كدت أصرخ وأنا أستمع إلى هذا التفسير .. لأنني فجأة وجدت أمام نظري طريقة التفكير التي لم نتخلص منها في مصر وفي البلاد العربية .. في كل الأنشطة الفنية .

هؤلاء الذين ينتجون المسلسلات ينتجون هذا الفن الممطوط لأن البلاد العربية تشتري الفن بالساعة .. فينتجون الفن الذي يستطيع

بإيقاعه أن يحقق أكبر كسب دون أن يهمهم أن يستطيع أيضاً بايقاعه الممل أن يقضي على اليقظة والانتباه ويدفن القدرة على الإبداع والتجديد تحت أنقاض البطء والتراخي ويمزق الشخصية ويهدم تماسكها وقدرتها على التصرف ورغبتها في العمل والبناء .

أما العمل الفني الذي يبني الإنسان ويتسلل إلى النفس البشرية ويزرع فيها – برقة – الصفات التي تخلق المواطن الصالح الواعي اليقظ فلا ينتجه لأنه يكلف كثيراً فلا يحقق ربحاً كثيراً .

طريقة تفكير تسود هنا وهناك .. يجب أن تنسف من العقول المسيطرة على استيراد لعب الأطفال .. وعلى نشر الكتب السطحية .. وعلى لعبة انتاج المسلسلات الممطوطة :

وإلا فمستقبل الطفل العربي .. ومستقبل الإنسان العربي ... مظلم للغاية .

أين المفـرّ من حكايات ألف ليلة وليلة ؟

لاحظت أن صديقي يتابع بنظره فتاة تروح وتجيء في صالة المطار .. تظهر حيناً وتختفي حيناً مما يوحي أنها تعمل بالمطار .. توقفت عن الحديث فلم يحس بتوقفي .. ضحكت ضحكة عالية فالتفت إليّ متسائلاً فقلت له :

– تذكرت حكاية مسلية أحب أن أقصها عليك . ولما كانت الفتاة قد اختفت فقد التفت إليّ الصديق .. ورويت له كيف أنني كنت أجلس مع أبي في أحد المحلات العامة عندما لاحظت أنه ينظر إلى فتاة تجلس ورائي .. فاسترقت إليها نظرة وقلت له :

– هذه الفتاة التي كنت تنظر إليها .

فابتسم أبي وقال :

– إنها جميلة جداً .. أليس كذلك ؟

فقلت له :

– ألا تلاحظ أنها تشبه تمام الشبه شخصاً تعرفه ؟

فعاد أبي يتأملها .. وهز رأسه نفياً ..

وفي تساؤل قال :

– تشبه من ؟

فقلت له :

– تشبه والدتي .

وراح أبي يحملق في الفتاة .. مستنكراً أول الأمر .. ثم ظهرت على وجهه علامات الدهشة وهو يقول :

– تمام .. هي بالضبط .

صديقي ـ في المطار ـ فكر لثانية واحدة ثم قال :

– تقصد أن الفتاة التي كنت ألاحقها بنظري منذ جلست في المطار تشبه زوجتي .

هززت رأسي أن «نعم» ، فهز رأسه عدة مرات مستنكراً وهو ينتفض واقفاً ويتركني ويذهب .. اختفى عن نظري دقائق قليلة .

عندما عاد كان يسير بخطوات بطيئة وكان يحملق في ابتسامتي .. وجلس مكانه وحملق فيّ وهو يقول :

– نسخة طبق الأصل – ولكنني لم أحس بهذا الشبه إلا عندما أخبرتني .

لو استرسلت أنا أو لو استرسلت أنت فسوف تذكر حكايات كثيرة تؤكد الحقيقة التي أريد أن أصل إليها .. لأنطلق منها .

إنها قاعدة راسخة .. ان التعود يتغلغل عميقاً في النفس البشرية كجذور شجرة ضخمة لا تحس بها النفس البشرية .. ولكن الشجرة تطرح نفس الثمر دائماً .

والحلقات المسلسلة التي يقدمها التليفزيون أصبحت صنماً مسيطراً لأن الناس اعتادوا عليها .

والحلقات المسلسلة شكل فني متأخر يتغلغل في النفس البشرية

فيشل القدرة على الفهم السريع ويزرع البطء والتراخي واللامبالاة .. فيصبح شجرة تطرح نفس الثمر .

ولنأخذ محمد فاضل نموذجاً في هذا الأمر .

لقد ابتدأ الرجل حياته الفنية بالشكل الفني التليفزيوني السليم .. حلقات «القاهرة والناس» وحلقات «الناس والفلوس» .. حيث كانت كل حلقة قائمة بذاتها تنقل للمشاهد تجربة كاملة بشكل مركز . ولكن مرض المسلسلات لحقه وأصابه فإذا بعمله الأخير «صيام صيام» مصاب بالبطء والمط .. ولولا هذا لكان عملاً عظيماً من البداية حتى النهاية .

استمتعت بمسلسل صيام صيام استمتاعاً كاملاً لأنني عندما رأيت الحلقة الثانية والثالثة أحسست ببدء سيطرة المط والانتفاخ .. فقررت ألا أشاهد كل الحلقات .. أشاهد حلقة وأترك التالية .. واستطعت أن أتابع الأحداث التي كانت تتكرر .

وما يقال عن صيام صيام في رقة يقال بكل قوة عن مسلسلات الإذاعة والتليفزيون ـ تكرار ومط وتورم وانتفاخ .

ولو عرف منتجو المسلسلات من أي درك سفلي نبت هذا الغصن الفاسد وكيف نما حتى أصبح هذا الصنم المسيطر فلعلهم يفيقون إلى حقائقه المدمرة فيلفظونه .

في بداية القرن العشرين كانت السينما اختراعاً حديثاً لم يدرك العالم إمكانياته الهائلة .. ولكن بعض العقول الذكية التي تعرف التخطيط كانت تدرك تلك الإمكانيات .

كانت الأفلام السينمائية أيامها مجرد بكرة واحدة من الفيلم يستغرق

عرضها عشر دقائق وكان الناس يذهبون إلى المقاهي يتفرجون على هذا الشيء الجديد المبتكر .. ولكنهم لا يفكرون في الذهاب مرة أخرى وابتدأت القلة الذكية تفكر .. كيف يزرعون في الناس عادة التردد على السينما كما زرعوا عادة التدخين .

واحد من هؤلاء الأذكياء دعا إلى اجتماع قال فيه :

توصلت إلى خطة فريدة .. جئت بها من البلاد العربية حيث نقل لنا سير ريتشارد بيرتون طريقة حياتهم في خيام الصحراء وكيف يعيشون في بطء وتراخ .. متمثلة في كتاب قصصهم ألف ليلة وليلة وشهرزاد .. لقد استطاعت الحسناء العربية أن تفتن الشيخ العربي بحكايات ترويها بالليل وتحسبها بدقة بحيث تنتهي بموقف مثير مع طلوع الصباح .. وتسكت عن الكلام المباح .

أنقذت شهرزاد عنقها بهذه الطريقة ومدت من عمرها ونحن سوف ننقذ أعناقنا ونمد من حياة السينما بنفس الطريقة .

سنصنع حكاية واحدة في عشرة أجزاء أو عشرين أو ثلاثين .. ينتهي كل جزء بحدث مثير .. البطل يقع من أعلى عمارة .. السيارة تسقط في هوة والبطلة بداخلها ...

الطائرة تنفجر في الهواء ... القطار يأتي مسرعاً والبطلة موثقة على القضيب .. بهذه الطريقة سيأتي الجمهور في الأسبوع التالي ليرى ما حدث للبطل والبطلة كما كان الشيخ العربي يؤجل إعدام شهرزاد لتواصل رواية حكايتها .. ويتعود الجمهور على ارتياد السينما .

صاح واحد من المجتمعين محتداً :

– هذا ليس فناً .. هذا تشويه للفن ، وتمزيق للأصول الدرامية ..

وضحك على الذقون .

فصاح صاحب الفكرة الأصلي :

- أعلم هذا جيداً جداً .. هذه حركة مرحلية مرحلة الضحك على الذقون وتشويه الفن ... نحقق بها هدف ارتياد السينما .. ثم ندفن هذه الطريقة .. ونقدم الفن فقط .

وبدأت المسلسلات :

في عام ١٩١٣ - ١٤ .. حتى عام ١٩١٧ امتلأت دور السينما الجديدة بالمسلسلات ونهاياتها الحراقة التي يطلقون عليها (الطافيات) ولما اعتاد الناس على الذهاب إلى السينما ... توقفوا عن المسلسلات وواروا جثتها التراب خجلاً من أنهم لجأوا إليها .. وبدأوا يقدمون الأعمال الفنية الكبيرة المركزة ..

مرة أخرى عام ١٩٤٠ اضطروا إلى الاستعانة بالمسلسلات .. كان التفكير العلمي والتفكير فيما يحمله المستقبل من إنجازات علمية كبيرة هو الشكل الجديد الذي يجب أن يعودوا عليه الجماهير .. وعادوا يضحكون على الذقون بالمسلسلات التي استخدموا فيها الحيل السينمائية التي اكتشفوها حديثاً .. ولكنهم ما لبثوا أن واروا هذه الجثة التراب أيضاً .

ولما جاء التليفزيون المصري إلى الحياة سار في انتاج الأعمال الفنية المستقلة .. ولكن ما لبث أن دخل المجال الفني تليفزيونات غنية عربية .. وهنا قامت مجموعة من المغامرين بإخراج الجثث السابق دفنها في العالم .. ولما لم يستطيعوا إنتاج مسلسلات علمية فقد اقتصروا على أسلوب حكايات شهرزاد التي تروي الحكاية الواحدة ممطوطة في

ثلاثين ليلة الأمر الذي يتفق تماماً مع الذين يملكون الفراغ .

ومع هذا نشأ نوع جديد من التأليف .. يتفق المؤلف والمخرج على عدد يتراوح بين ١٣ ، ٣٠ نهاية أو طافية مثيرة . ويحشون أحداثاً ممطوطة مصنوعة بين هذه النهايات .. ويحدث هذا نفخاً وورماً .. والورم يصير خبيثاً يحدث الشلل والتخلف والتراخي .. وكل الأمراض التي تعطل التقدم والرقي والحياة العصرية السريعة الإيقاع .

وانتشرت المسلسلات .. اعتدنا عليها وانغرست لدرجة أن الفرار من قبضتها والتخلص من أثرها السيئ أصبح شيئاً صعب التحقيق .. ولكن ليس مستحيلاً .

هل أقترح حلاً لا مفر منه ؟

يصدر الأمر إلى كل مخرجي ومؤلفي الإذاعة والتليفزيون بحضور عرض سينمائي لمدة ٣ ساعات يومياً .. في أحد ستديوهات التليفزيون .. وإلا يعاقبوا بالفصل .

العرض السينمائي اليومي يقدم :

حلقات « الهارب » .. كل حلقة قائمة بذاتها .. ما عدا الحلقات الأخيرة .

حلقات «سفينة الحب» .. كل حلقة تتضمن ٣ قصص كاملة منفصلة «عاطفي – ميلودرامي – كوميدي» .. والقصص الثلاث متداخلة في إطار فكاهي .

حلقات « كوكب القرود » .. حلقات من الخيال العلمي كل حلقة قائمة بذاتها .

حلقات «منزل صغير في البراري» .. الحلقات التي أثبتت أن الحياة

اليومية العادية البسيطة تستطيع أن تكون مشاهدة ممتعة .. وتستطيع أن تبني الإنسان ..

والغرض من هذا العرض المتواصل أن ينمو في نفوس هؤلاء عادة تقديم الأعمال الفنية المركزة القادرة على بناء الإنسان.

أثر الصّور المتحرّكة

التاريخ هو العلم الذي إذا أحسنت دراسته فانه يستطيع أن يعلمك ما سوف يحدث في المستقبل . «عالم من علماء التاريخ»

وأعود هنا إلى تاريخ السينما وأثرها في الإنسان الذي يراها منذ كانوا يطلقون عليها اسم «الصور المتحركة» .

كانت السينما أول ما نشأت «لعبة» .. وقد تحدثت عن جانب من بداياتها في الصفحة السابقة ... ويهمني هنا أن أتحدث عن حدث هام وقع في عام ١٩٢٨ .

كانت قد أنشئت أكاديمية فن وعلوم الصور المتحركة .. تضم مجموعة من الفنانين الحقيقيين أدباء وفنانين تشكيليين ، وكانت أميركا قد أنتجت مجموعات هائلة من الأفلام الطويلة الفنية .. مما جعل الأكاديمية تفكر في تنظيم مسابقة سنوية لأحسن الأفلام عندهم .. واجتمعت الأكاديمية تناقش هذه الجائزة ... قدمت الصحف أيامها .. وخصوصاً النشرات المتخصصة .. ملخصاً لما دار في مناقشة الأكاديمية.

الجائزة والتمثال :

(١) غرضنا هو تشجيع الفيلم السينمائي الجيد ... فهناك عدد هائل من الأفلام السيئة التي تسيء إلى الإنسان .. يجب أن يعلم منتجو

الأفلام أن أكاديميتنا لا ترضى عن الإنتاج الذي يصيب المواطن الأميركي بالضرر .

(٢) إذن فالأفلام التي تفيد الإنسان وتحسن توجيهه وجهة سليمة هي فقط الأفلام التي تستحق جائزة الأكاديمية .

(٣) الأفلام التي تملأ الإنسان بالفخر بأنه إنسان .. أقول هذا لأنني لا زلت أذكر كيف خرجت من فيلم جريفيث «التعصب» .... كنت قد تعلمت المصائب التي يستطيع التعصب أن يجرها على الحياة .. وكنت منتفخ الأوداج طويل القامة قوياً لأنني أنتمي إلى الجنس البشري الذي يستطيع أن يعمل في سبيل الخير .. والذي حارب على مدى التاريخ في سبيل الشرف والحفاظ على كرامة الإنسان والوطن والخير للجميع .. بينما أذكر أنني خرجت من فيلم آخر مثير خجلاً من انتمائي إلى هذا الشر الذي لا مبرر له .. أسير أحاول أن أختبئ من نفسي .

(٤) عظيم .. عظيم ... من هذا الحديث الأخير نستطيع أن نتصور صورة لشكل الجائزة التي يجب أن نفكر فيها لنعدها لتكون رمزاً يهدى للأفلام والممثلين الفائزين .

إنني أتصور التمثال في شكل إنسان كامل كالإنسان الذي أحس به الزميل عندما خرج من فيلم «التعصب» ... إنسان كفارس القرون الوسطى الذي كان يدافع دائماً عن الضعفاء ضد الظلم والعدوان .. يفخر بإنسانيته .. إنسان عظيم جاء نتيجة للعمل السينمائي الذي أبرز فيه نواحيه الطيبة .

* * *

تعبير «بناء الإنسان» لم يكن أحد عندهم يستعمله .. لعلهم لم يكونوا في حاجة إلى استعماله ... أو أنهم قد استعملوه قبل ذلك بمائة سنة ... وانتهوا من حاجتهم إليه ...

المهم أن الأكاديمية عهدت إلى المدير الفني لهوليوود أو لعله مخرج الفنون بأن يصمم تمثالاً يتفق مع ما فكر فيه أعضاء الأكاديمية .

وصمم سيدريك جيبونز التمثال ، ثم عهد إلى مثّال شهير في لوس أنجلوس هو جورج ستانلي فنحته ... على هذه الصورة .

وابتدأ توزيع جائزة الأكاديمية عام ١٩٢٨ حيث فاز فيلم «الأجنحة» بأحسن فيلم ... ١٩٢٩ فيلم «لحن برودواي» .. ١٩٣٠ فيلم «على شيء هادئ على الجبهة الغربية» .

كانت تلك الجائزة وذلك التمثال يسمى حتى عام ١٩٣٠ «جائزة أكاديمية فن وعلوم الصور المتحركة» .

أما في سنة ١٩٣١ فقد حدث شيء عارض ... كانت التماثيل قد أعدت للتوزيع في مقر الأكاديمية عندما حملقت فيه سكرتيرة حلوة جديدة في مكتب أحد أعضاء الأكاديمية البارزين وأطلقت ضحكة مرحة حلوة رقراقة تغزو القلب في ثوان قليلة وقالت :

«هذا التمثال يشبه تماماً عمي أوسكار» .

الذي حدث بعد هذا يؤكد أن هذه الفتاة الحلوة الموظفة الجديدة في السكرتارية كانت تحتل مركزاً مرموقاً من العضو البارز في الأكاديمية ... ولعلها كانت في تلك اللحظة تجلس على حجره .. فإنها ما كادت تنطق بهذه الكلمات المغلفة بهذه الضحكة حتى صاح هو في فرح شديد :

- من الآن هذه الجائزة وهذا التمثال اسمهما الأوسكار .. فأوسكار اسم أميركي عظيم .

ومع مرور السنوات اختفت هذه الحقيقة التاريخية وأصبحت كلمة «أوسكار» تعني جائزة سينما كبيرة وصار كل من يقوم بدور جيد في أي عمل سينمائي أو تليفزيوني يقال له في صيغة مبالغة في المدح :

- إنك تستحق أوسكار على هذا الدور .

ولعل هذا هو السبب في أن أحد المسؤولين الكبار في التليفزيون أعلن أنه سوف يكلف فناناً مصرياً بتصميم ونحت تمثال «أوسكار مصري» .

ونشرت الصحف هذا الخبر ... ولم يحكِ له أحد هذه الفكاهة التاريخية .. فوقع في هذه النكتة العصرية .

في سنة ١٩٢٨ - في العالم - وما قبل ذلك كانوا يفكرون في أثر الصور المتحركة على الإنسان .

ونحن هنا في عام ١٩٨١ نتحدث في هذا الكتاب عن أثر الصور المتحركة ... في الإنسان ... في حاجياته الأساسية ... حتى حاجته في أن يشرب عندما يعطش .

الاقناع الخفي :

كان الإنسان - زمان - قبل الصور المتحركة ، عندما يحس بالعطش فإنه كان يسعى إلى بئر في الطريق ... أو زير مليء بالماء .. أو إلى القلة .. ويروي عطشه بالماء ... ويعيد توازن الأملاح في جسمه

الذي كان قد اختل فحرك إحساس العطش .

ولكن عطش الإنسان اليوم يتم لهذا السبب ولأسباب أخرى عديدة ... معركة خفية تدور في عقله فيتحرك أمام عينيه وفي أذنه الداخلية المشروب الأصفر مع تلك النغمة القصيرة المحفورة في ذاكرته التي تؤكد أن هذه الزجاجة صنعت خصيصاً لكي «تروي العطشان» وقبل أن تتمكن من عقله هذه النغمة إذا بنغمة أخرى وصوراً تبين أن نغمات الشباب لا تكتمل إلا بهذا المشروب الذي يحمل الرقم المحظوظ .. فجأة يجد عينه تتجه إلى النافذة حيث ينظر إلى الجدار الكامل للعمارة المواجهة الذي تحتله صورة زجاجة كبيرة طولها ١٠ أدوار تؤكد أن هذا المشروب هو الأصل .. وفجأة تقوم لتطبع الصور التي تتحرك في عقلك الباطن لتروي عطشاً قد لا يكون حقيقياً خلقه الاختلال في ميزان محلول الملح في الجسم .

يطلقون على هذا «الاقناع الخفي» ... وقد استخدمت إحدى حلقات «كولومبو» هذا الاقناع الخفي ليكون الأداة المساعدة في ارتكاب جريمة قتل ... بارعة الذكاء .

* * *

هو رجل من رجال السينما الذين يعرفون جيداً أثر الصورة السينمائية في العقل البشري وهو يريد أن يتخلص من واحد من شركائه ... بالقتل .

أحسن رجل السينما التدبير ... دعا مجموعة من أصدقائه لمشاهدة فيلم ما .. لرحلة من الرحلات أو زيارة لمكان ما ...

وكما يحدث في حلقات كولومبو المبتكرة التي لم يسبقه إليها في فن

القصة البوليسية إلا روايات الكاتب الفرنسي الشهير جورج سيمنون حيث كان أول من روى لقارئه كيف تم الجريمة بكل تفاصيلها ومن الذي فعلها ... ثم يتابع التحقيق وكيف يوصل التحقيق إلى الفاعل الذي يعرفه القارئ مقدماً .

كما يحدث في هذه الحلقات عرض على المشاهدين كيف رتب رجل السينما الخبير جريمته .. وكيف استعان بالأسلوب العلمي في الاقناع الخفي فأعد مجموعة من اللقطات القصيرة .. زرعها في وسط الفيلم الذي أعده ... بحيث تمر هذه اللقطات من أمام العين البشرية في جزء من الثانية لا تستطيع العين البشرية أن تسجله ، ولكن العين الداخلية في عقل الإنسان تتأثر .

وكانت اللقطات القصيرة معدة بحيث تحرك في المتفرجين حاسة العطش عندهم .. بشكل مدروس وعلمي ..

واجتمع الأصدقاء في قاعة العرض السينمائي ووقف رجل السينما (المجرم الذكي) في غرفة آلة العرض السينمائي .. أعلى قاعة العرض .. ليدير آلة العرض ويعلق على الفيلم خلال نظام الإذاعة الصوتية بين غرفة آلة العرض وقاعة العرض .

وابتدأ العرض

كان يعلم جيداً أن المتفرجين كلهم سوف يتأثرون باللقطات المزروعة وسوف تتحرك لدى كل واحد منهم رغبة في الشراب ليروي العطش الذي تزرعه اللقطات . ولكنهم سوف يؤجلون الشرب بعد أن يفرغ العرض السينمائي ... إلا شخصاً واحداً .. وهو الشخص الذي يرغب في قتله .

كان يعلم أن هذا الشخص لا يطيق العطش وأنه عندما تتحرك رغبته في الشراب فانه لن يستطيع انتظار نهاية العرض ، وأنه سيخرج في الحال إلى قاعة خلفية ليشرب ... وهناك سيكون في انتظاره .... ليقتله .

والذي حسبه المجرم وقع فعلاً ... تحرك إحساس العطش بفعل اللقطات المزروعة .. ولم يطق الشخص المقصود الانتظار ... فخرج إلى القاعة الخلفية .. ليروي ظمأه .

وهناك .. في تلك القاعة كان السينمائي الذكي – العالم – في انتظاره .

كان قد جهّز شريطاً مسجلاً مسبقاً بصوته يواصل التعليق على الفيلم .. أدار الشريط ليواصل نقل التعليق لقاعة العرض ... ونزل إلى القاعة الخلفية وكان في انتظار الشخص المقصود ... فما أن خرج يروي ظمأه حتى قتله ... أطلق عليه النار .....

وعاد إلى كابينة العرض يواصل عرض الفيلم ويوقف الشريط المسجل مسبقاً ليواصل التعليق بصوته مباشرة ... وبراءة الأطفال في عينيه .

ولكن كولومبو يكتشف الجريمة التي استخدمت الاقناع الخفي أو «غسيل المخ» . ويوقع المجرم الذكي .

والصورة (بصناعة السينما والتليفزيون) تستخدم كل يوم في الاقناع الخفي .. في غسيل المخ ... في تغيير المعتقدات والسلوك ... في بناء الإنسان إذا أرادت صالح الإنسان .

ولكنها قد تعمل لهدم الإنسان ... ويحدث هذا في واحدة من حالتين :

الحالة الأولى : إذا كان يريد هدم الإنسان وتمزيقه من الداخل .

الحالة الثانية : إذا كان لا يعلم أثر الصورة المتحركة الذي اكتشفه العالم وعرفه وعمل على أساسه منذ أكثر من نصف قرن ... أي إذا كان ينتمي إلى طائفة الفهلوية الذين يدعون العلم وهم يفكرون دائماً بعيداً عن العلم .. فتجدهم ينتجون المسلسلات المطوطة بالطرق الضارة التي تهدم لدى الإنسان كل الصفات التي تجعله إنساناً كاملاً واعياً ذكياً سريع التصرف .... إنساناً عصرياً يستحق الحياة في هذا العصر العلمي.

والعلم يقول إنه يستطيع أن يستخدم الاقناع الخفي بأساليب مختلفة.

إذا كان الأمر بسيطاً يتعلق بالاستهلاك اليومي فهو يسلك الأسلوب المباشر الواضح الصريح .. فيعرض عليك لقطات سريعة لرجل عاري الصدر يمسح وجهه وصدره بالكولونيا التي تنفع بعد الحلاقة وبعد الحمام وبعد .... أي شيء . ويعرض عليك نماذج لفتيات جميلات شعورهن رائعة .. وكل هذا لأنهن كلهن يستعملن شامبو البيض والنخاع من ألمانيا الغربية ..

ومن الذي يقول لك هذه النصيحة ... انه الصوت الذي تعرفه جيداً يروي لك أخبار العالم ... أخبار وفاة المضرب عن الطعام الأيرلندي – من الأول إلى السابع – وأخبار إعدام مجموعة أخرى من معارضي حكم خوميني وغير ذلك من الأخبار الهامة الحقيقية .. فهو صوت لا يقول إلا الحقائق ..

* * *

هذا في الأمور البسيطة الخاصة بالاستهلاك اليومي ... ولكن هناك موضوعات هامة تستخدم نفس الأسلوب ولكن بطريقة أخرى ملتوية ،

خفية لا تحس بها .. لأن صاحبها وضعها وينفذها كالمجرم في حلقة «كولومبو» ... يتسلل في رفق من وراء ظهرك يحكي لك حدوتة مثيرة .. جذابة يشغلك بها .. وعندما تنشغل بها تماماً .. يلقي البذرة التي يريد أن يزرعها داخل عقلك ومشاعرك دون أن تحس بها .. ثم يعاود التسلل إلى داخلك ليروي تلك البذرة قطرة قطرة كما يروي الجنايني الفنان حوض الزهور الغالية .

الأوركيدز والكاميليا والتوليب .

فمثلاً :

إنه يشغلك بقصة صراع بطل السباحة في الوصول إلى حيث تقام المباراة الكبيرة التي يريد أن يكسب الجائزة الأولى فيها ليجري لوالدته الجراحة التي تحتاج إليها .. وكيف أنه قابل في طريقه قوات شريرة تريد أن تؤخره عن الوصول ليكسب البطل السابق المباراة .. وكيف استطاع بمعونة فتاة جميلة التقى بها وتحابا أن يصل في موعده ... ويدخل المباراة . ويضرب كل الأرقام القياسية للسباحين السابقين ... وتفرح لفرحه الكبير بفوزه بالبطولة .. بفلوس العملية .. بالفتاة الحلوة .. وهنا ـ دون أن تشعر ـ يتسلل إليك بأن يجعل البطل يشعل سيجارته ويستمتع مع حبيبته بالتدخين .

وفي مرة أخرى يثيرك في لحظات الخطر ... فهذه عصابة استطاعت أن تتخلص من الضابط الشاب الذي كان يطاردها فلفقت له تهمة أبعدته عن الطريق ... ويستمر الضابط الشاب في مطاردتهم ليوقع بهم متلبسين .. وتأتي اللحظات الحرجة ... ويهجم الضابط وحده .. وتنطلق الرصاصات .. ويصل البوليس ليقبض على العصابة

متلبسة ولكن بعد أن أصيب الضابط الشاب برصاصة في كتفه .. ويدخل مفتش البوليس ليشرف على العملية ويميل على الضابط الشاب المصاب ويهنئه .. ويشعل له سيجارة يضعها في فمه كما لو كان يقدم له وساماً .. ويشد الضابط الشاب النفس في السيجارة كأنما هي ــ السيجارة ــ منتهى مناه .

ويشغلك بحكايات كثيرة كثيرة .. مليئة بالحب والمغامرات .. والفكاهة .. والضحك .. والسعادة والشقاء .. ليتسلل إليك ليقنعك بأن في الحياة متعات كثيرة ولكن أحلاها .. متعة التدخين ... وتكلبش عادة التدخين في أغوار النفس البشرية .. في رفق .. وتمكن .... ويتحقق الضرر العظيم .

وليس الإقناع الخفي قادراً على زرع هذا الضرر فقط ... إنه قادر ــ كما سبق أن بينت على تغيير إيمانات قد تصل إلى مرتبة القداسة .. قادر على ترسيب أفكار معينة تطرد إيمانات أخرى يريد أن ينزعها من داخل الناس ليحل محلها إيمانات جديدة .. وهنا يكتسب الإقناع الخفي أنياباً قوية قادرة على غسيل المخ .

مثال واحد :

نموذج مثير .. عندما تنظر إليه جيداً وتفكر فيه ستكتشف أنك وقعت تحت تأثير أمثلة أخرى عديدة من لونه .. حاولت التسلل إليك .

قبل عام ١٩٧٠ ابتدأ التليفزيون المصري بعرض حلقات أميركية مليئة بالمغامرات المثيرة والصراع ... حوارها قليل جداً .. لأن الصورة

والحركة فيها كانت كافية لتحكي القصة ... وكانوا في كل حلقة يقدمون مغامرة كاملة قائمة بذاتها .. على غرار الحلقات التي تنتجها البلاد المتقدمة التي عرفت منذ أكثر من نصف قرن ـ كما سبق أن قلت ـ أثر الصورة المتحركة في نفس الإنسان .

كان عنوان الحلقات «دانيل بون» ... وكانت الفكرة الأساسية (٢٦٠ حلقة تذاع في خمس سنوات كل أسبوع) هي قصة المهاجرين الأوائل الذين جاءوا إلى أرض الدنيا الجديدة يحدوهم الأمل أن يقيموا على هذه الأرض المترامية الأطراف وطناً جديداً .... عظيماً ... قوياً .. وطن الوفرة والحرية .

وفي سبيل تحقيق هذا الهدف قاوموا الاحتلال البريطاني والبرتغالي وقاتلوا الهنود الحمر الذين يسلخون فروة الرأس ، وصارعوا الحياة في الصحارى المقفرة التي تقتل بفعل الحر والعطش ، وجحافل الثيران المتوحشة التي تمزق الزرع والضرع وتقتل الجماعات ، وتصدوا للمجرمين واللصوص ، وقابلوا مصاعب كثيرة .. قهروها .

كانت الحلقات مليئة بالمطاردات المثيرة ، والمغامرات الفذة والمشاهد الخلابة وكان «دانيل بون» هذا هو زعيم المهاجرين .. شاب وسيم طويل القامة ذو صوت عميق مؤثر قوي سريع الحركة ... إذا قاتل بعضلاته فهو دائماً يغلب ، وإذا أطلق بندقيته القديمة الطويلة التي يحشوها بعد كل طلقة ، فهو دائماً يصيب الهدف ، وإذا هاجم الجنود الإنجليز أو البرتغاليين فهو يعرف كيف يواجه خداعهم وغرورهم الاستعماري ، وإذا هددت جحافل الثيران الأميركية أمنه وأمن أسرته

والمهاجرين الذين يعتبرونه أباً وزعيماً لهم عرف كيف يحمي أسرته والمهاجرين .

«دانيل بون» هنا هو صورة من صور السوبرمان الذي تعرف السينما الأميركية والإنتاج التليفزيوني الأميركي أن يقدموه لمواطنيهم في مغامرات مثيرة ويقيموا له التماثيل يضعونها أمام مواطنيهم ـ خصوصاً الصغار منهم ـ ليحتذوها (اقرأ كلمة تالية بعنوان الإنسان .... والإنسان السوبر) ويظهروه في أحلى صورة ليضربوا المثل لمن يعمل في بناء وطنه ويقهر كل ما يعترض طريق خير هذا الوطن .

من خلال المغامرات المنفذة بدقة وواقعية وبراعة التصوير استطاعت هذه الحلقات أن تشد المواطن المصري بعد أن شدت انتباه كل مواطني العالم وبعد أن شدت انتباه المواطن الأميركي التي أُنتجت هذه الحلقات أصلاً من أجله ومن أجل عرض تاريخه عليه بطريقة تؤثر في أعماقه .

بعد إذاعة أكثر من ثلاثين حلقة ابتدأت أشك في أن هناك هدفاً ما ، صُنعت من أجله هذه الحلقات لتؤثر في المواطن الأميركي ـ خصوصاً المواطن الصغير ـ ترغب في أن تبذر بداخله بذرة ما ، ويتعهدها بالرعاية حتى تنمو وتترعرع في شكل إيمان مقنع ومسيطر .

وابتدأت أتفرج على الحلقات وقد فنجلت عيني أكثر .. وفتحت مخي أكثر حتى لا يفوتني شيء .

كانت أسرة دانيل بون تتكون من ثلاثة فقط .. هو .. وزوجته الجميلة ، التي كثيراً ما كانت ملابسها تتمزق فتكشف عن سيقان جميلة وتكوين بديع (والغرض من هذا هو إلهاءك بشيء يأخذ نظرك وانتباهك ليزرع بذرته) وطفلهما .

الطفل في السادسة من عمره ـ جميل .. جميل ... شقي ، ظريف .. سريع الحركة يلقي بنفسه في المشاكل دون تفكير .. وكثيراً ما أنقذت حركته السريعة أسرته والمهاجرين كلهم من القتل .

يقبض الجنود الإنجليز على دانيل بون وزوجته ومجموعة من المهاجرين ويوثقونهم في كهف ويوقدون فتيلاً يؤدي إلى كمية كبيرة من الديناميت كافية لدفن المهاجرين في أنقاض الكهف .. وفجأة يظهر الصبي الصغير ويطفئ الفتيل وينقذ الذين يضعون الأساس لبناء أميركا .

في مرة أخرى يأسر الهنود الحمر دانيل ويوثقونه بالحبال إلى شجرة ويرقصون حوله تمهيداً لإحراقه .. ويتسلل الصبي ـ يجري كالبلية ـ ويفك وثاق أبيه بأسنانه كالفأر ويعطيه البندقية التي كانت بعيدة عنه .

في كل مرة يحدث هذا توشك أنت ـ يا متفرج ـ أن تمد يدك إلى الشاشة لتخطف الولد الصغير وتحتضنه وتقبله وتشكره على ما قام به ثم تعيده إلى الشاشة حتى ينقذ المهاجرين مرة أخرى في حلقة تالية .

وفي كل حلقة يصل فيها الصبي للقيام بهذا العمل .. وينقذ أميركا نفسها من الإجهاض وهي جنين في رحم الزمن تقبل الأم ابنها .. أو يربت أبوه على كتفه .. دون كلام (فالكلام في الحلقات قليل جداً) ولكن أحياناً ـ يقول الأب أو تقول الأم أو يقول أحد المهاجرين :

ـ أنقذت حياتنا يا ولدي العزيز .

في مرة واحدة فقط ـ في إحدى الحلقات المتأخرة يقول رجل عجوز من المهاجرين للصبي بعد أن أيقظهم :

- حينما يكتبون تاريخ هذه الأمة التي نبنيها يجب أن يذكروا اسمك أنت أيها الصغير .

* * *

أنا أصل في حديثي هنا ... وأقصد أن أصل لأن الذي يضطلع بتغيير إيمانات النفس البشرية .. يريد أن ينزع إيماناً معيناً ويحل محلها إيماناً آخر يجب أن يسير ببطء . حسب خطة موضوعة مسبقاً ... طويلة الأجل لتحدث الأثر الذي تريده .

لا يبدأ عالم السينما الأميركي جملة ما ويتوقع أن تغير شيئاً عميق الجذور تستغرق شهراً أو شهرين أو عاماً أو عامين .. إنه يتوقع أن يحدث التغيير في عشر سنوات أو عشرين ... لذلك فهو يسير في بطء ـ وثقة ـ لتتسلل الفكرة التي يريد أن يزرعها عبر موضوعات مسلية تلهيك تماماً عن البذرة التي يريد أن يزرعها .

إنه يجري عملية جراحية .. معقدة .. كتغيير القلب أو العين .. ولكن بطريقة متسللة لدرجة أن الشخص الذي تجري عليه العملية لا يحس بها .

وأعود إلى موضوع الحلقات .

في حلقات قليلة ـ متباعدة ـ ينادي دانيل بون وزوجته ابنهما باسمه الدلع :

- أنقذتنا مرة أخرى يا ازرا .. شكراً لك .

وفي حلقات واحدة ـ واحدة فقط ... في وسط الحلقات التي

بلغت ٢٦٠ حلقة ينادون الصبي باسمه فيقولون له :

– شكراً لك يا ازرائيل .

* * *

ماذا فعل صانعو هذه الحلقات في أعماق المواطن الأميركي .

إنهم يعرفون أنه في داخله «معاد للسامية» «كاره لليهود» عارف تماماً بخطرهم على الحياة .

فأرادوا بهذه الحلقات أن يجروا له عملية جراحية .. يخدرونه بالإثارة والبراعة في التمثيل والإخراج والحركة .. وينزعوا هذه الكراهية .. وينفذوا مخططهم الدعائي النفسي العلمي المدروس ... فيزرعوا بدله إحساساً بالامتنان العميق لليهود الذين لولاهم ما كانت أميركا !! .

ويدرك صانعو هذه الحلقات أنهم لا يريدون الحصول على نتائج سريعة مع المواطن الأميركي الكبير .. يكفيهم أن يزرعوا هذا الإيمان في المواطن الأميركي الصغير .

لو أن صانعي هذه الحلقات سلكوا أسلوب الدعاية المباشرة وقالوا في كل حلقة ان المهاجر اليهودي هو الذي بنى أميركا .. وفضل اليهود على أميركا فضل عظيم .. وأنت يا أميركي يجب أن تنزع من قلبك كراهية السامية وتعترف أن شعب إسرائيل هو شعب الله المختار .

لو فعلوا هذا لرفضها المواطن الأميركي ولما شاهدها .. بل لرفض أن يدفع في انتاجها دولاراً واحداً .

ولكن أصحاب دولار الفن في أميركا يعرفون كيف يضعون الخطط طويلة المدى ... تعلموا طريقة الإقناع الخفي ... وتأثير الصور المتحركة في النفس البشرية منذ نصف قرن ويزيد من الزمان .

هَل صَحيح أن كُله عِندَ العرَب مُسَلسَلات ؟

* **دخل إضراب ٥٠ ألف ممثل وممثلة أسبوعه الرابع في هوليوود :**

يرجع الإضراب إلى رغبة الممثلين الذين يتقاضى ٩٠ ٪ منهم مرتباً أقل من عشرة آلاف دولار سنوياً الحصول على نسبة من أرباح بيع البرامج وخاصة في صناعة الفيديو التي تبشر بأرباح ضخمة .

ومنذ بدء حركة الإضراب هناك أكثر من ٢٠ فيلماً متوقفة بما في ذلك الأفلام التي تسجل خارج استوديوهات هوليوود . فقد توقف بعد أسبوعين الفيلم الأخير (الحافة) بطولة جاك نيكرسون الذي تكلف ٢٠٠ ألف دولار . وتوقف تصوير مشهد فيلم (ثري وشهود) بطولة كاندس بيرجن وجاكلين بيسيه انتاج شركة مترو جولدن ماير .

إلا أن محطات التليفزيون هي التي تتعرض أكثر للمعاناة من هذا الإضراب الذي بدأ في لحظة إعداد خمسين مسلسلاً للشتاء القادم مما سيحرم الأمريكان من مسلسلاتهم المفضلة وسيضطر المنتجون إلى إعادة المسلسلات إذا ما استمرت حركة الإضراب إلى ما بعد منتصف شهر أغسطس .

يوم ١٤ أغسطس الماضي قرأت الخبر المنشور هنا في جريدة الأهرام . وأثارني الخبر وحرك في ذهني تداعي معان غريبة .. دفعني إلى تحليله والبحث عن ارتباطاته .

ما كدت أقرأ الخبر حتى قفزت إلى ذهني معانٍ بعيدة جداً . «فلسطين .. الأسلحة الخدعة .. حقوق الإنسان» . قلت لنفسي : ما هذا .. ما الارتباط بين الممثلات وإضراب الممثلين وحقوقهم وبين هذه الأمور ... ورحت أرتب أفكاري حتى وصلت إلى ما أضعه أمامكم هنا تحت هذا العنوان :

يا نقاد مصر .. يا صحافة مصر .. انتبهوا

من أحد الفلسطينيين الكبار استمعت إلى القصة التالية التي وقعت في فلسطين عام ١٩٤٥ .

كان العرب واليهود في فلسطين أيامها يعيشون في وفـاق وثقـة وصداقة .. وكانت الهجرة اليهودية أيامها قد زادت إلى فلسطين تنفيذاً لخطة موضوعة أخفيت عن العالم .. أو على الأقل أخفيت عن ذلك الجزء من العالم الذي كان يجب أن يعرف .

تبدأ القصة في أحد الموانئ الفلسطينية حيث كان العمال العرب يُنزلون من إحدى السفن عفش عائلة يهودية قادمة .. عندما وقع صندوق خشبي من العفش على الأرض وتحطم وظهر ما بداخله ... مجموعة من آلات غريبة الشكل تبدو كأسلحة قصيرة .. أطول كثيراً من المسدسات .. وهي ليست بنادق لأن البنادق المعروفة أيامها كانت طويلة جداً .. وأضخم من هذه الآلات بكثير ..

وتوقف العمال العرب ينظرون في عدم فهم .

وربما يكون التاريخ نفسه بقامته الفارعة وذقنه البيضاء المتهدلة الأسطورية قد توقف ليحملق معهم في عجب وهو يسأل نفسه .. ما الذي سيحدث الآن ؟ وفي أي الاتجاهات سأسير ؟» .

وهنا تقدم المهاجر اليهودي صاحب العفش الذي ربما يكون قد جاء من أي مكان من العالم .. تقدم مبتسماً وقام بأبسط وأسهل خدعة في التاريخ ..قال هذه لعب أطفال .. تقليد مشوه للمدافع الرشاشة الكبيرة المعروفة .. وقال كلاماً كثيراً عن الحرب العالمية الثانية التي انتهت منذ شهور وقد تركت الأولاد لا يفكرون إلا في لعب الحرب .. وأن أولاده وأولاد العالم كله يجب أن تُعالج نفوسهم ليفكروا في السلام .

تقول الحكاية إن العمال العرب اقتنعوا بهذا وأعادوا إغلاق الصندوق وحملوه إلى السيارات ولعل واحداً من العمال العرب نظر في جواز سفر المهاجر اليهودي وقال :

– أولادك يا مستر مناحم بيجين يستحقون أن تشد آذانهم .

وكان المهاجر والعمال يتبادلون الضحك عندما حمل الصندوق إلى السيارات لنقله إلى هنا وهناك في أرض فلسطين .

أما التاريخ فأستطيع أن أتخيل أن عينيه اللتين تعرفان راقبتا الصندوق الخشبي كما راقب صناديق خشبية كثيرة على غراره نقلها العرب للمهاجرين اليهود دون أن يعرفوا محتوياتها إلى أماكن مختلفة .

ولم يمر غير وقت قليل من عمر التاريخ حتى راقب «لعب الأطفال» هذه وهي تصوب إلى صدور العرب وتحصدهم في المذابح التي كانت معدة حسب الخطة الموضوعة .

وكان التاريخ يعلم أن هذه الآلات الصغيرة التي تشبه الأسلحة آخر صيحة في اختراعات المدافع الرشاشة التي أنتجتها مصانع السلاح والدمار في العالم .

والتاريخ نفسه ينظر لما يجري في مصر وبلاد عربية لخدعة أخرى قد

تبدو أقل خطورة من خدعة الأسلحة ولكنني أجدها لا تقل خطورة .
إنه يراقب مجموعة من محترفي انتاج المسلسلات في مصر والبلاد العربية يصدرون صناديق «بلاستيك» مليئة بهذا الفن المتأخر عقلياً الممطوط المنتفخ الذي يصيب النفس البشرية بالأورام التي تتحول إلى مرض خبيث يصيب بالشلل والبطء والتراخي واللامبالاة «وهي الأمراض التي تؤخر الشعوب عن اللحاق بركب الحضارة» .

والجماهير التي تعرض عليها هذه المسلسلات لا تكاد تدرك أن هذه المسلسلات تفتك بقدراتهم على التقدم والرقي وتنسف قدراتهم على التجديد والإبداع والابتكار .

وتماماً كما خدع المهاجر اليهودي العرب الفلسطينيين يخدع منتج الشكل الفني المتأخر عقلياً .. الجمهور العربي فيستغل الإعلام بأن ينشر فيه كلاماً رائعاً يصف به مسلسلاته .

وتصوب المسلسلات إلى صدر المشاهدين تمزق وتئد وتفتك وتمرض وتشل وتحصد النفوس وتقيم مذابح للسلوك السوي والقيم البناءة .

والإعلام العربي ينظر ويرى ويسكت .. يكتب أحياناً أن المسلسلات التي تعرض طويلة وممطوطة وبطيئة ومملة .. ولكنه لا يبرز الخطر الذي يحمله هذا الفن المتأخر عقلياً .. وكيف يستطيع أن يخرب النفس البشرية . وواجب الإعلام أن يفعل هذا . كما كان واجبه في عام ١٩٤٥ أن يطلع جماهيره هناك على كل الحقائق ولو أن بعض جرائد هذا الإعلام في عام ١٩٤٥ نقلت صوراً لهذا المدفع الرشاش الجديد وتحدثت عنه وبينته أنه آخر اختراع من أسلحة القتل .. لعل هذا كان قد غير وجه تاريخ «فلسطين» .

وهذه المسلسلات التي تنال من سلوك الإنسان السوي لا تجد الإعلام الذي يفتح العيون على خطرها .. فيحصن المتفرج المصري ضد خدعة منتج المسلسلات ..

وأعود إلى الخبر الذي أثار عندي تداعي المعاني الذي ذكرته هنا .

هذا الخبر يُلقي في روع المتفرج المصري أن الأمريكيين ينتجون مسلسلات كالتي تنتجها شركات الإنتاج العربي .

وهذا غير صحيح .

الصحيح الذي يجب أن ينشر على الناس ليعرفوا الحقائق والذي ادعو الصحيفة المصرية الكبيرة التي نشرت هذا الخبر أن تصححه وتلقي عليه الضوء لتعرف الناس به .. هو أن ٩٠ ٪ من الإنتاج الدرامي التليفزيوني الذي تنتجه أمريكا «وانجلترا وفرنسا وألمانيا وغيرها» «لتعرضه في محطات تليفزيوناتها وتوزعه ليعرض في العالم لا يجب أن نطلق عليه اسم «مسلسلات» لأن هذا ليس اسمه .

اسمه الحقيقي هو Series أي حلقات منفصلة .. كل حلقة منه تقدم عملاً فنياً متكاملاً له بداية وله نهاية كاملة يستغرق ٤٥ دقيقة أو أكثر أو أقل .. وأن ١٠ ٪ فقط «وربما أقل» من هذه الأعمال التليفزيونية الدرامية فهي التي تسمى مسلسلات .

وهي مسلسلات متصلة فعلاً .. تروي قصة واحدة طويلة الأحداث .. تقدم الأعمال الفنية الكبيرة التي نجحت نجاحاً ضخماً في كتب أدبية والتي لا يمكن إلا أن تُقدم في شكلها الكامل بكل التفاصيل المثيرة التي تضمها : على غرار «رجل غني رجل فقير» و «الجذور» .

وأدعو الإعلام المصري أن يوجه الإنتاج العربي التليفزيوني لإنتاج حلقات منفصلة ويكفيه ما أنتج من مسلسلات طويلة ممطوطة Serials .

ذلك لأن المسلسلات الطويلة الممطوطة المصابة بالورم تستطيع أن تفعل بالنفس البشرية ما فعلته خدعة الأسلحة الصغيرة في مذابح فلسطين .

أما أن تعامل الصحافة المصرية هذا الموضوع على أنه « كله عند العرب مسلسلات » ... فهذا أمر خطير .. يستطيع ـ كما سبق أن قلت ولن أمل من التكرار ـ أن يمزق القدرة على الإبداع في داخل الإنسان .. ويزرع البطء واللامبالاة .

الإنسان .. والإنسان السّوبَر

أمضيت في سريري دون حراك شهراً كاملاً منفذاً تعليمات الطبيب حتى أبرأ من انزلاق غضروفي .. بعد الشر عنك .

في اليوم الذي سمح لي فيه الطبيب أن أترك السرير وأتمشى حوله مررت بتجربة مضحكة .. ومريرة .

لم تحملني ساقاي .. تخاذلتا .. ولم أعرف كيف أنقلهما واحدة واحدة .. ولما كنت قد تعلمت أن أقابل مرارات الحياة بالضحك عليها .. فقد رحت أتذكر الأغنية الرقيقة التي تغنيها المطربة أحلام «تاتا تاتا خطي العتبة» .. فقد كنت أتعلم المشي من جديد .. أنظر إلى مواقع أقدامي وأنقل قدماً .. ثم أرفع ذراعي لأحقق الاتزان ثم أنقل القدم الأخرى .. تماماً كما يفعل الطفل الذي يتعلم المشي .

ويتعلم الإنسان في حياته أشياء كثيرة بنفس الطريقة : الكتابة ، والقراءة ، والجمع والطرح ، وجدول الضرب .. (وبالمناسبة أنا ما زلت أجد نفس الصعوبة مع جدول الضرب) .. وتعلم الآلة الكاتبة .. وقيادة السيارات .

أعرف صديقاً اشترى سيارة جديدة .. وتعلم قيادة السيارات في أحد المدارس المتخصصة . وفي أول يوم قاد سيارته بنفسه اصطدم

برجل .. وكاد يقتله .. مع أن الرجل كان يسير بجوار الرصيف .
– لا بد أن الدنيا كانت ظلاماً فلم تره .
– كنا في عز النهار .. ولكنني لم أره فعلاً .
– كيف ؟
– لأنني كنت أنظر إلى قدميّ أنقلهما على بدال الفرملة والفتيس والبنزين .. ويدي تحرك الدبرياج .

نبهت صديقي إلى خطئه فشاركني الضحك وهو يقول :

– على العموم أنت علمتنا أن نضحك عندما نرى ناساً يضعون البنزين مكان الفرملة ويحركون الفتيس إلى الخلف ويتصورون أنهم يسيرون إلى الأمام .. حتى لا نموت من الكمد .

ومن هنا فكل حوادث السيارات المؤسفة سببها سيارة يقودها من لم يتمرن على القيادة بدرجة كافية أي أن تصبح القيادة شيئاً يتم دون تفكير .

ومن هنا أيضاً فكل الحوادث الفنية المؤسفة في الإذاعة والتليفزيون والمسرح والسينما تعود إلى مخرج أو منتج أو مدير لم يدرس قواعد الفن دراسة وافية حتى تصبح هذه القواعد جزءاً من عقولهم ينفذونها دون تفكير ..

وقد امتلأت الشاشة الصغيرة والراديو في الفترات السابقة بعدد لا بأس به من الحوادث الفنية المؤسفة «يعترفن سراً» ، «القرين» ، «الأبله» ، «هارب من الذكريات» حيث قدم جهاز الإعلام مجموعة من الشخصيات المريضة .. النماذج المعقدة .. والناس البلهاء .. والمخلوقات البشرية الكريهة .. نماذج أبدع الفنانون في التركيز عليها

وإلقاء الضوء الباهر على كل سكناتها وتشريح نفوسها من الداخل .. والتضخيم فيها .. ومطها .. ونشر أمراضها على عدة حلقات طويلة ، والنفخ في مظاهر هذه الأمراض .. حتى أصبحت كالتماثيل الضخمة التي توضع في وسط الميادين .

والتماثيل الكبيرة تُصنع عالية ضخمة من أجل أن تتعلق بها الأنظار .. لتتسلل المعاني التي تمثلها في نفوس الناس أجمعين .. صغاراً وشباباً .

هذه هي قواعد وضع التماثيل في الميادين .

والغريب أن قواعد صنع التمثيليات أيضاً شبيهة بقواعد وضع التماثيل :

لتؤثر في الناس .. وتكون نماذج تحتذى .. وتفجر طاقات الخير فيمن تتعلق بها أبصارهم .

هذه المقدمة الطويلة كلها .. وأظنك قد اعتدت الآن على مقدماتي الطويلة .. لأنني أريد أن أرد بوضوح على سؤال وجه إليّ :

- أنت تتحدث كثيراً عن بناء الإنسان .. من أين تعلمت هذا التعبير ؟ .. هل من نظام الإعلام الأمريكي أم الروسي أم الفرنسي أم غيره . وكيف يتصرفون هم هناك بحيث يبنون الإنسان دائماً .. كما تريد من الفن المصري أن يصنع ؟ .

لقد نقلت هذا التعبير من التجربة المصرية .. من تجارب خاصة أثبتت بما لا يدع مجالاً للشك أن الإذاعة هي أم تخرج أولادها مثلها مصداقاً للمثل الصادق الذي يذكر القدرة التي مهما قلبتها فإن البنت تخرج دائماً مثل أمها .. فالأم تقدم دائماً لأولادها المثل الذي يحتذونه ... التمثال الضخم الطويل الذي يرفعون عيونهم إليه ..

ولذلك فيجب أن يخرج مثل جديد يحفظه الناس يقول « الناس على دين إذاعاتهم » .

أما أنهم هناك ـ في أمريكا أو روسيا أو فرنسا ـ ينفذون التعريف المذكور هنا عن الإعلام وبناء الإنسان فالشيء المؤكد أنهم درسوا قوانينه وهضموها تماماً بحيث أصبحت جزءاً لا يتجزأ من طريقة تفكيرهم وعلى هذا أصبحوا ينفذونه دون إعمال فكر .. كما يقود السيارة بحذق ومهارة سائق تمرن طويلاً وجيداً حتى أصبحت قيادة السيارة جزءاً من تكوينه .

ماذا يفعلون ؟

إنهم يعرفون أن الإذاعات أم .. ويعرفون أن قنوات التليفزيون هي التي تشكل الناس .

ويعرفون أن التمثال أو المثال الذي تقدمه هذه أو تلك هو نموذج سوف تحتذيه الناس .

ولذلك فهم يقدمون دائماً الإنسان السوبر الذي يريدون منه أن يكون النموذج الذي يقلده أطفالهم .. سوبرمان .. الشخصية الخيالية المشهورة التي يطلق عليها الدارسون لتربية الطفل « الأب الثاني للطفل الأمريكي .. الرجل القوي الذي لا يستطيع شيء أن يهزمه الذي يقف دائماً بجانب الخير ضد كل ألوان الشر .. ويعمل دائماً مع أمريكا والحق الأمريكي ضد أي قوة ترغب في المساس بها » ..

وهم يدركون هناك أن صورة الإنسان السوبر يجب أن تملأ سمع المواطن الأمريكي وبصره لذلك فهم يقدمونه في عديد من الأشكال .

في شكل المهاجرين الأوائل لأمريكا الذين قهروا الهنود الحمر

والاستعمار الإنجليزي والبرتغالي وجحافل الثيران المتوحشة ..

في شكل الكاوبوي الذي يقف دائماً بجانب الحق والبناء وضد الظلم والهدم .

في شكل رجل البوليس الذي يسعى دائماً وراء المجرم حتى يقتص منه ويسلمه للعدالة ليؤكد أن الجريمة لا تفيد .

في شكل الرجل الأمريكي الخارق والمرأة الخارقة التي استطاع التفوق التكنولوجي الأمريكي أن يزوده بالعلم ليجعل منه انساناً قوياً .. أيضاً يعمل من أجل عزة أمريكا وانتصار العدل .

في شكل الرجل الخفي .. وشكل المحامي الشاب .. والمحامي العجوز .. والمحامي العاجز .. والبوليس السري الأعمى ..

في مئات الأشكال التي تجعل ما يُقدم من خلال شاشاته الصغيرة يقدم المثل الأعلى الذي يُحتذى .

في ذلك الشكل الجديد الذي شاهدت إحدى حلقاته في برنامج « اخترنا لك » أخيراً .. ذلك الرجل الذي سيكون بطلاً لحلقات منفصلة طويلة – كما أتصور – رجل عالم شهد ضد عصابة فأرادت العصابة أن تقتص منه فأرسلت إليه مجرماً من أبنائها ضربه ضرباً مبرحاً حتى حطّم سلسلته الفقرية .. وجعل منه مشلولاً لا يستطيع السير على قدميه .. وصمم الرجل العالم أن يُوَصِّل هذه العصابة للعدالة فاخترع لنفسه رداء الكترونياً .. إذا ما ارتداه استطاع أن يحركه بالطاقة الذرية التي زوده بها .. ويرتدي الرداء وينطلق في أثر العصابة .

سوبرمان جديد تغلب على مشاكله الرهيبة ليعمل ضد الإجرام .. ومع صالح الإنسان الطيّب الوديع .

وتتخذ كثير من الشخصيات شكل السوبرمان العادي اليومي الذي يجب أن يكونه كل إنسان .. كما كان في فيلم .... الذي أطلق فيه «شخصية مريضة» تمريه الجائعين على أربع شخصيات. وتصرف قائد هؤلاء الأربعة تصرفات ذكية الواحدة بعد الأخرى حتى وصل إلى إفساد كل خطط المجنون للقضاء عليه .. وأثبت أن السوبرمان هو الذي يستحق البقاء واستمرار الحياة .

هل أسمع واحداً من المخرجين المصريين يعترض قائلاً :

– الفن هو أن تقدم المشاكل اليومية وتعرض الشخصيات المريضة وترشدها إلى الطريقة الصحيحة .. أما هذا الفن المثالي فهو يلغي هذه الشخصيات ولا يقدم إلا السوبرمان .

لهذا المعترض أقول :

– إنهم يقدمون الشخصيات المريضة والمشاكل اليومية .. ومعها حلولها .. ولكن من خلال السوبرمان فالمريض النفسي حالة نفسية يقوم المحلل النفسي السوبرمان بالوصول بها إلى بر الأمان .. في حلقة واحدة تستغرق ساعة أو أقل أو أكثر قليلاً .. ولكنها لا تنتفخ أبداً إلى ١٥ ساعة .

أما اننا هنا في مصر فيركز على الشخصيات المريضة والنفوس الكريهة والنماذج المعقدة ويمطها وينفخ فيها ويلقي عليها الضوء الباهر ويكرر عرضها عليك .. حتى يجعل منها نموذجاً يحتذى .

هذا هو الفرق بيننا وبينهم ...

والناس على دين إذاعاتهم ....

الجُزءُ الثَاني

أنتَ المَسْؤول !!

في الجزء الأول من هذا الكتاب ... وجهت حديثي ـ بالدرجة الأولى ـ إلى صاحب الحقيبة المليئة بدولار الفن .

وقد استخدمت في حديثي إليه كل الطرق .

الجادة والمسلية بل والفكاهية .... لكي أصل إليه وأكشف أمام عينيه عن الأثر الضار الذي يُحدثه ذلك الشكل الفني المتأخر عقلياً .

المهلهلات المتورمة التي تصيب الناس بأمراض البطء والتراخي ... فالناس على دين إذاعاتهم .

والآن ـ في هذا الجزء الثاني من الكتاب .... أوجه الحديث لك بعد أن أثرت في عقلك هذا السؤال .

ـ كيف يستمر مواطني صاحب دولار الفن في إنتاج هذه الأعمال المكررة البطيئة وهم يعلمون بآثارها السيئة على الإنسان العربي ؟

أمام هذا التساؤل أحب أن أوضح أنهم ـ لا يعرفون لأنهم قد اعتادوا على هذا الإنتاج المتورم لدرجة أنهم صاروا يعتقدون أن ما يقدمونه للمواطن العربي هو أبدع ما يمكن أن يقتل به وقته ... دون أن يدركوا أن قتل الوقت بهذه الطريقة يقتل أشياء أخرى أكثر أهمية من الوقت .

وأحب أن تعرف أيضاً أن هناك طائفة من المنتفعين بدولار الفن

يحيطون بأصحاب الحقائب يحفظون له بطريقه التفكير التي تجعلهم ينتفعون أكثر بدولار الفن .

* * *

هذا هو الموقف الذي يجعلني أتجه إليك أنت – عزيزي القارئ العادي المثقف – لأدعوك أن تتحمل مسؤوليتك وترفض هذا الانتاج المتورم ... وتقيم حولك السياج الواقي الذي يمنع عنك – وعن مواطنيك – الضرر ..

والسياج هو «العلم والمعرفة» بحقائق العمل الفني ، وسأقدم لك – في هذا الجزء الميزان الفني الذي يجب أن تحتفظ به لتزن به الأعمال الفنية التي تقدم لك ...

تأخذ منها الصالح .... وتطرد الطالح .

المَعِدَة الذكيّة والعَقْل الذكيّ

المعدة الذكية وصف طبي علمي يطلقه بعض العلماء على المعدة التي تطرد الطعام الضار بمجرد إحساسها السريع بأنه ضار ، أما المعدة الغبية فهي تلك المعدة التي تسمح للطعام أو الشراب الضار أنه يبقى فيها وتمتصه فيسيئ إليها ويسيئ إلى الجسم البشري كله .. وينتج عنه التسمم الذي يحتاج إلى علاج طويل .

إذن فالمعدة الذكية هي حارس على حدود الجسم البشري يحميه من أعداء الجسم البشري .

وكذلك العقل الذكي .. هو حارس يقف على حدود النفس البشرية يسمح بامتصاص ما يصلح ويطرد الضار .

وعن العقل الذكي يدور حديثي هذا .

يبدو أن كلمة «الزواج» في عنوان الأفلام لم تعد تجتذب الجماهير ولكن الفيلم الذي ذهبت إليه مشاركاً عدداً هائلاً من الناس كان يحمل في عنوانه كلمة «الطلاق» .. «الطلاق على الطريقة الإيطالية» .

كم عدد الذين كانوا يعرفون أن القانون الإيطالي يحرم الطلاق تماماً .. لا أدري . ولكنني كنت أعرف .. ولذلك كنت على استعداد لأشاهد حادثة غريبة يتحايل فيها بعضهم على القانون الإيطالي .

وابتدأت القصة تتكشف من اللحظة الأولى ..

المركيز الإيطالي يعيش في قصره الكبير الذي ورثه عن جدوده النبلاء ... في وسط ضيعة صغيرة هي كل الذي بقي له .. ولكنها تدر عليه دخلاً يسمح له بأن يعيش في بحبوحة من العيش .. يملك سيارة فاخرة ـ ويختاً لا بأس به ... وبعض الخيول القليلة في الأسطبل القديم .

وهو في الخامسة والأربعين من عمره يحس أنه ما زال شاباً .. وله زوجة جميلة بالمقاييس الإيطالية للجمال .. ممتلئة جداً في كثير من الأماكن المناسبة .. تشبه تمثال أفروديت أو فينوس إلٰهة الجمال القديمة .. عاشا سوياً سنوات طويلة .. لم يرزقا بأولاد ...

وكان المركيز يتعلق بفتاة صغيرة ... هي نموذج للجمال العصري الحديث .. الرشاقة والقامة الممشوقة .. والحلاوة .. والرقة ..

والفتاة تقيم مع أسرتها الفقيرة في منزل صغير مقام على أرض الضيعة التي اضطر جدود المركيز أن يبيعوها للفلاحين ليقيموا فيها بيوتاً صغيرة .

وكان المركيز يقيم حفلات في منزله ليتعمد أن يدعو جيرانه الفلاحين وأسرهم مدعياً الديمقراطية ، فقط ليرى حبيبته عن قرب .. ويحاول اغراءها وتفشل كل محاولات اغرائها .

ويستبد الهوى بالمركيز ويسيطر على كل تفكيره .. وبعد أن يتجه إلى كل رجال القانون .. وإلى كل رجال الدين علَّ أحداً يدله على طريق للتحايل على القانون الإيطالي بحيث يطلق زوجته ويتزوج التي استولت عليه ولم يستطع الاستيلاء عليها .. ولا فائدة .

وفجأة يبدأ المركيز يغرق نفسه في حب زوجته ويغرقها بحنانه

ورعايته .. ويستعيد وإياها شهر العسل الأول بينهما .. ويعلن لها أنه قرر أن يتفق مع واحد من أشهر فناني ايطاليا الرسامين أن يصنع لها صورة كبيرة زيتية يزين بها صالة قصره الكبيرة .

ويختار الفنان الرسام بدقة – تنفيذاً لخطة وضعها – يختار شاباً وسيماً معروف عنه حبه للنساء ، ومشهور عنه أنه لم يرسم صورة لامرأة جميلة إلا وكانت له علاقة بها .

ويضع المركيز اللهب بجوار الوقود ويدفع الاثنين ليقربهما من بعضهما .. ويعطيهما مفتاح الكوخ المنعزل ليكونا بعيدين عن العيون أثناء جلسات الرسم ويحضر بعض الجلسات ويلقي بكلام موحي ومشجع .. ثم يصطنع تغيباً مفاجئاً يخفيه عن العيون .. ويعود فجأة ليكتشفهما غارقين في وحل الخيانة الذي صنعه بنفسه .. ويصيح «يا للهول» .. ويثور ويطلق مسدسه .. ويقتل الخائنة .. ويصرخ «قتلتها وغسلت العار بدمها» ويسلم نفسه للشرطة وهو يعترف بجريمة الشرف التي ارتكبها .

والقانون الإيطالي يقضي بأن الرجل الذي يقتل ذوداً عن الشرف الرفيع يحصل على حكم مخفف مع إيقاف التنفيذ .

ويقضي فترة المحاكمة في مستشفى السجن يعالجونه من صدمة عصبية ادعاها . ويصدر الحكم مع إيقاف التنفيذ .. ويتم الإفراج عنه .

ولأن فيلم «الطلاق على الطريقة الإيطالية» فيلم جيد الصنعة فقد ابتدأت المناظر تتتابع بسرعة .. يذوب المنظر فيها في المنظر التالي وفرحة خروجه من السجن .. واستقبال أصدقائه له .. واستقبال الفتاة الحلوة

التي صنع ما صنع من أجلها .. واختلطت صور فرحة خروجه من السجن بأجراس الفرح في الكنيسة .. حيث تم زواج المركيز من حبيبته الصغيرة وارتدت العروس ملابس الفرح البيضاء وألقت بباقة الورد الصغيرة .. وأسرعن صويحباتها يتنافسن على التقاطها .. وملأت مظاهر الفرح الشاشة الكبيرة في صالة السينما .

وهنا حدث في الصالة شيء عجيب .

بدأ المتفرجون يغادرون أماكنهم خارجين من دار السينما .. بينما بقيت وحدي مع عدد قليل من المتفرجين في مقاعدنا .

حجب الناس جزءاً من الشاشة فصحت في أدب «أقعد من فضلك» ولكن الناس تدافعوا ليخرجوا ووجدت نفسي أصيح .. يا جماعة .. الفيلم لم ينته بعد .. اجلسوا ..

وسخر بعض الخارجين مني .. وصاح واحد فيهم :

- لقد تزوجا يا سيد . خلاص الفيلم خلص .. هل تريد أن تبقى لتشاهد مناظر ليلة الدخلة .

وضحك الكثيرون على هذا .. ولكنني بقيت ولم أغضب من الساخرين .. وصحت :

- يا جماعة .. لا يمكن أن ينتهي الفيلم هكذا .

ولكن الناس خرجوا .. وبقيت مع عدد قليل جداً من الجمهور .. نشاهد المناظر الأخيرة الصامتة من فيلم «الطلاق على الطريقة الإيطالية» .

ذابت صور الزواج بين المركيز والفتاة التي استولت على لبه .. ثم ظهرت صور مياه بحيرة هادئة ناعمة .. رائعة الجمال . يمخر مياهها

الزرقاء يخت صغير . وتقترب الكاميرا من سطح اليخت حيث الفتاة الرائعة الجمال تستلقي على سرير في وسط سطح اليخت .. وتستعرض الكاميرا تضاريس الجسد الأنثوي الفاتن .. من شعرها الفاحم المسترسل إلى وجهها الملائكي حيث يميل المركيز يتأمل فمها الدقيق وعينيها الساحرتين .. في وله وحب .. وتكاد الكاميرا نفسها ترتعد وهي تسبح فوق تفاصيل الجسد وتمر على بطنها وفخذيها وساقيها ثم قدميها الدقيقتين .. وتركز الكاميرا على القدمين .. حيث نجدهما .. مشتبكتين مع قدمين أخريين .. كلا .. انهما ليستا قدمي المركيز !

وتتراجع الكاميرا لتكشف هذا الاشتباك الذي ينبئ باشتباك آخر أكثر عمقاً بينها وبين الشاب الذي يقود اليخت .. وينبئ أن الاشتباك ليس وليد الساعة . ولكنه قديم وعميق .. ومستمر .. والمركيز لاه تماماً لا يحس بما يدور خلف ظهره .

وهنا رضيت على نهاية الفيلم .. وقبلت أن يتسلل إلى عقلي .. ونفسي .. وقلبي .. .

أما الآخرون الذين خرجوا وقبلوا النهاية بالزواج ، فقد سمحوا للغذاء الضار أن يستقر في عقولهم .. دون أن يطردوه .. لينفث السموم في النفوس .. ويتسلل إلى العقل ويفسده .

محنة عقلية .. ليست فقط محنة الجماهير .. بل محنة الإذاعة والتليفزيون الذين ربوا الجماهير على الفهم القاصر ، وخداع العقول بنفث السموم الضارة .

محنة الذين ينتجون مهلهلات هزيلة ممطوطة منتفخة ولا يخجلون من وضع أسمائهم عليها «محنة عقول لأناس لا يقرأون» أعرف أن

كثيرين من مخرجي الإذاعة والتليفزيون لا يقرأون المسلسلات من اخراجهم إلا وهم في الاستديو «ومحنة عقول الذين يقرأون ولا يفهمون» أعرف أن منتجين يرفضون نصوصاً جيدة ويقبلون نصوصاً سيئة سخيفة .. والمهلهلات دليل صارخ على هذه الحقيقة .

محنة عقلية تفشت .

الميزان ...
مُسَلسَل مِن جُزءَين

الجزء الأول
سيناريو قصير من الخيال العلمي
الذي أرجو أن يتحقق في المستقبل القريب ..

مكان الأحداث : مكان ما – لا يهم أين بالضبط – من الوطن العربي .

المشهد الأول

غرفة مراقبة حديثة للاتصالات الكهربائية تشبه غرفة المراقبة الأرضية للفضاء ... الوقت مساء والإضاءة خفيفة ... جدران الغرفة مليئة بعلب صغيرة من البلاستيك عليها أرقام ، ومجموعة كبيرة من العدادات والمؤشرات للقياسات الكهربائية .

٣ موظفين شبان يجلسون إلى مكاتب صغيرة ، ورئيس الوردية يجلس إلى مكتب كبير يضع عليه جهاز راديو إلى جوار جهاز تليفون أحمر ... من الراديو تنبعث أغنية أم كلثوم «سيبني أحلم سيبني» .

تليفون أسود على مكتب واحد من الشبان يقرع جرسه .

رئيس الوردية : (يصيح في ضيق) يووووووه هـ هـ هـ .

عبد الله : (يرفع السماعة) آلو ... نعم .. هذه غرفة شكاوى قطع التيار .. التيار مقطوع عندكم ... في أي منطقة .. حسن .. سأعيد التيار حالاً .

رئيس الوردية : (وهو يهز رأسه على نغمات أم كلثوم) لو كنت في بيتي الآن وانقطع التيار لكنت دخلت سريري لأسمع أم كلثوم من الراديو الترانزستور دون تيار كهربائي «وسيبني أحلم سيبني وسيبني أحلم سيبني» .

سعيد : لعله يريد أن يشغل التكييف أو يشاهد التليفزيون .

وهبة : ربما .. لقد اقترب موعد المسلسل اليومي .. في أي منطقة هو .

عبدالله : منطقة ٥٧ .

وهبة : (ينظر إلى الجدار يبحث عن العلبة البلاستيك ٥٧) آه .. علبة ٥٧ اللمبة مطفأة والتيار مفصول .. سأعيد توصيله حالاً (يفتح العلبة ويحرك الكوبس) أوصلت التيار .. فليشغلوا أجهزة التكييف كما يحلو لهم .

رئيس الوردية : ويشاهدوا المسلسل التليفزيوني .

(هنا .. فجأة ... ترتفع قوة الإضاءة في غرفة المراقبة الكبيرة بعد أن كانت الإضاءة خافتة .. رئيس الوردية يضع يده على عينيه يحجب عنها الضوء القوي) .

رئيس الوردية : (في غضب) ما هذا يا وهبة ؟ ... تراني وأنا أسمع أم كلثوم «وسيبني أحلم سيبني» ترفع الإضاءة إلى هذه الدرجة المبهرة .

وهبة : أنا لم أرفع الإضاءة يا ريس .

رئيس الوردية : من اذن .. أنت يا عبد الله ؟

عبد الله : كلا يا ريس .

سعيد : ولا أنا يا ريس .

عبد الله : إذاً من ؟ ... لا يمكن أن ترتفع الإضاءة دون أن يرفعها أحد .

سعيد : (يرفع يده ويتكلم بسرعة) معذرة يا ريس .. تذكرت .. الذي حدث الآن يحدث كل ليلة منذ أسبوع ... في هذا الموعد بالضبط تعلو الإضاءة فجأة .. دون أن يرفعها أحد .

رئيس الوردية : كيف هذا ؟ .. لا بد أن هناك خللاً ما .. تعالوا نفحص العدادات والمؤشرات (الجميع يدورون يفحصون العدادات) ولو أن هذه الآلات جديدة وسليمة .

وهبة : قراءات الفولت مستقرة .

عبد الله : والقراءات هنا أيضاً طبيعية .

رئيس الوردية : لا يوجد غير تفسير واحد .. ولكنه غير معقول ... أن يكون الاستهلاك قد هبط فجأة فازدادت قوة التيار .

عبد الله : لا يعقل أن يكون كل الناس قد أطفأوا أنوار بيوتهم مرة واحدة .

وهبة : ربما يكون الجو قد تحسن فجأة .. فأوقف الناس كل أجهزة التكييف .

(ويقفون جميعاً أمام مؤشر استهلاك التيار كالمأخوذين عندما يدق جرس التليفون الأحمر على مكتب رئيس الوردية .. يقرع

لأن الذي يطلب تليفونه هو لا بد أن يكون شخصاً هاماً جداً ...
يسرع إلى التليفون) .

رئيس الوردية : أفندم .. نعم .. أنا يا سعادة الوكيل .. ارتفعت الإضاءة عندكم أيضاً ؟ يا سعادة الوكيل ... انني لا أكاد أصدق ما سوف أقوله لسعادتك الآن .. القياسات عندنا تقول إن الاستهلاك هبط فجأة إلى الربع .. السبب ؟ ... لعل الجو قد قد تحسن فجأة فأطفأ الناس أجهزة التكييف ... ماذا ؟ .. الجو حار كما هو . اذن فلا بد أن هناك سبباً آخر .. حاضر يا سعادة الوكيل .

(يضع رئيس الوردية التليفون ويظل واقفاً .. يتنبه إلى أن أم كلثوم لا تزال تردد «سيبني أحلم سيبني» .

رئيس الوردية : وسيبني أحلم ؟ !!! سعادة الوكيل يريد تقريراً عاجلاً عما حدث ... ما هذا يا ست أم كلثوم .. إننا يجب أن نصحو بسرعة .. ونعرف سر هذه المصيبة .

ـ قطع ـ

* * *

المشهد الثاني

قاعة اجتماع كبيرة في وزارة الطاقة .

(على رأس منضدة الاجتماعات الكبيرة يجلس وزير الطاقة مجتمعاً بعدد كبير من كبار رجال وزارته .. مصورو التليفزيون يجهزون لتصوير الاجتماع عندما يبدأ .. يدخل القاعة موظف متعجل

يهمس بشيء في أذن وزير الطاقة الذي يبدي ترحيباً كبيراً ويعلن :)

وزير الطاقة : يسرنا أيها السادة أن نستقبل سعادة الصديق الوزير أمير الصافي وزير عموم التليفزيونات والراديوهات أيضاً .

(وهنا يدخل رجل نحيف طويل القامة وسيم أنيق فيجلس إلى أول مقعد يقابله ولكن وزير الطاقة يشير إليه فيقوم ليأخذ مجلسه بجوار الوزير الذي يفتتح الاجتماع) .

وزير الطاقة : نبدأ اجتماع اليوم بموضوع عاجل لم يدرج في جدول الأعمال .. الموضوع بخصوص ظاهرة غريبة هي هبوط استهلاك التيار الكهربائي فجأة إلى الربع في أنشط فترات الحياة المنزلية المسائية ... ولن نعرف السبب إلا بالبحث العلمي الميداني .. ولذلك أعرض عليكم الموافقة على أن تكلف وزارتنا شركة «العين الخفية للعقول الالكترونية» لتجري الأبحاث الجماهيرية التي تستطيع أن تكشف عن سر هذه الظاهرة الغامضة .. أفندم ...

(كان سعادة الوزير أمير الصافي قد مال على أذن وزير الطاقة وهمس له بشيء هام جداً) .

وزير الطاقة : الصديق وزير عموم التليفزيونات والراديوهات يستأذن في أن يكشف لنا الآن غموض هذه الظاهرة ... تفضل ...

(كل كاميرات التليفزيون والميكروفونات تتجه إلى سعادة الوزير الوسيم) .

الوزير أمير الصافي : لم أحضر لأناقش هذا الموضوع .. ولكن ما دامت هذه الظاهرة تحيركم فيهمني أن أزيل هذه الحيرة الآن ...

وأعلن عن مسؤولية الأجهزة التي تعمل تحت إشرافي عن هذه الظاهرة .

منذ ستة شهور وضعت أجهزتي خطة لترشيد استهلاك الناس للطاقة الكهربية ، وكانت خطتنا علمية إعلامية مدروسة تستهدف التسلل إلى نفوس الناس لتغير عاداتهم الاستهلاكية ... وقد بدأت الناس تستجيب ، في كل مناطق العاصمة قررت الجماهير المستهدفة بالحملة أن تكتفي بنصف الإنارة وبنصف تكييف الهواء .. ويسعدني أن أجهزة التليفزيونات وأجهزة الراديوهات أيضاً أصبحت تقوم بواجبها في تغيير سلوك الناس إلى الأفضل .. فأنتم تعلمون أن الناس على دين تليفزيوناتهم ... وأيضاً على دين راديوهاتهم ... وشكراً .

(تصفيق حاد ... ويشير الوزير إلى مصوري التليفزيون أن يتوقفوا عن التصوير والتسجيل) .

الوزير أمير الصافي : أما السبب الذي جئت من أجله لزيارة الصديق سعادة وزير الطاقة فهو ... أنا أبني عمارة صغيرة من عشرة أدوار فقط وأطلب من سعادة الوزير الصديق استثناء عمارتي وإدخال التيار الكهربائي فوراً لتقوم العمارة الصغيرة بمشاركة متواضعة في حل مشكلة السكان .

وزير الطاقة : أوافق على الاستثناء اعترافاً بجميل سعادة وزير عموم التليفونات وأيضاً الراديوهات في ترشيد الاستهلاك بالخطة التي نفذتها أجهزته تحت قيادته الرشيدة .. وأعده بأن يدخل التيار الكهربائي إلى عمارته بمجرد إعدادها للسكن ... (يبدأ الوزير في

الضحك معلناً أنه سوف يقول نكتة) ... حتى إذا دخلها السكان وابتدأت تنهد على رؤوسهم وجدوا اضاءة تساعد في البحث تحت الأنقاض :

(ضحك وتصفيق من الجميع)

مزج

* * *

المشهد الثالث

قاعة التحرير بجريدة يومية كبيرة .
قاعة فاخرة كبيرة ... حركة مستمرة .. أجراس تليفونات .. محررون كثيرون .. خرائط على الجدران وساعات ذات توقيتات مختلفة .
مدير التحرير يجلس على مكتب يراجع أوراقاً ويصدر الأوامر ... تليفون يرن على مكتبه .. يرفع السماعة .

مدير التحرير : آلو .. هو أنا ... بيان بماذا ؟ ... مسؤوليتكم عن ماذا ؟ .. ولكننا نشرنا اليوم في الصفحة الأولى تصريحاً لسعادة وزير عموم التليفزيونات والراديوهات عن مسؤولية أجهزته عن ترشيد استهلاك الكهرباء .. وبالتالي انخفاض ... (يتوقف يتسمع لحظة .. ثم ينفجر ضاحكاً في تسلية) لحظة واحدة ... سأوصل التليفون بمكبر الصوت في القاعة .. وأرجوك كرر كل ما قلته الآن ... لأنني أنوي أن أسجل البيان وأحتفظ به .. موافق .. حسن .. شكراً .. لحظة واحدة .

(مدير التحرير يدوس على زرار خاص ثم يرفع صوته مخاطباً كل من في صالة التحرير) .

مدير التحرير : يا جماعة .. استمعوا كلكم .. لهذا الإعلان من جمعية جديدة تعلن مسؤوليتها عن انخفاض استهلاك الكهرباء .. تفضل يا سيد .. ألق بيانك .

صوت من مكبر الصوت : نشرتم اليوم في صدر جريدتكم – وكل جرائد الصباح والمساء ما أذاعه في التليفزيون أمس سعادة وزير عموم التليفزيونات والراديوهات أيضاً .. وأنتم تعرفون سعادته ، فلو حصل أحد أولادكم على ٩٩,٨ ٪ في الثانوية العامة لأعلن أنه هو المسؤول .

وقد حملنا هذا التصريح الطريف على أن نعجل بإصدار هذا البيان نعلن فيه مسؤوليتنا عن هذا الانخفاض المفاجئ ، والأسباب التي وراءه التي لا تستهدف كسباً خاصاً لشخص واحد ولا مصلحة مجموعة معينة من الناس ، بل تستهدف مصلحة الإنسان العربي ومستقبله في كل مكان .

كانت البداية منذ سنوات ... عندما اكتشف الذين يعرفون الوباء الضار الذي تحمله معها المهلهلات التي تعرض في التليفزيونات وأيضاً في أجهزة الراديوهات وتدخل به بيوت الناس فتصيبهم بالبطء والتراخي وتلهيهم عما يجري في العالم من حولهم ... اكتشف هؤلاء العلماء أن هذه المسلسلات تقتل الوقت ... هذا صحيح .. ولكنها في نفس الوقت تقتل في الناس عناصر إنسانية

على جانب كبير من الأهمية .. انها تقتل لديهم القدرة على التجديد والابتكار والإبداع .

بعد الكشف عن خطر الهدم قامت جمعيتنا بوضع ميزان يستطيع الناس أن يقيّموا به ما يعرض عليهم عن طريق تلك الأجهزة . فإذا أعجبتهم نتيجة الميزان فهم أحرار في ذلك .. أما إذا كشف الميزان لهم عن ضرر هذه المواد عليهم وعلى أولادهم من بعدهم فعليهم أن يجدوا طريقة يرفضوا بها مواصلة التعرض لها .

اليوم ... مر شهران فقط على توزيع هذا الميزان على الناس ... وقد توصل الناس – باستعمال ميزان الفن الذي وزعناه – إلى رفضهم لهذه المسلسلات واتفقوا على أسلوب إعلان هذا الرفض .. وابتدأوا ينفذونه من أسبوع واحد فقط وهو :

(إغلاق أجهزة التليفزيون في بيوتهم في موعد إذاعة المسلسل اليومي) .

واليوم .. – بعد إذاعة ونشر التفسير الغريب – تعلن الجمعية مسؤوليتها وتطلب من المسؤولين إعادة تقييم ما يعرضونه من مواد متورمة ... والتوقف عن خيانة الأمانة التي يجب أن يحملوها في أعناقهم ويحافظوا عليها ... وتقترح الجمعية إجراء مونتاج لهذه المواد بحيث تعرض في جزأين أو ثلاثة أجزاء أو أربعة بدلاً من ١٧ حلقة ، ٢١ حلقة ، ٣٠ حلقة ... ثم يقتصر الإنتاج الجديد على مواد سريعة الإيقاع متجددة مبتكرة حتى تستطيع أجهزة الإعلام – والفنون كلها – أن تقوم بواجبها الأصلي وهو : بناء الإنسان ... وليس «هدم الإنسان» .

(فجأة تعلو قوة الإضاءة في الصالة ... المحررون ينظرون حولهم .. وبعضهم يضعون أياديهم على عيونهم) .

الصوت في المكبر : (يتوقف لحظة ثم يعود بقوة) .

أرأيتم .... ارتفعت قوة التيار في العاصمة كلها منذ لحظة لأن الملايين أطفأوا أجهزة التليفزيون في بيوتهم الآن .

واسمحوا لي أن أترككم الآن لأتيح الفرصة للملايين الذين اتفقوا اليوم على أن يتصلوا بالصحف .. ليؤكدوا هذا الإعلان من جانب الجمعية التي أطلقت على نفسها اسم (جمعية صالح الإنسان العربي لرفض مواد الإعلام الضارة) .

(تصفيق حاد من المحررين ... ثم ابتدأت أجهزة التليفون في هذه الجريدة اليومية ترن بجنون ... وقبل بدء طباعة الجرائد الصباحية كان أكثر من ٢٠ ألف مواطن قد اتصلوا بكل دور الصحف اليومية الصباحية والمسائية والأسبوعية والنسائية والأدبية والمتخصصة ليؤكدوا مسؤولية الجمعية عن انخفاض التيار الكهربائي ... أثناء الموعد المسائي لإذاعة المهلهلات) .

* * *

الجزء الثاني
ميزان الفنون التي تدخل بيتك

ست البيت الشاطرة هي التي تحتفظ في بيتها بميزان لوزن الأشياء ...

عندما يعود رب البيت من الخارج وهو يحمل لحماً اشتراه من بائع اللحم ...

أو إذا جاء الخادم أو الدلالة بكيلووات من السكر أو الأرز أو البن .. أو هذا أو ذاك ..

أو إذا أرسل إليها الفاكهي بأكياس من الموز أو البرتقال أو التفاح ..

فإنها تزن هذه الأشياء على ميزانها الخاص .. فإذا اتضح أن هذا أو ذاك خدعها في الميزان ولم يوفِ الكيل والميزان كما يأمره الدين .. فإنها تستطيع معالجة هذا الأمر بأن تقاطع هذا أو ذاك من المخادعين .

وعلى أي حال فإنه عندما يعرف هذا أو ذاك أن ست البيت لديها ميزان خاص لوزن هذه الأشياء فانهم سوف يتوقفون عن خداعها ... وسيوفون الكيل والميزان ويطيعون ما أمر به الله ... لأنها سوف تكتشف خداعهم ... وتقاطعهم .

نفس الشيء يقال عن الفنون التي تدخل بيتك من الإذاعة ومن التليفزيون .

إذا كان لديك – أنت يا من تقرأ هذا الكلام الآن ، ويا من تقدم له الإذاعة والتليفزيون هذه الفنون – إذا كان لديك ميزان لتلك الفنون ... تعرف بها حقيقة هذه الأعمال الفنية ، فإذا كانت أعمالاً صالحة لا خداع فيها ... فإنك تفتح لها قلبك ونفسك وعقلك .. تتقبلها وترحب بها .

أما إذا كانت أعمالاً ملتوية ضارة منتفخة متورمة فسوف يفضحها الميزان ويكشف عن خداعها ويوضح آثارها الضارة .

وهذه الآثار الضارة التي تحدثت عنها عشرات المرات في الصفحات السابقة - وأعود فأرددها هنا - تصيب الإنسان .. صغيراً كان أو كبيراً بأمراض البطء ... ووباء الإهمال و« الأنامالية » وفيروس التسيب وأورام الفهم المتأخر .. وجراثيم التواكل وأنيميا التراخي والكسل والتي لا يجدي فيها علاج أو فيتامينات لأن هذه الأمراض تهدم الإنسان وتئد قدرته على التجديد والابتكار والإبداع ... وتجعله لا يؤجل عمل اليوم إلى الغد ... بل يؤجله إلى الشهر القادم .

وخطورة هذه الأمراض والأدواء أن فيروساتها وجراثيمها وأورامها .. لا تظهر بسرعة .

إنها تتسلل في رفق داخل الإنسان .. حتى تتأصل فيه عادة التلقي دون مناقشة ودون تفكير ... كالإنسان الذي يعتاد من أول حياته أن يحط الذباب على عينيه لا يهشه ولا ينشه .. ويعتاد على وجوده .. وفي بطء وتمكن تغزو عيونه كافة أمراض العيون ... من الرمد إلى كف البصر .

سأعطيك هنا ميزاناً للفنون التي تدخل بيتك لتزن به هذه الأعمال الفنية ... فتهش الضار منها وتبتعد عنه .. فتمنع أذاه أو أذاها ... ان يعلق بك ويعتدي عليك وينال من شخصيات أولادك يفسدها .. ولما تفسد الشخصيات تفسد الأمم وتتعطل خطواتها نحو مستقبل أفضل .

وهنا - يسعدني أن أفخر بأن هذا الكتاب يحقق واحدة من شعب الإيمان بالله .

فقد جاء في الحديث الشريف :

الإيمان ... بضع وتسعون شعبة .

أعلاها .. شهادة ألا إله إلا الله .

وأدناها .. إماطة الأذى عن الطريق .

يفخر هذا الكتاب بأنه يقوم بأدنى شعب الإيمان ..

إزالة الأذى عن أخطر طريق يسلكه الإنسان العربي ... نحو التقدم والرقي ...

طريق الإذاعة والتليفزيون

حتى لا يتعثر الإنسان في مطبات القذى والأمراض النفسية .. فيتعطل عن الانطلاق بالسرعة التي يحتاج إليها ويتخطى العواقب العديدة في طريقه ليحقق التقدم في كل المجالات .

(١) إحذر «فنجان القهوة» !

(فنجان القهوة يتخذ أشكالاً كثيرة .. كلها تضييع للوقت ، وتمييع للمواقف ...)

أ – تصور الموقف التالي ... وقد وقع لك أنت .

* تدخل على زميلك في مكتبه غاضباً ... ويحس هو بهذا الغضب الذي يلون صوتك ويقفز من عينيك ... فيقول لك في الحال :

– لا لا لا ... لن نتحدث في أي موضوع قبل أن تشرب فنجاناً من القهوة ... استرح هنا وسأحضر لك القهوة بنفسي .

ويخرج مسرعاً ... وقد تركك في مكتبه ... وما تلبث أن تحس أن

دوش بارد قد خفف من حدة غليان الدم في العروق .

ويأتي الساعي حاملاً القهوة ليقول لك إن زميلكما عباس قد احتجزه عند البوفيه وانه قادم حالاً .

وما يلبث أن يأتي زميلك وهو يضحك على النكت التي رواها له عباس ... ويرويها لك .. تحاول ألا تضحك ولكنك تحس أن مزيداً من الماء المثلج قد ألقي على حماسك .. وهنا يقول لك زميلك :

– أنا الآن تحت أمرك .

وتستجمع شتات غضبك ... ولكن قبل أن تستعيد ثورتك الضائعة يدخل «عباس» ليستدعي زميلك صاحب المكتب إلى لقاء سريع – حالاً – مع سيادة الوزير ... ويحمله حملاً .. ويتركك وقد تجمدت أعصابك وخصوصاً عندما تشك في أن كل هذا من تدبير زميلك الذي كنت غاضباً منه ....

هذا النموذج ... وغيره كثير ... يستخدمه كتّاب المهلهلات ليملأوا به الوقت .. لينفخوا في «الحبة» ليجعلوا منها «قبة» .. وفي البوصة لتصبح عروسة .. وفي الفكاهة فتصير مسلسلات إذاعياً أو تليفزيونياً في ثلاثين حلقة .

وهذه الأحداث المصنوعة .. والمنفوخة .. التي أطلق تعبير «احذر فنجان القهوة» للتحذير منها ... لا تستهدف غير «تأجيل تتابع الأحداث الرئيسية» .

إذا كنت تعرف أن سبب انهيار العمارات يعود إلى أن الأساس الذي وضع في بداية البناء كان ليتحمل عدداً معيناً من الأدوار التي تقام فوقه .. ثم تحرك الجشع في نفس صاحب العمارة فأقام ثلاثة أو

أربعة ثم خمسة أدوار فوق احتمال الأساس ، فانهارت العمارة لتقتل عدداً هائلاً من الناس ... ويغزو الحزن قلوباً عديدة .

إذا كنت تعرف هذا فاعرف أيضاً أن نفس الشيء يحدث في المسلسلات .

فإن القصة – الأساس – الذي يقام عليه المسلسل الإذاعي أو التليفزيوني كانت في الغالب الأعم قد وضعت لتكون فيلماً سينمائياً ... والفيلم السينمائي يستغرق من ساعة ونصف إلى ساعتين ... أما المسلسل فيجب أن يستغرق عرضه عشر ساعات على الأقل .. ويحتاج هذا إلى مط كثير .. ونفخ أكثر ... ويتم هذا بأساليب مختلفة أولها «عدد كبير من فناجين القهوة» التي أحذر منها والتي تتخذ شكل تفريعات جانبية تدخلك في متاهات تظل تتفرج عليها .. وتتوه معها ... وفي الحلقة الأخيرة تدرك أن كل ما رأيته في الساعات العشر كان يجب أن يقدم في ساعتين اثنتين فقط .

أرجو أن تستطيع بعد أن أعرفك بكل عناصر الميزان الذي أقدمه لك هنا .. أن تكتسب القدرة على أن ترى خلف الصور التي تجري على الشاشة ، عندئذ سترى مؤلف المسلسل ومخرجه والسيناريست وكاتب الحوار والمنتج ومساعدو المخرج ... كلهم يخرجون لك ألسنتهم ويسخرون منك ... وهم في نفس الوقت يدعون أنهم يوجهون إليك نصائح غالية يغسلون بها مخك :

– يا سيدي العزيز ... اجلس أمامنا ... تفرج علينا ... نحن نقدم لك أعظم الدراما .. نشرح لك النفس البشرية بطريقة لم يسبق لها مثيل ... ما دام ليس لديك شيء تقوم به ... ما دام وقتك لا قيمة

له .. اقعد معنا وراقب صندوق العجائب الذي نقدمه لك .. واشترك معنا كما كنت تشترك وأنت صغير في مشاهدة صندوق الدنيا «القديم» .. ابق معنا لنقتله سوياً .. هذا المتحكم في رقابنا ... والذي سيقتلنا في النهاية ...

(يقصدون الزمن)

ومرة ... تتكرر ... ثم مرة ثالثة ... وخامسة ... وسابعة .. وعاشرة .. ويجد المتلقي المسكين نفسه وقد اعتاد على البطء والمط والانتفاخ ... ومع هذا الاعتياد – كاعتياد الذباب على العيون – لا يحس هذا المتلقي المسكين أنه هو نفسه أصبح بطيئاً ... ممطوط التصرفات .. لا يفعل شيئاً سوى أن يرتكب جريمة قتل الوقت مع سبق الإصرار والترصد ، ويظل طول حياته يضيع الوقت ... ويضيع معه كل فرص النجاح والتقدم .

ب – أحياناً – أعني كثيراً – ما تكون مقدمة التمثيلية نفسها فنجاناً من القهوة الذي يجب أن تتجنبه ... فأنت إذا جلست تراقب مسلسلاً يذاع لأول مرة ووجدت أن المخرج يستعرض في المقدمة لقطات طويلة يعرفك فيها بالممثلين وأسماءهم .. وأسماء العاملين الفنيين في العمل الدرامي ... واستغرقت هذه اللقطات دقائق طويلة ... ثم تكررت نفس المقدمة ونفس الدقائق الضائعة في كل الحلقات ... فتأكد أنها «فنجان قهوة» يجب أن ترفضه .. وتقاطعه ...

ذلك أن الذي يخدعك هذه الخدعة فيقدم لك هذه الدقائق الضائعة في بداية كل حلقة لا يهمه أن يقدم لك عملاً فنياً مسلياً ومفيداً ... ان الاهتمام الوحيد الذي يشغله هو أن يثري هو ... على

حساب تعريضك لما سبق أن ذكرته من أمراض وأوبئة وجراثيم وفيروسات وأدواء وأذى .

واعلم – يا عزيزي المشاهد وعزيزي المستمع – أن تتابع الصور في الأعمال الدرامية في التليفزيون وتتابع الموسيقى والكلمات في الأعمال الدرامية في الإذاعة لا يجب أن تكون تضييعاً للوقت .

إن هذا التتابع – خصوصاً في التليفزيون – يجب أن يكون تلخيصاً لأحداث الحلقات السابقة حتى تتذكر – عزيزي المشاهد – تتابع الأحداث التي سبقت ، أو ـ إذا كانت هذه أول مرة تشاهد فيها المسلسل .. فهذه التتابعات صنعت من أجل أن تعطيك فكرة سريعة ملخصة لما سبق ، وتستطيع أن تتابع الأحداث بعدها .

فالمقدمة في الدراما التليفزيونية يجب أن تكون قصيرة جداً ... أما إذا كانت طويلة فيجب أن تقدم للمشاهد ما يقدمه الملخص الذي يسبق الرواية المسلسلة التي تنشر في الجريدة أو المجلة على حلقات .

إن هذه المقدمات الطويلة هي فنجان قهوة للتأخير والتأجيل والنفخ . يجب أن تقاطعه تماماً ... وتقاصع العمل الفني الذي يأتي بعده ... فإن العمل الدرامي يعرف من مقدمته .. على غرار ... الكتاب يعرف من عنوانه .

(احذر فنجان القهوة بأشكاله المختلفة)

(٢) احذر تحقيقات المجرمين

أظنك قرأت بعض التحقيقات مع المجرمين .

المحققون يكررون أسئلتهم دائماً . ويصرون على أن يحصلوا في كل مرة على إجابة عن أسئلتهم ...

مثلاً :

س : متى عدت إلى البيت ؟

ج : في الساعة السادسة .

س : بالضبط ؟ .. أم قبل السادسة بقليل أم بعدها بقليل ؟

ج : في الساعة السادسة تماماً .

س : وكيف تأكدت أنك عدت إلى البيت في السادسة تماماً ؟

ج : عندما دخلت البيت كانت ساعة الحائط الدقاقة عندي تدق ست دقات .

س : هل عددت الدقات ؟

ج : كلا .. ولكنني عندما سمعت الدقات نظرت في ساعة يدي ... كانت السادسة .

س : هل ساعة يدك مضبوطة ؟

ج : نعم .

س : والساعة الدقاقة ... ساعة الحائط .. هل هي مضبوطة أيضاً ؟

ج : مضبوطة جداً .

س : هل تعود كل ليلة إلى بيتك في السادسة ؟

ج : كلا .. ليس دائماً .

س : أمس مثلاً ... متى عدت إلى بيتك في المساء ؟

ج : في العاشرة مساء .

س : في العاشرة تماماً ... وكانت الساعة تدق العاشرة ؟

ج : لست أذكر بالضبط .

س : لماذا لا تذكر ؟

ج : لأن ٢٤ ساعة مرت ... ولست أذكر بالضبط .

س : هل ذاكرتك لا تحتفظ بالأشياء بعد ٢٤ ساعة ؟

ج : ليس كل الأشياء .

س : هل تذكر اسمك مثلاً إذا لم ينادك به أحد لمدة ٢٤ ساعة ؟

ج : أتذكره طبعاً .

س : اذن لماذا نسيت موعد حضورك بالضبط أمس ؟

ج : هذا شيء وهذا شيء آخر .

س : اذن فأنت قد نسيت متى قتلت سامي ؟

ج : نعم نسيت .

س : نسيت ... قتلته ونسيت ؟

ج : كلا – أنا لم أقل هذا ... أنت الذي جعلتني أقول هذا بسبب أسئلتك المتلاحقة المكررة .

س : لماذا لا تعترف ؟

ج : أعترف بشيء لم أفعله .

المقصود بهذه الأسئلة المتكررة والحوار المتكرر تحطيم أعصاب المتهم لكي ينهار ويعترف ... المقصود إيقاع المتهم عندما يجيب عن سؤال واحد إجابتين مختلفتين ... فالتكرار هنا يفي بحاجة التكرار :

الإيقاع بالمذنب .

ولكن بهذا الأسلوب نفسه يطيل المؤلف وكاتب السيناريو والحوار

في المسلسل .. ويظل يكرر ويعيد .. نفس الحوار بكلمات مختلفة وبين أشخاص مختلفين ...

المقصود هو الإطالة والنفخ ... والإيقاع :

بك أنت

مع أنك لم تذنب في شيء غير أنك جلست أمام التليفزيون ، أو بجوار الراديو ، وأسلمت نفسك إلى حوار متكرر معاد .. دون أن تزن صلاحيته .. فابتدأ يعربد في داخلك ويصنع أفعالاً خطيرة لأنك فتحت له الباب وتركته يتصرف كيفما يشاء .

فاحذر أسلوب الحوار .. الذي أطلق عليه «احذر تحقيقات المجرمين» فارفض وقاطع الذي يعيد الحوار عدة مرات بطرق مختلفة . بل بنفس الطريقة في أحيان كثيرة .

(بين قوسين)

اسمحوا لي أن أتوقف للحظة عن مواصلة تقديم عناصر الميزان .. لأحدثكم عن سيدة وصفت العنصر السابق وصفاً رائعاً ... لا أستطيع إلا أن أحدثكم عنه ..

اسمها الدكتورة سامية ... وأنا لا أعرفها شخصياً ولكنني قرأت لها هذا الوصف في مجلة الإذاعة والتليفزيون أثناء عرض الجزء الأول من مسلسل دالاس .

والدكتورة سامية دكتورة .. ليست صحفية ولا ناقدة ولا تدعي الأدب .. ولكنها إنسانة عصرية استطاعت بذكائها وملاحظتها ومقارنتها بين هذا وذاك أن تفتح قلبها ونفسها للعمل الفني الجيد وترفض العمل الفني الضار .

وقد نشرت هذا الوصف في صفحات النقد الفني التي تحمل عنوان «مقعد بين الميكروفون والشاشة» .. الذي تقدمه السيدة سكينة فؤاد الأديبة والناقدة الصحفية .. وسوف أعود إلى حديث عام عن هذا الباب .. بعد قليل .

لقد قرأت هذا الوصف منذ عام ... وأنقله هنا من الذاكرة .

كتبت الدكتورة سامية تقول :

شاهدت أمس مشهداً صامتاً مثيراً من إحدى حلقات دالاس .. حيث ذهب رب أسرة يوونج «جوك» إلى المستشفى ليتأكد من حقيقة اختفاء حفيده حديث الولادة بينما الجدة «مس نانسي» تنتظر في البيت لمرضها .

تصل سيارة جوك ... ووقفت عند باب الفيلا وتحركت مس نانسي لتستقبل زوجها عند الباب .

ودخل جوك ... وتبادل هو وزوجته النظرات واتضح أمامها الموقف تماماً .. وتحركت في عينيها دموع .

دقائق طويلة من المواقف الصامتة المؤثرة التي جعلت المشاهد ينفعل لانفعال الجد والجدة لاختطاف حفيدهما .

وفجأة خطر شيء في بالي جعلني أضحك وأغرق في الضحك .. ذلك اني تصورت هذا المشهد نفسه في حلقة من المسلسلات العربية التي تعرض علينا .. والتي لم أعد أشاهدها .. وتصورت الحوار التالي يدور :

نانسي : جوك ... أنت جوك ... ساكت ليه ؟ ... أنت رحت

المستشفى .. هيه ... إيه اللي حصل .. مالك مبلم كده ؟ .. أنت تدخل من الباب ساكت كده .. وتسيبني في الحالة دي .. أنت مش مقدّر اني عاملة عملية وشايلة صدري كله .. نسيت !! .. أنا حالتي مش كويسة يا جوك ... حاتفضل ساكت كده لغاية ما أقع من طولي .. قوللي .. لقيت الولد ... شفته بعينيك ولا لقيت المصيبة دي حصلت فعلاً .

جوك : يوووه يا نانسي .. أنا مش عارف أقول ايه ؟

نانسي : قوللي ... قوللي الحقيقة ... رحت المستشفى ولا لأ

جوك : رحت طبعاً ... أمّال كنت خارج بالعربية وسقت ٦٠ كيلو بالعربية بسرعة ١٤٠ كيلو عشان أتفسح ... رحت المستشفى يا ستي .

نانسي : طيب وبعدين .. لقيتهم عاملين ايه هناك .

جوك : لقيتهم كلهم مش عارفين يتصرفوا ازاي .. مدير المستشفى حايتجنن .. بيقول انه عمره ما حصلت الحكاية دي في المستشفى ... والدكاترة حالتهم زي الزفت .. والممرضات .

نانسي : يعني ايه ؟

جوك : بقه أقول الكلام ده كله وتقوليلي يعني ايه ؟

نانسي : أيوه يعني ايه .. مش تفهمني ... شفت الولد ولا اختفى حقيقي ؟

جوك : اختفى حقيقي .

نانسي : يا نهار أسود .

جوك : أسود .. أسود من الليل ...

نانسي : راح فين الولد .

جوك : راح فين ؟ ! ! ... خرج يتفسح من المستشفى ... خد معاد مع طفلة حديثة الولادة وخرجوا راحوا يرقصوا في بار من بارات الشباب .

نانسي : أنت حاتسخر مني .. فاكرني عجوزة .. الولد راح فين ؟

جوك : اتخطف يا نانسي ... مش باين على وشي وقع المصيبة ... اتخطف .

نانسي : اتخطف .. يا نهار أسود (وربما «يا نهار منيّل بنيلة») ايه المصيبة اللي حلت على دماغي دي .. يا حبيبي يا بني . مالحقتش تتهنى بابنك اللي كلنا كنا بنحلم بيه ...
اسمع يا جوك ... أنت راجل معروف ... والناس كلها بتحبك وتحترمك ... لازم بوليس الولاية كلها ... كل فرد من أفراد قوة البوليس والمخابرات يخرج يدور عليه .. أعلن عن مكافأة مليون دولار للي يرجعه .. الولد ده لازم يرجع تاني .. يا نهار أسود .

وهنا أغلق القوس الذي فتحته منذ قليل .. وأعلق فأقول :

– هذه السيدة الذكية الدكتورة سامية تعرف الميزان ويجب أنت أن تعرفه أيضاً .

إذا سمعت في مشاهد الحلقات أصواتاً وحواراً أكثر مما تراه من صور .. فاعلم أن الشلة التي أنتجت هذا العمل الدرامي تضحك على المشاهدين سخرية وهزءاً بهم .

ذلك أن مفكري الفن السينمائي في العالم عندما وضعوا الأسس الأولى التي تحكم العمل السينمائي قالوا المبدأ التالي :

صورة واحدة أبلغ من ألف كلمة ....

هذا المثل الصيني القديم هو الذي يحكم العمل السينمائي.

وظلت هذه الحقيقة قائمة تحكم العمل السينمائي ومن بعده العمل التليفزيوني ... في العالم كله .

الصورة هي الأساس ... ولا يجب اللجوء إلى الحوار إلا إذا عجزت الصورة عن أن تنقل كل الفكرة .

ظلت هذه الحقيقة قائمة حتى جاءت المسلسلات العربية فانقلبت الآية .. وأصبح الحوار هو الأساس .. والحوار الأطول .. والأطول .. حتى وصل الفن التليفزيوني عندنا إلى هذا التورم الخبيث .. الذي تحدثت عن أضراره وآثاره الجانبية مئات المرات ... في هذا الكتاب .. وفي غيره .

ومن أهداف هذا الكتاب أن يعود فن الدراما إلى الأساس المأخوذ من المثل الصيني القديم :

(صورة واحدة أبلغ من ألف كلمة)

(٣) احذر صديق البطل

في أفلام السينما القديمة كان للبطل دائماً صديق ... عمله الوحيد هو أن يتحدث إلى البطل ... لنعرف فيم يفكر البطل ... وكيف يفكر ..

كان اسماعيل يس صديقاً للبطل في كثير من الأفلام وكذلك كان بشارة واكيم .

وكذلك كان عبد السلام النابلسي ... وفؤاد المهندس .. وعادل إمام .. وغيرهم .

بعضهم ترقى إلى أدوار البطولة ... وبعضهم عاش حبيساً في دور صديق البطل .

وصديق البطل هذا هو الذي يصل دائماً .. ويدق جرس الباب في الوقت الذي يكون فيه البطل (عبد الحليم حافظ مثلاً) يرتدي ملابسه ويغني سعيداً .. ليدور بينهما هذا الحوار :

الصديق : الله .. الله .. الله .. مالك آخر وجاهة كده .. رايح فين إن شاء الله .

البطل : عندي ميعاد مع بنت حلوة زي القمر .

الصديق : مين هي ؟

البطل : مش حا اقولك ... أنت أصل كلامك كثير .

الصديق : ها ها ها ... أنت فاهم حاتقدر تخبي عن صاحبك حاجة .

البطل : قصدك ايه ؟

الصديق : عارفها .. مش هي «فلانة» ... بتاعة الحفلة امبارح .

البطل : يا ابن الايه .

وفي مناسبة أخرى يدخل الصديق دون ترقب فيجد البطل حزيناً ورائحته خمر .. ويدور حوار :

الصديق : مالك يا بطل .

البطل : سيبني في حالي يا صاحبي .

الصديق : أسيبك في حالك ازاي ... أنا مش ماشي إلا لما تقوللي إيه الحكاية ..

ويقول له «الحكاية» .. التي سبق أن عرفها المشاهد .. ولكن لا بأس من أن تعرفها مرة أخرى .

ويلتقي الصديق بالبطل في كل المناسبات الهامة .. والبطل لا يتصرف أبداً إلا بوحي من صديقه ليؤكد للمتفرج أن المرء قليل بنفسه ... كثير بإخوانه .

وفي نهاية الفيلم السينمائي يكون صديق البطل موجوداً ليزغرد عندما يتم زواج البطل من البطلة .

* * *

احذر هذا الصديق ... ان المخرج والمؤلف والمنتج يلجأون إليه للتطويل والنفخ .. والحشو ... بالشخصيات ... والكلام .

إذا وجدت هذا الصديق في عمل درامي تقدمه لك الإذاعة أو التليفزيون فارفضه ... قاطعه ... حتى لا تجلس تراقب أو تسمع .. والمخرج ... والمؤلف والمنتج .. يخرجون لك لسانهم في سخرية واستخفاف .

(٤) احذر اللهجة المحلية

في مكان آخر من هذا الكتاب رويت حكاية تحولي من الشلة التي تؤمن بالعامية المصرية أسلوباً للحوار في الأدب إلى الموقف الناضج الذي

يؤمن بالحفاظ على اللغة العربية .. لأسباب شرحتها في كتابي الصغير السابق :

«الإذاعة وبناء الإنسان»

وقد شاركني إيماني العميق ، ثم شاركني تحولي إلى هذا الموقف الجديد صديق وزميل عزيز ...

محمد عفيفي ..

الذي فقدت فيه مصر والأمة العربية صاحب أسلوب فريد في الأدب .

والذي فقدت بوفاته جزءاً من قلبي ومن نفسي ، مات عندما بلغني نبأ وفاته .

صدر لعفيفي في بداية حياته الفنية كتاب يضم مجموعة قصص ... كتب بعضها بالعامية المصرية .. لإيمانه بأن الكتابة يجب أن تكون بلغة الشعب ... أذكر أنني عندما قرأت هذا الكتاب تأثرت كثيراً به وبحديثه عن ارتباط واقعية الأدب بالعامية المصرية .

وبالرغم من هذا فإن عفيفي كان يكتب بلغة عربية رصينة – عندما يريد – تؤكد تمكنه من الأسلوب الرفيع الذي يستطيع أن يضعه جنباً إلى جنب مع كبار أدباء العربية .

ولعل قصة «دفتريا» من تلك المجموعة هي التي احتفظت للغة العربية الفصحى ببقعة مضيئة كانت هي التي أنارت طريقي عندما ابتدأت «أتحول إليها وأؤمن بها وأدعو إليها» .

كان لهذا الكتاب – كان عنوانه «أنوار» – مقدمة رائعة في فن

كتابة القصة ، وقد جاء في تلك المقدمة حديثاً عن عميد الأدب العربي الدكتور طه حسين .

عبّر عفيفي عن رأيه في حوار الدكتور طه في دعاء الكروان تعبيراً يثير التفكير ـ والابتسام ـ لدرجة انني أكاد أذكر كلماته حتى اليوم – بعد مرور أكثر من ثلاثين عاماً – .

قال :

«عمت صباحاً يا عمدة» .

وتعجب لهذه الفلاحة التي لا تفك الخط ولكن تدور على لسانها هذه العبارة التي وضعها الدكتور طه على لسانها ... لا أظن أن أحداً استعملها منذ أيام «المغيرة بن عبد الملك» .

وتؤكد هذه التحية شيئاً واحداً .. هو أن الدكتور طه لم يكن يكتب حواراً .. وإنما كان يكتب شيكات على دار المعارف» .

وتتغير أمور كثيرة .. تتغير كثيراً .. ولكن الشيء الذي يبقى كما هو ... هو أن مؤلفين عديدين من كتّاب مسلسلات الإذاعة والتليفزيون لا يزالون لا يكتبون حواراً .. بل يكتبون شيئاً عجيباً .

ليته كان من لون حوار الدكتور طه .. «عمت صباحاً يا عمدة» فهو على الأقل يمثل اللغة العربية الفصحى التي لا يختلف عليها اثنان .

ولكنه شيء مختلف تماماً .. لا هو لهجة بدوية .. ولا لهجة فلاحي .. ولا عربية مكسرة ولا لهجة أهل عمان أو الكويت .. ولا أهل السودان .. ولا لهجة أهل السعودية .. ولا لهجة صعيدية ... بل هو شيء خليط من هذا كله .. بحيث لا تعرف أي لسان هذا .. وإلى أي

مكان ينتمي هؤلاء الذين يتحركون ويتكلمون على الشاشة الصغيرة - أو الكبيرة - أمامك .

مؤلف الحوار يدّعي أنه يعرف هذه اللهجة أو تلك .. والممثلون يدّعون .. والمخرج يدّعي فتخرج اللهجة خليطاً لا لون له ... يثير سخرية من يعرف .. ويثير الارتباك عند من لا يعرف .

وتختلط كل أمور الفن الذي يدخل بيوتنا يؤثر فينا .. ولكن الحقيقة الوحيدة التي لا تتغير هي أن الشلة التي تشترك في صنع وفبركة هذا العمل الفني تسخر من فهم المستمع والمشاهد ... بالهلهلة في الأحداث والهلهلة في اللهجات .. والهلهلة في الشخصيات .

ولو أدركت هذه «الشلة» التي تقوم بالعمل في الإذاعات المختلفة أن ما يعرض على الشاشة وما يذاع في الراديو يؤثر في الناس .. تأثيراً سلبياً أو إيجابياً .. وأن واجبها الأول أن تقدم القدوة والنموذج الجيد الذي يحتذيه الناس بشكل (غير واعي) ... فإن هذه المشكلة ستقوم بوضع هذه الموازين نفسها بكل عناصرها موضع التنفيذ .. ولا تسمح بدخول الأعمال الفنية الهابطة إلى بيوت الناس تتسلل إلى نفوسهم وتؤثر فيهم وتسيء إليهم .

لو أدركت الشلة هذا فإنها ستعرف أن الأعمال الفنية التي تنتجها يجب أن تنطق باللغة التي تريد للناس أن ينطقوا بها ... وعندئذ ستضطر هذه الشلة أن تضع الأمور في يد الذين يعرفون ... وعندئذ ستوضع توصية باعتماد لغة واحدة راقية .. قريبة من اللغة العربية ليدور بها حوار المسلسلات .

أما الحوار الذي يكتبه أصحاب المهلهلات هذه الأيام - الذي

أرجو أن تنتهي على خير – فهو ليس حواراً ولكنه شيكات على مكاتب منتجي التليفزيون الذين يدفعون بالعملة الصعبة .

رحمة الله عليك يا عفيفي .

وإلى هنا تنتهي بنود ميزان الفنون الذي أرجو أن تحتفظ به عندك وتزن به كل الفنون التي تدخل بيتك عن طريق هذه الأجهزة الخطيرة .

اسمح فقط للفن الصالح بالدخول .. واغلق الباب أمام الفن الذي يسيء إليك وإلى أسرتك ... وإلى مستقبل الحياة .

وأرجو أن أكون قد استطعت أن أنبه إلى إماطة الأذى عن طريق التقدم والرقي .

الجُزءُ الثَّالِث

هَل في يَدِكَ « قَلَم » ؟!

القلم .... خلف الراديو والتليفزيون !

عزيزي القارئ .... المستمع .... المشاهد .

لولا أنك صاحب هذه الصفات الثلاث ، لما كنت قد اشتريت هذا الكتاب ...

ولكن الجزء التالي منه أوجهه لك إذا كانت لك صفة رابعة ... إذا كنت تمسك في يدك قلماً :

وكنت تحب أن تسطر به على الورق أفكاراً وتعبر به عما يجول بخاطرك .

إذا كنت تحس بأن الناس الذين يعيشون حولك يثيرون دهشتك أحياناً بتصرفاتهم ويفاجئونك أحياناً بأشياء لم تكن تتصور أنها تصدر عنهم ... يضحكونك أحياناً .. ويحزنونك في أحيان أخرى ... ويدفعونك إلى التفكير دائماً ... وتحب أن تحرك قلمك لترسم بالكلمات صوراً لما تراه من هؤلاء الناس .

إذا كنت أنت صاحب قلم كهذا فلعلك تكون مسؤولاً عن الحالة التي وصل إليها الفن في هذه البلاد العربية ... ولعلك يجب أن تمتشق قلمك كما كان جدودك يمتشقون الحسام ضد المخربين الذين يعيثون فساداً .

وليس الأمر في حاجة إلى عبقرية شديدة ، فأنت إذا كنت تستطيع أن تكتب خطاباً ظريفاً لصديق لك ، فأنت تستطيع أن تتعلم كيف تكتب للإذاعة والتليفزيون .

وفي الصفحات التالية سأتحدث ببساطة شديدة عن قواعد الكتابة للكاميرا والميكروفون .. وقد تكون معرفة هذه القواعد هي الطريق إلى إظهار موهبة كامنة بداخلك وإظهارها .

القواعد

هناك قواعد خاصة بالكتابة للمجالين (الإذاعة والتليفزيون) وهناك قواعد خاصة بمجال الإذاعة ، وقواعد أخرى خاصة بمجال التليفزيون.

وسأوضح هذه القواعد وتلك بالنماذج ... نماذج عالمية ... ونماذج عربية .

ولا أستطيع أن أنكر أن القواعد في الفن والأدب وضعت ليحطمها المجددون المبتكرون .. ولكننا يجب أن نعرفها ... حتى نعرف كيف نحطمها .

ولكنني في بداية الحديث عن هذه القواعد أوصيك خيراً بقاعدة واحدة ... قاعدة أهانها كتّاب الإذاعة والتليفزيون ... ومرمطوها .. ومسحوا بها البلاط .

هذه القاعدة هي :

لا تضع قلمك على الورق إلا إذا كنت ستقول شيئاً جديداً مبتكراً ..

أما أن تروي حكاية وقوع الرجل الوقور رب الأسرة في حب فتاة صغيرة – تلميذته في الطب مرة ، وتلميذته في التمثيل مرة أخرى

وأرملة صغيرة مرة ثالثة – أو حكاية زواج الرجل المحترم من خادمته .. أو حكاية وجود شبيه يرتكب الجرائم ويتّهم فيها الشبيه الطيب أو حكاية التوائم .. واحد منهما طيب جداً ، والثاني شرير جداً .. أو حكاية القرين ... وانفصام الشخصية ... فلا تضع قلمك على الورق لأنك في النهاية ستكتب مهلهلاً مكرراً أبله ... كفى ما نال منها المتفرج العربي من أضرار نفسية .

قاعدة الكتابة للإذاعة :

في العشرينيات بدأت الإذاعة في العالم ... في انجلترا وأميركا .. وفرنسا .. وألمانيا ... وايطاليا .

في الثلاثينيات بدأت الإذاعة في مصر .

في الأربعينيات .. والخمسينيات بدأت الإذاعات في البلاد العربية .

وما دمنا نتحدث عن قواعد الكتابة للإذاعة فيجب أن أبدأ من البداية الحقيقية ... بداية إذاعات العالم في العشرينيات .

عندئذ لم تكن للإذاعة أية قواعد ...

كانت الإذاعة مجرد لعبة ... وكانت لعبة مثيرة ... أجهزة كبيرة .. وأخرى صغيرة .. تلتقط من الهواء أصواتاً تأتي من محطة كبيرة بعيدة ... وكانت هذه الأصوات هي مجرد أشياء غير مدروسة ... غرضها الوحيد أن يشتري الناس هذه الأجهزة .... اللعبة .

لم يكن أحد قد اكتشف امكانيات الإذاعة .. ولا استخداماتها ... ولا وضع لها قواعد ولا أسس .

كانت أول مواد تذاع على الهواء لتستقبلها أجهزة الاستقبال .. الموسيقى والأغاني ... فكانت الإذاعات في هذه الحالة مجرد «فونوغرافات» .

(والعجيب أن بداية الإذاعة تكررت عندما توقفت إذاعات كثيرة عن أن تكون إذاعات وأصبحت فونوغرافات ... فقط .. مجرد جهاز لإدارة الأسطوانات والشرائط المسجل عليها الموسيقى والأغاني ...)

وأرجو أن أكتب يوماً مقالاً بعنوان :

«الإذاعات ... من عهد الفونوغراف إلى عهد الفونوغراف» .

ثم أضيفت إلى الإذاعات – في العشرينيات مواد أخرى ... كانت الأخبار ... والأحاديث ... (كانت تسمى محاضرات) .

ثم جاءت فكرة جديدة ... لعل الذي جاء بها يتميز عن الآخرين بالخيال الجامح والقدرة على التجديد والابتكار ... قال :

– هناك مادة لم نقدمها بعد .. ويستطيع تحقيقها أن يحقق نجاحاً ضخماً لدى الذين سوف يشترون هذا الجهاز الخطير ... انها «فن المسرح» .

ونفذت الإذاعات الفكرة في الحال ... كانوا يحملون ميكروفوناتهم كبيرة الحجم ضعيفة الحساسية ويضعونها هنا وهناك على المسرح ... ويطلبون من الممثلين أن يرفعوا أصواتهم ..

وابتدأ نقل المسرحيات على الهواء .

يذكر تاريخ المسرح والإذاعة أن أول مسرحية قدمتها الإذاعة على الهواء كانت مسرحية شكسبير «الليلة الثانية عشرة» يوم ٢٨ مايو عام ١٩٢٣ .

واستمرت إذاعة المسرحيات عاماً أو بعض عام حتى جاء صاحب عقل مبدع آخر .. فعبّر عن رأي هز قواعد الإذاعة القديمة ... وخلق حيرة شديدة لدى رجال الإذاعة ... لكنه هدم تمثالاً كان مقاماً على القاعدة ... فخلت القاعدة من أجل تمثال جديد ... قال :

– هذا الذي نصنعه خطأ كبير ... المسرحيات التي كتبها شكسبير ... كتبها لعرضها على المسارح . يشاهدها الرواد ... يشاهدون الشخصيات المميزة بملابسها وهيئتها .. وحركاتها المميزة ... وفي نفس الوقت يسمعون الحوار ... ويراقبون دخول الشخصيات على المسرح من هذا الجانب أو ذاك خلسة .

أما جمهور الإذاعة فلا يرى شيئاً ... حاسة الأبصار عنده توقفت تماماً لأنه لم يعد محتاجاً إليها .

وجمهور من هذا النوع يحتاج إلى نوعية أخرى من هذا الفن المسرحي .. تكتب بطريقة مختلفة عما كتبه شكسبير وغيره للمسرح .

لا بد أن هذا الرأي أحدث صدمة ... وأثار كلاماً كثيراً .. لعل واحداً .. أو أكثر .. يكون قد صاح في غضب شديد :

– كيف تتجرأ على شكسبير .. إله المسرح في العالم كله .. وتقول إن مسرحه لا يصلح للإذاعة .. انه يصلح لكل زمان ومكان .. أنت تحاول أن تكفر بالمعلم الذي يعترف به العالم كله .. ولكن شكسبير سيظل عظيماً ... يقوم فوق القاعدة التي وضعها عليه العالم .. رغم محاولاتك الدنيئة لتحطيمه .

أظن أن الرجل صاحب الفكرة ذُهل لحظة أضاف بعدها في هدوء ودهشة :

– أنا لا أريد أن أنال من أحد .. انني فقط ..

وقاطعه الغاضب في غضب أشد :

– أنت تسب نبي المسرح في العالم كله .

وصاح صاحب الفكرة :

– يا حبيبي أنا لا أسب أحداً ولا أهاجم أحداً .. إنني فقط أحاول أن أرسي قواعد جديدة لهذا الفن الجديد : الإذاعة .

ركب الغاضب رأسه التي كان قد أجرى فيها لنفسه ختاناً عقلياً استأصل الجزء الحساس فأصبح فاقد الإدراك والفهم لحقيقة ما يعرض أمامه من قضايا .. فصاح .. وهلل .. واتهم وأهال التراب على رأس صاحب الفكرة .. وجند أصحابه الذين يشبهونه في طريق التفكير .

ولكن ... لا يصح إلا الصحيح .

فما لبث أن انتصر الرأي الجديد ... بعد شهور قليلة ... لأن العقول المتيقظة تقبل أن تغير رأيها عندما ترى الفكرة الجديدة المبتكرة .

أما لو كان هذا الموقف قد حدث في مكان آخر ، لكانت الإذاعة ـ حتى اليوم ـ لا تزال تنقل ميكروفوناتها إلى المسرح لتنقل منها مسرحيات شكسبير .. ذلك لأن الأفكار القديمة في العقول التي أجرت ختاناً عقلياً تظل معبودة كالأصنام ... حتى لو تأكدت أنها لا تضر ولا تنفع ... تظل تعبدها .

وابتدأت العقول الكاملة تفكر : كيف تنفذ هذه الفكرة الجديدة الصالحة .. قالوا :

– نريد شكلاً جديداً للمسرحية يكتب خصيصاً للإذاعة ... إننا يجب أن نطلق عليه اسماً آخر ... نسميه Radio-Play ... مسرحية إذاعية .

ثم جاء ١٥ يناير سنة ١٩٢٤ .

التاريخ الذي نستطيع أن نطلق عليه اسم «تاريخ تصحيح المسار الفني للإذاعة» ..

في هذا التاريخ قدمت الإذاعة البريطانية تمثيلية قصيرة (١٥ دقيقة) عنوانها (خطر Danger) كتبها مؤلف مسرحي مشهور «ريتشارد هيوز» .

أستطيع أن أتخيل أنني لو كنت هذا المؤلف لكتبت عن هذه التجربة في مذكراتي :

– عندما جلست أفكر فيما طلبت مني الإذاعة البريطانية أحسست بأنني أصنع شيئاً جديداً لم يحدث من قبل .

ولكن كيف والشيء المؤكد أن في مشاعر الناس وعلاقاتهم ببعضهم البعض (وهذا هو بضاعة العمل الدرامي) لا يوجد شيء جديد ... لا جديد تحت الشمس في هذا الأمر .

وعندما وصل تفكيري إلى هذه المقولة «لا جديد تحت الشمس» اقتربت من الحل .. قلت لنفسي :

– إذا كان لا يوجد شيء جديد تحت الشمس فعليّ أن أبتعد عن الشمس لأبحث عن الجديد .. فإن مستمع هذا الجهاز الجديد العجيب لا يحتاج إلى الشمس لأنه لا يحتاج إلى ضوئها ليرى ... فإنه لا يرى ...

اذن يجب أن أبتعد عن الضوء ... شخصياتي وأحداثي يجب أن تبتعد عن النور .. مسرحيتي الصغيرة يجب أن تدور أحداثها في الظلام ... بحيث تكون الأحداث – وظروف جمهور الراديو في حالة واحدة – بعيدين عن الضوء ... في الظلام ..

وكتب تمثيليته الإذاعية ... لتذاع في تاريخ تعديل المسار الفني الإذاعي .

« خطر »

وفيما يلي سأكتب من الذاكرة ٢٣ سطراً أو لأكون أكثر دقة ٢٣ مفتاحاً من بداية التمثيلية (خطر) لتكون نموذجاً نخرج منه بالقواعد الأساسية لفن الكتابة للإذاعة .

وقبل أن أبدأ أوجه نظرك إلى **القاعدة العامة** :

يجب أن تجتذب اهتمام جمهورك منذ اللحظة الأولى بأن تدخل في موضوعك مباشرة .. بأقصى سرعة .

وهذه القاعدة ليست إذاعية فقط إنها تليفزيونية وسينمائية ومسرحية . قاعدة أساسية لكل ألوان وأشكال وأنماط الأعمال الفنية .

بداية تمثيلية (خطر) :

١ الرجل الأول : ما هذا ؟ ... ما الذي أطفأ النور ؟

٢ الرجل الثاني : بعد قليل يعود .

(صمت .. فترة قصيرة) .

٣ الرجل الأول : ربما يتأخر .

٤ الرجل الثاني : ربما .. ولكن ماذا نفعل ونحن في أعماق المنجم .. ننتظر .

(صمت)

٥ الرجل الأول : ألا نحاول العودة من حيث جئنا .. إلى سطح الأرض .

٦ الرجل الثاني : في هذا الظلام الدامس ... قد نضل الطريق ... أو نسقط في حفرة عميقة .

(مؤثرات صوتية) خرير ماء .

٧ الرجل الثاني : ما .. هذا ؟

٨ الرجل الأول : هذا صوت خرير ماء .

٩ الرجل الثاني : (في خوف) هذا معناه ... (يتوقف) .

١٠ الرجل الأول : (في خوف) معناه ماذا ؟

١١ الرجل الثاني : (صوت يرتجف أكثر) معناه أن الخلل الذي أصاب النور أصاب أجهزة أخرى .

١٢ الرجل الأول : المياه تتسرب إلى حيث نقف .. وتغرق الـ ...

١٣ الرجل الثاني : (ضاحكاً في عصبية) لا داعي للخوف ... بعد قليل يصلون ليخرجونا .

١٤ الرجل الأول : وإذا لم يفعلوا .

(مؤثرات صوتية) يتسلل في الخلفية بصوت خافت جداً ... تسرب غاز .

١٥ الرجل الثاني : سيفعلون .. يصلون إلينا حالاً .

١٦ الرجل الأول : كثيراً ما تبدأ حوادث المناجم بحادثة صغيرة كهذه .
١٧ الرجل الثاني : (في غضب) اصمت ولا تتكلم .
١٨ الرجل الأول : (في غضب أكثر) اصمت أنت .. واستمع .
١٩ الرجل الثاني : (في صوت خافت) استمع إلى ماذا ؟
٢٠ الرجل الأول : هذا صوت .. كأن شخصاً يتنفس بجوار أذني .
٢١ الرجل الثاني : (في عجب) شخص يتنفس !! .. ليس هنا غيرنا .
٢٢ الرجل الأول : (جاد في صوت خافت) استمع .
(مؤثرات صوتية) صوت الغاز المتسرب يتضح .
٢٣ الرجل الثاني : (يأخذ نفساً) يا إلهي ... إنه غاز يتسرب .. غاز خانق .

هذا الحوار السريع ... استطاع فيما لا يزيد عن دقيقة واحدة أن يرسم صورة صوتية كاملة .. للخطر الذي يشارك فيه المستمع الرجلين في المنجم .. استطاعت هذه السطور أن تحكم قبضتها على المستمع .

وضمنت الإذاعة بهذا أن هذا المستمع سيواصل الاستماع إلى ما يذاع لمعرفة مصير هذين الرجلين في هذا الموقف الخطير .

نترك هذين الرجلين في محنتهما .. وتعال نستخرج القواعد الأساسية للإذاعة .

القاعدة الإذاعية رقم (١)

أنت تكتب لجمهور لا يرى ... فيجب أن تكون دقيقاً جداً في

رسم (الصورة الصوتية) التي توصلها إلى أذن المستمع .

أدوات رسم هذه الصورة هي الأصوات الآتية :

(١) الصوت البشري (٢) المؤثرات الصوتية (٣) الموسيقى يضاف إليها (الصمت) الذي يزيد من حدة التوتر والترقب .

وهذه القاعدة هي التي تجعل النص الإذاعي بالشكل الذي رأيته .. أما الأرقام التي تحدد بدايات جمل الحوار بالنسبة للشخصيات (أي المفاتيح) فهي لتسهيل عملية الإخراج عندما يتحول هذا النص المكتوب – في الأستديو – إلى تمثيلية مسجلة على شريط تسجيل .

قواعد أخرى :

* في هذه التمثيلية (خطر) بطلان اثنان فقط .. الرجل الأول والرجل الثاني ...

كلما استطعت أن تجعل عدد الممثلين في تمثيلية ما أقل ما يمكن .. كلما كان أفضل ..

وقد ثبت من التجارب أن المستمع يتوه منك إذا زاد عدد الشخصيات في التمثيلية التي تستغرق نصف ساعة عن ست شخصيات .

* في الحوار ...
* كلما كان حوارك قليلاً قصيراً سريعاً كلما كان هذا أفضل .
* كلما استطعت أن تجعل كل الشخصيات تخاطب بعضها .. في الحوار – بأسمائها كلما كان هذا أفضل ... حتى يتعرف المستمع على الشخصيات وأسمائها .
* الأماكن التي تقع فيها الأحداث ... يمكن أن تتنوع بين شاطئ

البحر ... ما دمت تملك المؤثرات الصوتية المسجل عليها أصوات الأمواج ... ورواد الشاطئ أو أصوات الريح .. ويمكن أن تنتقل إلى أحداث تجري عند الشلالات في منابع النيل .. وتستطيع أيضاً أن تنتقل في الفضاء في طبق طائر وتهبط بشخصياتك على سطح القمر .. كل المؤثرات الصوتية التي تحدد المكان موجودة في عدد هائل من أسطوانات وشرائط المؤثرات الصوتية .

ما عليك إلا أن تشير في الحوار إلى المكان الذي تدور فيه الأحداث .. مع المؤثرات الصوتية ....

(كما حدث في المفتاح رقم ٤ عندما ذكر أنهما في أعماق منجم) .

* وأحب هنا أن أطلب منك أن تعود إلى الميزان – ص ١٢٥ – وتعتبر العناصر التي تحدثت عنها ... قواعد للكتابة للإذاعة وللتليفزيون .. ولكل الأشكال الفنية .

* اتفقنا على أن جمهور الراديو .. لا يرى ..

وقد ثبت من التجارب العلمية أن تعطل حاسة الأبصار يرفع حدة حاسة الإبصار الداخلي (الخيال) .

ومن هنا فالمستمع يتمتع بقدرة عالية من الخيال الخصب .

والمؤلف في هذه الحالة قادر على استغلال هذه القدرة العالية في تقديم متعة عقلية فريدة عن طريق الإذاعة .

* هذه أيضاً قاعدة مجربة : أن تضع الفكرة الأساسية التي تريد مناقشتها في شكل مثير .. في موقف حرج .. في احداث توتر الأعصاب .

وأعود هنا إلى الرجلين اللذين هبطا إلى المنجم وفوجئا بهذا الموقف

الخطير .. الفكرة الأساسية التي أراد المؤلف أن يعرضها .. أو يعالجها في هذه التمثيلية هي أن لكل شخص أحاسيس دفينة يُحسن اخفاءها تحت أستار مصطنعة من الهدوء والروية والطيبة .. ولكن داخله قد يكون حافلاً بالكراهية والعنف والقسوة .. وربما الخوف الشديد .. وأن هناك لحظات تتكشف فيها الأستار عن أسرار النفس البشرية وعندئذ تظهر على حقيقتها .

من هذه اللحظات لحظات الخطر .. مثل تلك اللحظة التي قادت هذين الرجلين إلى زيارة هذا المنجم ثم انقطاع الاضاءة وتسرب المياه تهددهما بالغرق والغاز يهددهما بالاختناق ... فلما التف الموقف بالخطر تعرت كل النفوس وكشفت عن الخوف والعنف بداخلها بحيث ان كل واحد منهم همّ أن يفتك بالآخر حتى لا يشاركه الآخر كمية الأكسوجين المتوفرة .. ومنعهما الظلام أن ينال أحدهما من الآخر .

حتى جاءتهما الأصوات من فوق الأرض وقد فتحت الطريق إليهما لإخراجهما .. ولما أعيدت الإضاءة كان الرجلان قد تصالحا وعاد كل واحد منهما يخفي أسراره العنيفة بداخله .

ومع إعادة الأضواء انتهت التمثيلية .

عد إلى قراءة الـ ٢٣ مفتاحاً في بداية تمثيلية (خطر) .. اقرأ سطورها كما يجب أن تقرأ النص الإذاعي :

بأذنيك

استمع إلى الكلمات والمؤثرات الصوتية .

واستمع أيضاً إلى لحظات الصمت وما يملؤها من أصوات التنفس

الثقيل والعصبية لتدرك كيف يشترك خيال المستمع في متابعة الأحداث بأذنيه .

* * *

الفك السينمائي .... كلاكيت

« كلاكيت» تعبير سينمائي إذا كنت لا تعرفه .. وهذا أمر بعيد الاحتمال ....

فتصور أنك فتحت فمك فتحة متسعة ثم أغلقت الفك بسرعة بحيث ان أسنان الفك العلوي تصطدم بأسنان الفك السفلي فيصدر عن هذا صوت اصطدام ... تعرف عند سماع هذا الصوت (الاصطكاك) أن الفك أغلق تماماً .

هذا – بالضبط – هو تقليد لكلاكيت السينما ...

الكلاكيت عبارة عن فك خشبي كهذا الفك البشري مكون من فك علوي وفك سفلي من الخشب مرتبطان بمفصلة كمفصلة الباب أو النافذة ... عندما يصطك الفكان يصدران صوت اصطكاك قوياً يحدد بالضبط اللحظة التي يلتقي فيها الفكان ... عندما يتم تصوير هذا الكلاكيت فإن بداية الخبطة (الصوتية) على الشريط الصوتي يجب أن تتطابق مع صورة التقاء فكي الكلاكيت ... وهكذا تتطابق الصورة مع الصوت في أفلام السينما والتليفزيون .

وعن طريق هذه الكلمات القليلة التي تصف الكلاكيت الذي يجمع بين الصوت والصورة في العمل السينمائي والتليفزيوني .. أنتقل في الحديث هنا بين بضاعة الإذاعة الوحيدة (الصوت) إلى بضاعة السينما والتليفزيون الأولى (الصورة) .

صحيح أن الصوت يلعب دوراً في السينما والتليفزيون ... ولكن يجب أن يكون الدور الثاني ... فإن الدور الأول هو دور الصورة دون منازع .

سر :

سأكشف هنا - الآن- عن سر وضعته في قلبي حوالي عشرين عاماً ... كنت أحظر فيه على نفسي أن أرويه لأحد ...

مرت الآن سنوات طويلة فقد فيها هذا السر حدته فأستطيع أن أرفع عنه الحظر .

ولو كنت أستطيع أن أقدم نموذجاً أوضح لحديثي عن السينما كفن صورة من هذا السر ... لظللت أحظر خروجه مني .

كان الأستاذ صلاح أبو سيف مخرج مصر السينمائي الأول ... قد أنشأ في القاهرة معهداً للسيناريو التحق به وتخرج منه مجموعة من كتّاب السيناريو العاملين في حقل السينما والتليفزيون .. أذكر منهم :

وفية خيري - ممدوح الليثي - نادية حمزة - سيد موسى ... وكاتب هذه الكلمات .

بعد دراسة فن كتابة السيناريو على أيادي الأستاذين صلاح أبو سيف والمرحوم علي الزرقاني وزّع علينا عميد المعهد الأستاذ صلاح نسخاً من قصة قصيرة للأستاذ نجيب محفوظ ... القصة تحمل عنوان «بدلة الأسير» .. وطلب أن يعدّ كل طالب أو طالبة سيناريو لهذه القصة .. وأنه سوف يعتبر هذا العمل العمل الأساسي في أعمال السنة الدراسية .

وبعد أن راجع الأستاذ صلاح السيناريوهات العديدة التي قدمت أختار منها سيناريو واحد ليقرأه على طلبة المعهد ... كان السيناريو يحمل عنوان «أسير البدلة» سيناريو سينمائي قصير عن قصة نجيب محفوظ «بدلة الأسير» .

القصة :

تقع أحداث القصة في صيف عام ١٩٤٣ في فترة قمة حرب الصحراء في العلمين في مصر عندما استغل مونتجومري الحر والعطش وقام بهجومه الكبير الذي أسقط من الجانبين ضحايا كثيرين .. دفنوا في مقابر العلمين الشهيرة .. وتساقط الآلاف من الايطاليين في الأسر لتنقلهم القطارات من العلمين ومرسى مطروح إلى معسكرات اعتقال الأسرى في القاهرة .

هذا هو الموقف المقامة عليه القصة ... الموقف الحقيقي .

وفي إحدى المحطات في الطريق تقع أحداث القصة في تلك المحطة ... شاب فقير يعمل بائعاً جائلاً يحمل ذلك الصندوق الخشبي الصغير يبيع فيه السجائر .

اسمه «شحتة» على ما أذكر ... وهو يرتدي جلابية ، ولكن حلم حياته .. تطلعه الوحيد في الحياة أن يرتدي «بدلة» .

في تلك المحطة – دمنهور .. أو بنها ... أو غيرهما على الطريق يحدث اللقاء بين الأسرى (الطلاينة) وشحتة ... وحلمه الكبير .

ما إن يتم هذا اللقاء حتى يتضح أن السجائر التي يحملها شحتة هي

أيضاً حلم من أحلام الجنود الأسرى المفلسين المغلق عليهم أبواب القطار .

وإذا بحلم شحتة يتحقق بالتدريج ... فهذا الأسير الإيطالي يخلع جاكتته ويعرض على شحتة أن يأخذها في مقابل كم علبة سجائر ؟ ويدور حوار بالإشارة .. علبتان .. ثلاث علب .. ويقبل الجندي ويدفع شحتة ثمناً لنصف حلمه ثلاث علب سجائر .. ثم يشاور مرة أخرى ... انه في حاجة إلى بنطلون .. ويخلع أحد الأسرى بنطلونه في وسط عاصفة من الضحك .. والسعادة الصامتة على وجه شحتة الذي يريد لحلمه في ارتداء بدلة أن يتحقق .. ويدفع شحتة ثمن البنطلون علباً من السجائر .. وما يكاد حلمه يتحقق حتى يسرع إلى دورة المياه في المحطة .. حيث يرتدي بدلة الأسير .. ويقف يراقب نفسه في المرآة ... ويحمل الصندوق الخشبي .. ولكنه يزهد فيه ... يتركه ... ويخرج ببدلته إلى الرصيف يتبختر .. وقد تحقق حلمه كاملاً ...

وهنا يبدأ الاستعداد لتحرك القطار ويدور الحراس من جنود بريطانيا يتأكدون من أبواب القطار المغلقة على الأسرى ... وفجأة يرى واحد من الحراس أسيراً يتبختر حراً على رصيف المحطة ... يشهر مدفعه في وجهه ويطلب منه أن يصعد إلى القطار ... يحدثه مرة بالإنجليزية ومرة بالإيطالية ...

ولكن شحتة لا يفهم الإنجليزية ولا الإيطالية ... ولا يفهم غير شيء واحد فقط ... أن هذا الجندي يريد أن يحرمه من البدلة التي حقق بها حلمه – اشتراها بحر ماله .. يريد أن يستولي على حلمه ... ولذلك

ابتدأ يهرب مبتعداً وهو يحتضن حلمه .... ويطلق الجندي الإنجليزي الرصاص على شحتة ليرديه قتيلاً في بدلة الأسير التي أسرته حتى قتلته .

وبهذا تنتهي القصة القصيرة ... التي ما كدت أفرغ منها حتى رحت أفكر في كل اتجاه .

كان التليفزيون أيامها .. في سنواته الأولى ..

صحيح أنهم كانوا يقولون عليه انه ولد عملاقاً .. إلا أن الأشكال الفنية التي تقدم إليه كانت في بساطة اللبن الحليب الذي يقدم للأطفال .

ولذلك فكرت في اتجاهين ....

أن يكتب سيناريو لهذه القصة يصلح للتليفزيون ... والتليفزيون أيامها كان يفضل المشاهد القليلة كالمسرح .... وكان غير قادر على تصوير خارجي ... فتصوير محطة سكة حديد كانت مستحيلة بالنسبة للتليفزيون .

كان أول تفكيري هو أن تكتب هذه القصة في شكل سيناريو ذي مشهد واحد .. وتروى القصة كلها من خلال الحوار .

والتفكير الثاني هو أنه لن توجد قصة كهذه القصة تصلح لتقدم سينمائياً . من غير حوار على الإطلاق .

أي تعتمد على الصورة فقط .. فأصل بالسيناريو إلى أفضل صورة .

فالصورة كما سبق أن قلت .. وأقول دائماً .. ويقول من يفهمون .. هي البضاعة الأولى للفيلم السينمائي ...

والاعتماد على الصورة في الفيلم السينمائي يستطيع أن يقضي تماماً على حاجز اللغة ، فإن رواية قصة بالصورة فقط يجعلها قريبة إلى قلب

كل إنسان في العالم مهما كانت لغته ...

وإذا استطاع فيلم أن يحقق الاعتماد على الصورة فقط ... فإنه يكون قد حقق الفن السينمائي الأكمل .

وبعد مجهود كبير مشوق ممتع استطعت أن أستكمل التعبير عن قصة نجيب محفوظ بالصورة فقط ... وغيرت العنوان إلى «أسير البدلة» .. وقدمت السيناريو الذي اختاره الأستاذ صلاح أبو سيف ليقرأه على طلبة المعهد كنموذج لما يجب أن يفكر فيه كاتب السيناريو في محاولة للتقليل من الحوار والاعتماد على الصورة .

في تلك الأيام من عام ١٩٦٣ كان التليفزيون المصري الذي ولد عملاقاً يقيم كل عام مسابقة تليفزيونية لأعمال فنية ...

فاتحني أيامها الصديق كمال أبو العلا ـ وكان يعمل أيامها مديراً لشيء أو لآخر من إدارات التليفزيون ـ انه يريد عملاً فنياً يخرجه ويدخل به المسابقة ... فقلت له :

– عندي سيناريو «أسير البدلة» .. قد يستغرق من ٢٠ إلى ٣٠ دقيقة .. قصة نجيب محفوظ .. والسيناريو من غير حوار ... يعتمد على الصورة فقط .. والقصة إنسانية تستطيع أن تهز وجدان أي إنسان ... ولما كنت قد هدمت حاجز اللغة فإنني مطمئن إلى أنها تستطيع أن تحظى بإعجاب هيئة التحكيم كلها ... من جميع الجنسيات .

وسلمته السيناريو .

كاتب هذه الكلمات فيه عيب كبير يعترف به هنا .

إنني أثق بنفسي ثقة كاملة ... لذلك لا أستطيع أن ألح بخصوص

عمل من أعمالي . لأنني أعتقد أن أعمالي واضحة الجودة أمام عيني كل من يفهم .. ولذلك فليس أي عمل من أعمالي في حاجة إلى ملاحقة أو إلحاح ...

سلمته السيناريو ... وخلاص ! !

لم أتصل به كما كان من الممكن أن أفعل لو لم أكن واثقاً من أعمالي ... وأقول له :

– هيه .. ماذا فعلت يا كمال ؟ .. لا يجب أن تتأخر فالوقت يمر .. وهذا عمل فني عظيم جداً ... ليس لأني صاحبه .. أبداً .. أبداً ... إذا كنت ستتأخر فاسمح لي أن أقدم السيناريو لمخرج آخر ... هناك ثلاثة مخرجين يلحون عليّ للحصول على السيناريو .

أنا لم أفعل هذا .. لم أتصل به .. ومر الوقت ولم يصنع كمال أبو العلا شيئاً .. ومرت فرصة ذلك العام ...

وجاء عام جديد ... عام تليفزيوني جديد ومعه مسابقة جديدة .. ومفاجأة غريبة .

التقيت – على سلالم التليفزيون – بحسين كمال – مخرج التليفزيون فقط أيامها – وقلت له كما أقول له عادة :

– أهلاً يا سنسن .. كيف حالك ؟

– ايهاب ... سمعت أنك صنعت سيناريو عظيم لقصة نجيب محفوظ «بدلة الأسير» ..

سألته :

– من أخبرك ؟

فقال :

– بلغني من زملائك في معهد السيناريو ... أنا أخرج سيناريو آخر لنفس القصة تحت عنوان آخر ... كتب لها سيناريو جديد .. فلان الفلاني .

تضايقت طبعاً ... وذهبت لكمال أبو العلا أعاتبه .. فقال لي انه أعطى السيناريو لفلان الفلاني هذا ... الذي قرر أن يكتب للقصة سيناريو آخر .. وأيضاً بدون حوار .

وقلت لكمال :

– الشيء الوحيد الجديد والمبتكر والهام في سيناريو أسير البدلة هو أنه معالجة **بدون حوار** لقصة «بدلة الأسير» .

وذهبت إلى فلان الفلاني ... أقصد أن أعاتبه ولكنه ابتدرني يقول :

– أنا كنت أبحث عنك لأقول لك إنني لم أقرأ السيناريو الذي كتبته أنت ... لقد كتبت سيناريو آخر مختلف عن السيناريو الذي كتبته أنت .

قلت متسائلاً :

– كيف تعرف أنه مختلف وأنت لم تقرأ السيناريو الأصلي ... ليس في السيناريو شيء هام .. إلا أنه بدون حوار ... هل هناك حوار في السيناريو الذي كتبته أنت ؟

فأجاب :

– كلا .

– اذن فهو ليس مختلفاً .

وهنا قال لي ان التصوير قد بدأ في الفيلم فعلاً ... فقلت له :

– إنني أستطيع ان أؤكد لك ان هذا الفيلم سيفوز بالجائزة الأولى

ففيه الصفتان الأساسيتان بالنسبة للعمل السينمائي .. الأول انه تلك القصة الإنسانية التي كتبها نجيب محفوظ ... وثانياً أنه يعتمد تماماً على الصورة ... فكسر حاجز اللغة ... وما دمت قد بدأت في التصوير فلا فائدة من الكلام الآن .. ومبروك عليك وعلى المخرج الجائزة الأولى التي ستحصل عليها قصة نجيب محفوظ بدون حوار .

والذي توقعته حدث ... بل وقع أكثر مما توقعت .

لم يطلقوا اسم «بدلة الأسير» .. العنوان الأصلي للقصة أو «أسير البدلة» عنواناً للفيلم ... لقد صنعوا له ماكياجاً .

سيناريو مختلف تماماً !!! – كما قال فلان الفلاني – فالأحداث أصبحت تقع في الشتاء .. وشتاء مصر معروف عالمياً بالبرد القارس !! ولذلك فشحتة (البطل) وهذا لا يمكن تغييره بردان بردان يريد أن يكون له «معطف» يرتديه ويقيه برد مصر المعروف في الشتاء (تحت الصفر !!) .. وأطلقوا على الفيلم اسم «المعطف» .. فجعلوا شحتة يشتري معطفاً من معاطف الأسرى في مقابل سجائره .

سعدت جداً بفوز فكرة السيناريو بدون حوار .. وسعدت أيضاً بفوز مصر بالجائزة الأولى في المهرجان العالمي ... .

ولكن هذه السعادة داخلتها مرارة كثيرة وعجب .... عندما :

جلس فلان الفلاني أمام شاشات التلفزيون ليهنئوه على فوزه الكبير ويطلقوا عليه تسمية «السيناريست العالمي» ... جلس في عدد كثير من برامج المقابلات في التليفزيون وفي كل مرة كان يتحدث عن السيناريو الفائز الذي كتبه ... وكان يكرر في كل مرة :

– لقد قرأت ألف قصة قصيرة لأختار من بينها هذه القصة التي وجدت

أنها تصلح لكتابة سيناريو بدون حوار !!!! .

* * *

بعدها كتبت سيناريو آخر .. أصلي من غير حوار أيضاً .. صوره التليفزيون في فيلم سينمائي أخرجه شفيق شامية وعرض في التليفزيون عدة مرات ... وكان من الممكن أن يفوز في مهرجان آخر ... ولكن المهرجانات كانت قد توقفت .

وإذا سمحت الظروف .. ظروف حجم هذا الكتاب الذي في يدك .. فسوف أضع فيه سيناريو ثالث يستغرق ٣٠ دقيقة أيضاً وهو أيضاً بدون حوار .

وعنوانه «خطر»

أرجو أن أستطيع تضمينه كتاب «الناس على دين إذاعاتهم» .

* * *

آسف لاضطراري أن أكشف الحظر الذي كنت قد وضعته على هذه الحكاية ..

وأرجو أن أكون قد استطعت أن أوضح انه :

إذا كانت بضاعة الإذاعة هي الصوت فقط .. فإن بضاعة السينما والتليفزيون هي الصورة .. ثم الصورة ... ثم الصورة ... ثم الصورة ... ثم الصوت (الحوار) .

وفيما يلي سأكتب ملخصاً لتمثيلية قصيرة أخرى من أشهر التمثيليات القصيرة في العالم .... اقرأ الملخص ثم أمسك بقلمك واكتب منها شكلين من أشكال الفنين الإعلاميين :

تمثيلية إذاعية ... وتمثيلية تليفزيونية .

التمثيلية الفرنسية تحمل عنوان «السيارة السبور الحمراء الصغيرة» .. تتكون من ثلاثة مشاهد .. أو ثلاثة مسامع (المشهد في العمل المرئي يقابل المسمع للعمل المسموع) .

ثلاثة مشاهد فقط ... قصيرة .. لذلك فيجب أن تدخل في الموضوع مباشرة .

ولكن دعني أحذرك ... موضوع هذه التمثيلية لا يصلح لإذاعات وتليفزيونات البلاد العربية لأن أخلاق المواطن العربي لا تقبل عرض الخيانات الزوجية ... التي يحب ذكرها الأدب الفرنسي .

المشهد أو المسمع الأول :

حركة في ميدان كبير في وسط باريس ... بالصورة أو بالصوت ..

يراقب هذه الحركة رجل وامرأة من شقة عالية تطل على الميدان ... من شرفة الشقة .

الرجل هو توني ... صاحب الشقة .

والسيدة هي بريجيت ... عشيقته ...

يدور حديثهما حول بيير .

بيير هو زوج بريجيت وصديق «توني» .

ضمير بريجيت يؤنبها على هذه العلاقة ... ونعرف كيف أن الزوج المخدوع «بيير» لا يمكن أن يشك في هذه العلاقة .. فإن بريجيت تدعي أنها تزور صديقة لها – في الناحية الأخرى من باريس – كلما جاءت تزور عشيقها في شقته .

وفيما هما يتحدثان يتابعان سيارة صغيرة حمراء سبور مكشوفة

يركب فيها فتى وفتاة يبدوان في سعادة الأيام الأولى من الحب ... وهما يدوران حول الميدان ويضحكان .

وفجأة تصطدم بهذه السيارة الصغيرة السعيدة شاحنة ضخمة تمزقها تماماً وتمزق الفتى والفتاة .

وتختلط صرخة بريجيت وصرخة توني مع صفارات رجال البوليس وصياح الناس في الميدان لهذا المشهد الرهيب الذي يحطم الأعصاب .

المشهد أو المسمع الثاني :

بار في وسط باريس ... نتعرف في بداية هذا المشهد أو المسمع على بيير صديق توني وزوج بريجيت .

نعرف أنه يأتي هنا – باره القديم – كلما كانت زوجته تزور صديقتها العزيزة .

وهو يداعب رواد البار وينشر الضحك هنا وهناك في خفة دمه المعهودة .

ويعلق أحد معارفه ضاحكاً :

– إن الذي يراك يا بيير وأنت تنشر الضحك والمداعبات هنا وهناك لا يتصور أنك قادر على ذلك القدر من الغضب الذي يظهر منك أحياناً .

بيير يلاحظ أن هناك شخصاً يجلس في ركن من البار في الظلام .. يعب الخمر عباً ولا يحدّث أحدا .. يتجه إليه ليداعبه فيكتشف أنه صديقه العزيز « توني » الذي لم يره منذ وقت طويل .

يسأله ماذا به ... فيخبره توني أنه شاهد منظراً من شرفة مسكنه

مزق أعصابه ويحكي له ما وقع للسيارة المكشوفة السبور الصغيرة الحمراء .

المشهد أو المسمع الثالث والأخير :

في هذا المشهد تلعب الصور القريبة دوراً هاماً رئيسياً ... أو تلعب المؤثرات الصوتية دوراً رئيسياً في هذا المسمع إذا كان يعد للإذاعة .

الصورة الهامة هي صورة درج صغير .

والمؤثر الصوتي الهام هو صوت فتح وإغلاق هذا الدرج الصغير .

تجري أحداث الجزء الثالث ... في مكان ثالث هو منزل بيير ... البيت هادئ تماماً .. فهو في دور عال في عمارة في حي هادئ ..

بيير يفتح باب شقته بمفتاحه ويدخل ينادي على زوجته ... ولما لا ترد يعرف أنها لم تعد بعد من زيارة صديقتها العزيزة .. ويتجه إلى غرفة مكتبه .. ويمر في الطريق بالدرج الصغير الذي يحتفظ فيه ببعض الأشياء الهامة .

يجد الدرج مفتوحاً ... فيغضب غضباً شديداً ويصيح منادياً زوجته :

– بريجيت ... لا بد أنك هنا .. فهذا الدرج مفتوح .

ويتجه بخطوات قوية إلى غرفة النوم ... يفتح بابها ويطل بداخلها .. ويصيح «بريجيت» .

تستيقظ بريجيت من نومها العميق وأنفاسها تتلاحق في فزع .. وتبكي في انفعال وهي تقول :

«لماذا أيقظتني ... لماذا أيقظتني» ؟

ويعتذر بيير لغضبه بأنه لم يدرك أنها نائمة ... وتقول بريجيت إنها جاءت منذ قليل .. عندها صداع .. وأخذت حبوباً منومة من الدرج الصغير ونامت مخدرة بسبب الحبوب المنومة .

ويعتذر بيير مرة أخرى وهو يشرح أنه غضب لأنه وجد الدرج مفتوحاً ... ويضحك في مرح كما كان يضحك في المشهد السابق في البار :

– أنا آسف يا حبيبتي .. أنت تعرفين هذا الدرج الصغير وقيمته عندي .. فيه دواءين للنوم .. دواء للنوم المؤقت الذي نتناوله أحياناً أنا وأنت ودواء للنوم الأبدي الذي لم نستعمله حتى الآن .. عودي إلى النوم يا حبيبتي ... سأغلق عليك باب غرفة النوم .

ويغلق بيير الباب على زوجته ويعود إلى الدرج الصغير المفتوح ... ويمد يده فيه يعبث فيه .. وهو يقول :

– أهلاً بك يا دواء النوم الأبدي .

وفي يده أخرج مسدساً صغيراً ... ويعالج المسدس ويعبث به ... بل لعله يفكه .. ينظفه في اهتمام شديد ثم يعيد تركيبه .

وهنا تأتي زوجته التي لم تستطع أن تعاود النوم فتجد المسدس في يده ، فتقول في صوت نائم :

– ماذا تفعل بهذا المسدس ... لا أظن أن بيتنا يدخله لص فنحن في دور عال ..

فيضحك بيير ضحكته المرحة التي تعرفنا عليها في هذا المشهد والمشهد السابق ويقول إنه قد يدخل منزله يوماً فيجدها مع عشيقها .. فيستعمل المسدس في الحال .

ويكون قد فرغ من تنظيف المسدس فيضعه في الدرج ويغلق الدرج ..
وهو يسأل :

– كيف حال صديقتك العزيزة ؟

فتقول :

– «بخير ... ولو أنني أعتقد أنها أخذت الآن حبوباً منومة لتنام» .

ويسأل في مرح :

– «أنتما سوياً ... ألهذه الدرجة صديقات وعاداتكن واحدة» ؟

فتقول بريجيت :

«لننسَ نفس الشيء» .

ويسأل : أي شيء ... فتخبره ... تحكي له المشهد الذي رأته هي وصديقتها من شرفة منزلها في الميدان ... السيارة الحمراء السبور المكشوفة .. التي يركب فيها فتى وفتاة ... و... و... وكيف تمزقت السيارة والفتى والفتاة لما اصطدمت بهما شاحنة ضخمة فزقت السيارة والفتى والفتاة .

وتتنهد بريجيت تنهيدة حارة ... وهي تواصل التحدث عن أثر هذه الحادثة في صوتها الذي يخرج بطيئاً بسبب أثر المخدر .

– شيء فظيع .

وفي النص الإذاعي نسمع صوت فتح الدرج الصغير .

وفي النص التليفزيوني نرى صورة مقربة للدرج الصغير يفتح .

* * *

من هذا الملخص للتمثيلية الفرنسية الشهيرة يتضح أحد أسس الآداب الإعلامية وهو «احترام المستمع» أو «احترام المشاهد» .

ويتضح هذا الاحترام في هذا النص الصغير جداً .. لم يقل كل شيء .. أي استغنى النص استغناء تاماً عن أن يضع في النهاية .

بيير : ماذا تقولين رأيت هذه الحادثة من شرفة منزل صديقتك ؟

بريجيت : نعم .

بيير : اذن أين كان توني ؟

بريجيت : (في مفاجأة) توني ؟ ... توني من ؟

بيير : توني الذي روى لي منذ قليل أنه شاهد نفس هذه الحادثة من شرفة بيته هو .

بريجيت : لا ... من .. توني ... تقول .. أخبرك بماذا .

بيير : لقد اتضح الآن كل شيء .. أنت مخدرة ... ولذلك سقط منك قناع الكذب والخداع .

بريجيت : ما هذا الذي تقوله .

بيير : أقول إنني عرفت الآن انك أنت وصديقي الذي يدّعي الاخلاص ... تخونان الثقة التي وضعتها فيك وفيه ... ولا يسلم الشرف الرفيع من الأذى حتى يراق على جوانبه الدم .

(مؤثرات) فتح الدرج .

بريجيت : (في خوف) ماذا ستفعل ؟

بيير : سألجأ إلى هذا المسدس لكي أريح نفسي الغاضبة من هذا الحزن الذي يقتلها .

بريجيت : لا تجن يا بيير ... أنا أحبك ...

بيير : كاذبة ... خائنة ...

(مؤثرات) طلقات نارية .

بيير : خذي هذه الطلقات في قلبك الخائن أيتها الفاجرة .

بريجيت : (تتألم) آه ... قتلتني ..

التمثيلية تستغني عن هذا المط تماماً ... وتحترم المشاهد أو المستمع .. وتعامله بمجرد الإشارة مصداقاً للمثل المعروف الذي يقول :

وكل لبيب بالإشارة يفهم .

فقد اكتفى النص بالإشارة ... والإشارة جاءت عن طريق تكرار الحديث عن حكاية السيارة الحمراء السبور الصغيرة ... وفتح الدرج .. فهم العلاقة الخبيثة وتحرك غضبه فقتل .

* * *

والآن أمسك قلمك وجرب قدرتك على أن تجعل من هذه الفكرة — التي لا تصلح لأي إذاعة عربية لأنها تناقش موضوع الخيانة الزوجية بشكل غير محبب ..

اكتب منها تمثيلية إذاعية ... ثم تمثيلية تليفزيونية ..

لست مضطراً إلى أن تكتب هذه الفكرة بالذات .. إن لم تعجبك فابحث عن فكرة أخرى اكتب لها تمثيلية إذاعية وتمثيلية تليفزيونية .

ولكن ....

إذا كانت هذه الفكرة قد استهوتك مع إحساس بأن واضعها قد كلفتها .. ولخصها تلخيصاً شديداً أخل بالمتعة التي كان من الممكن أن يقدمها للمستمع أو المشاهد لو أنه أطال فيها .. ومط فيها وجعلها حلقات طويلة ...

إذا كان هذا تفكيرك فهذا المقال ليس موجهاً إليك ... فأنت تحتاج إلى مقال آخر يكون عنوانه :

(المنفاخ ... خلف الميكروفون والشاشة)

يقدم لك فيه أصول «النفخ» في العمل الدرامي ... بحيث تعرف كيف تجعل من «الحبة» «قبة» ... وكيف تأتيك الفكرة الصغيرة فتجعل منها شيئاً «متخلفاً عقلياً» يستغرق ٣٠ حلقة .

ولن أبحث عندئذ عن ناشر ينشر مقالي الطويل .. بل سيتقدم تجار الأحذية ومزيلات رائحة العرق لينشروا هذا المقال في شكل كتاب رائع مليء بالصور الملونة للمسلسلات التي ينتجها التليفزيون منفوخة متورمة ... لتحمل اعلاناتهم .

* * *

ما هي «الدراما» ؟

في كتب المسرح ... وغيرها .. ستجد عشرات من تعريفات الدراما ...

ولكن دعني أقدم لك هنا تعريفاً بسيطاً يستطيع أن يكون مقياساً بسيطاً تستطيع به أن تعرف الفرق بين القصة الفنية ... وبين الحواديت الملفقة .. التي غالباً ما تكون هي بضاعة المهلهلات .

أنت تعرف «المشعوذ» الذي يعرض أعماله أمام الجماهير ويطلق عليها المنتفعون شعارات «السحر» و«الساحر» ... و«العرض للألعاب السحرية» .

بعض المشعوذات التي يعرضها أمام الجمهور تتمثل في عرض مجموعة من الأواني الزجاجية التي تحتوي على ماء / لا لون له / ويمسك بيديه

إناءين ويروح يلقي كلمات الشعوذة ثم يسكب محتويات إناء منها في الإناء الآخر ...

وفجأة يصبح هذا الـ «ماء» في لون الدماء وينطلق منها دخان كثيف .

هذه الشعوذة شيء يخطف الأبصار كالحواديت .

* * *

أما إذا وقف أستاذ في معمل كيمياء وقدم مجموعة من الآنية على كل إناء منها اسم المركب الكيميائي الذي يملؤها .. وهو سائل لا لون له ولا رائحة .

وهذا المركب الكيميائي –السائل – مركب من مادة كذا متحدة مع مادة كذا .. يتميز بصفات هذه المادة ... وتلك المادة .. إذا أضفت إليه السائل الآخر من هذا الإناء الآخر ... وهذا الإناء به حامض كذا .. الذي يتميز بالصفات القوية المعروفة .. عندما تختلط هذه المادة بتلك المادة فإن تفاعلاً كيماوياً يحدث في الحال ... تتبادل فيه المواد .. وتتكون مادة جديدة ... وهي مادة كذا .. التي تتميز بلونها الأحمر ...

هذا كيمياء .... علم .

هذا العلم يعرض عليك الصفات الخاصة بكل مادة بحيث تعرف كيف تتصرف تلك المادة عندما توضع في ظروف معينة ... متى تنفصل عن مصاحباتها في المركب الأول وتتصل بالمادة الثانية مكونة تركيباً ثالثاً ... هو ذا اللون الأحمر الذي يطلق دخاناً مكوناً من تفاعل مادة أخرى مع المادة الرابعة ... وهو هذا الذي يبدو كنفخ الغضب .

هذه العملية الكيميائية هي بالضبط العملية التي قدمها المشعوذ .. ولكنها في حالة المشعوذ شعوذة لأنه لم يطلعك على أسرارها الحقيقية ... أما في حالتها الكيميائية .. فهي علم .

الدراما أيضاً علم يختلف عن حدوتة المشعوذ أو المهرج الإذاعي أو التليفزيوني أو السينمائي .

حدوتة المشعوذ هي ذلك الشيء الذي يعطيك أحداثاً متتابعة لا رابط بينها غير خط واه من المصائب التي تقع فوق رأس البطل أو المشاكل التي تقع لأصحاب البطل وأقاربه وأصدقائه ... وينال القسط الأكبر منها شخصية أخرى هي الشخصية التي يحبها البطل ... أحداث كثيرة ومصائب ثقيلة تقع هنا وهناك حتى تأتي الدقائق الأخيرة من الحلقة الأخيرة فإذا بالمصائب كلها تذهب ... ويكتشف هذا الشخص وتلك الشخصية أن كل هذه الأحداث التي وقعت كانت بفعل فاعل حقود ... وتنتهي في الغالب بعبارة «أنا سمعت كل حاجة» أو عبارة «أنا حا اعترف بكل شيء» أو عبارة «أنا دلوقتي فهمت كل شيء وكل حاجة» .... ويضحكان في النهاية .. كما لو أن كل الأحداث التي مرت كانت مداعبات طريفة .. ثم يقعان في المصيبة الكبيرة .

هذه هي الحدوتة ... بضاعة المشعوذ أو المهرج .

أما الدراما فهي تلك القصة التي تعرض عليك الشخصية من الداخل .. كيف تفكر .. وكيف تتصرف .. نفسها مرتبة بالطريقة الفلانية وتملك القدرة أو لا تملكها على التواؤم والتغيير .. وعندئذ عندما تتعرض هذه الشخصية لموقف معين فإنك تكاد تتنبأ بما سوف

تفعله تلك الشخصية المعينة في هذا الموقف المعين .

ثم هذه الشخصية الأخرى .. انها شخصية خائفة ... الخوف صفة من صفاتها الأساسية الغائرة في أعماقها .. وهذا الخوف يدفعها للهروب .

ومن هنا فهي عندما توضع في هذا الموقف فإنها ستختني ... ولا يصح أن يعتمد عليها البطل ...

أما هذه الشخصية الثالثة فقد نشأت وتربت تحت ظروف جديدة وتعلمت كيف تواجه مصاعب الحياة ... هذه الشخصية هي التي تنتصر في النهاية مهما كانت الصعاب التي تواجهها ... فإذا لم تستطع الانتصار في هذه الحالة – فقط – يكون قدرها قد أراد لها شيئاً لا تستطيع الانتصار عليه ... ومثل هذا الموقف الأخير قد يصلح لعمل مسرحي أو سينمائي ولكنه لا يصح أن يقدم في عمل إذاعي أو تليفزيوني يتسلل إلى الناس في بيوتهم .

هذه هي الدراما ...... علم كالكيمياء .

الدراما في كل شيء :

والدراما ليست مقتصرة على التمثيليات والمسلسلات والأفلام والمسرحيات ...

إنها – في رأيي – طريقة تفكير ...

فأنت – إذا تحدثت في أي موضوع واستخدمت الدراما في حديثك ... في منتصف حديثك أو في بدايته أو في نهايته فسوف تجعل هذا الحديث أكثر تأثيراً في متلقيه ...

ولعل أفضل نموذج يثبت ما أتحدث فيه هو الحديث الديني ... فأنت إذا بدأت حديثك الديني بحدث درامي فإن حديثك يستطيع أن يحقق تأثيراً أقوى وأعمق في المستمعين أو المشاهدين .

فعندما ابتدأت إذاعة الشباب إرسالها وضعت في نهاية برامجها حديثاً دينياً أطلقت عليه عنوان «لحظة تنوير» ....

كانت تبدأه بحكاية ... موضوعة بشكل درامي وبعد نهاية «الحكاية» تعلق تعليقاً صغيراً يحقق الأثر المطلوب من الحديث الديني .

حديث ديني :

يروي الحكاية رجل يقول إنه كان مريضاً جداً منذ أسبوعين فقط .... كان مصاباً ببرد شديد جعله غير قادر على الكلام ... وقال إنه ذهب إلى الدكتور عادل .. الذي كشف عليه .. وفيما هو يرتدي ملابسه ... دخلت الممرضة وأعلنت أن مندوب شركة الدواء جاء ... فدعاه للدخول ...

ويطلب الدكتور عادل من مندوب شركة الدواء دواء معيناً غالي الثمن ... ويدفع له ثمنه على أن يحضر له الدواء في علبة من العلب التي تحمل كلمات «عينة ليست مخصصة للبيع» .. ذلك لأن بعض المرضى – يقول الدكتور – يثقون بهذه الكلمات .

ويصف الطبيب الدواء للمريض ويطلب منه أن يعود بعد ١٥ يوماً .

ولما يعود المريض – الراوي – ويكشف عليه الطبيب بعد أن شفي

تماماً .. يحدث شيء آخر تحت عينيه ...

تأتي الممرضة لتعلن أن الأسطى سعد قد وصل فيطلب منها أن تدخله بسرعة ...

الأسطى سعد رجل عجوز ... يرحب به الدكتور عادل باهتمام شديد .. ويطلب منه أن يكرر الدواء الذي سبق أن وصفه له ... وتبدو على الأسطى سعد الصدمة بسبب هذا الطلب ... ويهم بالخروج في بطء عندما يتذكر الدكتور عادل أن لديه «عينة طبية» . وبالفعل يعطيه العينة الطبية فيلهج لسان الأسطى سعد بالشكر لله القادر الذي يعرف حاله ... فإن هذا الدواء غالي الثمن جداً ...

ويخرج الأسطى سعد ... ويلتفت الدكتور للمريض الراوي ... فيجده يحملق فيه في عجب ..

ويتساءل الطبيب : ماذا هناك ؟

ويخبره المريض أنه كان هنا منذ ١٥ يوماً ورأى الطبيب يدفع ثمن الدواء الغالي ويطلب من مندوب شركة الدواء ان يحضر له الدواء في زجاجة مكتوب عليها «عينة ليست مخصصة للبيع» .

ويضحك الدكتور عادل ويقول :

– الأطباء يضطرون أحياناً للكذب ...

ويعلق الراوي ... إن هذا هو الكذب الذي يستحق عليه الثواب من الله .

وتنتهي الحكاية برواية الحديث النبوي الذي يقول :

«طوبى لمن يصنع الخير فيخفي عن يده اليسرى ما تفعله يده اليمنى» .

تعليق سياسي :

في أغسطس عام ١٩٨٠ قدمت إذاعة الشباب تعليقاً سياسياً عن أحداث بولندا ...

ولعلكم تذكرون كيف كانت أحداث بولندا في ذلك التاريخ .. قبل تدخل الاتحاد السوفييتي بالرأي ... بحيث إن جيش بولندا قام بما يشبه الانقلاب .. وأعلن الأحكام العرفية .. وقبض على زعماء العمال .. وزعماء التضامن ... وعلى رأسهم فاليسا ...

كانت الأحداث أيامها تتجمع لهذه النهاية التي وقعت .. ترى هل هذه هي النهاية فعلاً أم ان المد سيتبعه جزر ثم مد من ناحية أخرى ؟

الذي أذكره هنا هو بداية التعليق السياسي في أغسطس ١٩٨٠ ... والذي جعل مقدمته بهذا الشكل لأن التفكير الدرامي يحكم كل أشكال المواد الإذاعية .

(كلكم تعرفون ماذا قالت الملكة انطوانيت عندما قيل لها إن الشعب جائع لا يجد الخبز ليأكله ... قالت ملكة فرنسا :
« فلماذا لا يأكل بقلاوة »)
حدث هذا في انجلترا منذ أكثر من مائة عام .
أعاد التاريخ نفسه بالأمس القريب في بولندا ...

فقد كان إدوارد جيريك زعيم الحزب الشيوعي هناك يركب سيارته الفاخرة السوداء ويمر في أحد طرقات العاصمة البولندية عندما وجد مئات العمال يقفون منذ الساعات الأولى من الصباح في طابور طويل أمام بعض حوانيت الطعام والخبز .

أخرج الزعيم الشيوعي الكبير رأسه من نافذة سيارته وصاح في العمال :

– أيها الرفاق ... سأرسل لكم العون حالاً .

وانطلق بسيارته .

وبعد ساعة أو بعض ساعة وصلت للعمال شاحنات كبيرة تحمل :

(مقاعد وثيرة يجلسون عليها بدل وقوفهم في الطابور .)

بهذه المقدمة تسلل كاتب التعليق السياسي لإذاعة الشباب إلى تفسير الأحداث السياسية في بولندا والتوقعات المنتظرة ... استقالة جيريك .. وتدخل الاتحاد السوفييتي .

خطاب من مستمع :

إذا كنت قد سبق أن قلت هذا الكلام الذي أقوله الآن ... فاعذرني .

ألتمس لي عذراً أنني قد أكون كارهاً للاستماع إلى الأغنية المكررة .. والحوار والمواقف المكررة في المهلهلات ... ولكنني بالضرورة تأثرت بالقطرات التي تسللت إلى نفسي فأصبحت أكرر الأشياء .

أنت – إذا كتبت خطاباً لصديق لك وعرفت كيف تجعل هذا الخطاب ظريفاً طريفاً .. يؤثر في صاحبك ... كما أنك وضعت في هذا الخطاب وصفاً جيداً لتجربة مررت بها .... فأنت – بهذا الخطاب – قد صنعت شيئاً بنّاء لصديقك .

أنت نقلت إليه تجربتك ... فأضفت إليه علماً جديداً ... وفهماً

لموضوع هذه التجربة .. فأنت قد سلحته بسلاح جديد يساعده على حسن السير في الحياة .

والخطاب هنا .... لشخص واحد .. هو الخطوة الأولى .. تستطيع أن تخطو خطوة ثانية فتجعل هذا الخطاب :

«رسالة إعلامية»[1]

تنقل به تجربتك الخاصة هذه إلى ملايين المستمعين ... مرة واحدة .

وتكون قد نقلت تجربتك إلى ملايين المستمعين في رسالة إعلامية يتلقونها كلهم في وقت واحد ..

يتلقى برنامج «ما يكتبه الشباب» عدداً يتراوح بين عشرة خطابات وعشرين خطاباً كل يوم ... الغرض الأساسي من تلقي هذا العدد هو أن الشباب المستمعين يرغبون في الاستماع إلى أغنيات معينة ...

ولكن هذه الخطابات التي يتلقاها هذا البرنامج تختلف اختلافاً كاملاً عن الخطابات (آلاف الخطابات) التي تتلقاها برامج «ما يطلبه المستمعون» في كل البرامج الأخرى .

السبب في هذا الفرق الكبير هو أن إذاعة الشباب تشترط في الخطابات التي يتلقاها البرنامج شرطاً واحداً :

أن يتضمن الخطاب مادة ما تستحق أن تُذاع .. وفي مقابل هذه المادة .. يقدم البرنامج للمستمع ما يطلبه من أغنيات ويهديها لمن يحدده من أصدقاء .

---

(١) في مقال تال أرجو أن أستطيع التحدث عن «الرسالة الإعلامية» التي يجب أن يعدها «رسول إعلامي» .. ويرسلها إلى المستمع أو المشاهد .

في صيف عام ١٩٧٩ ... وكان صيفاً حاراً جداً .. تلقى البرنامج خطاباً من مستمع .. لم يذكر المستمع اسمه – وكان هذا أمر غريب .. ولكن تفسيره لعدم ذكر اسمه كان دليلاً على تمتعه بحس فني جيد ... لا يتمتع به كثير من العاملين في حقل الإعلام ...

قال مفسراً :

«إن التجربة التي مررت بها وهزتني لا يجب أن تنسب إلى شخص بعينه .. انها يجب أن تصبح ملك الناس جميعاً ... وبالذات ملكاً للشباب في هذا البلد ... وفي كل بلاد العرب ... لذلك أرسل هذا الخطاب إلى إذاعة الشباب ... ولذلك لا أذكر اسمي ولكنني سوف أقدم لإذاعة الشباب اختباراً في الذكاء ... سأعرف منه إن كنتم أذكياء فعلاً ... أم انكم تدّعون الذكاء .. أحب أن أستمع إلى رد لهذا الخطاب في حلقة الأحد القادم .. الموافق كذا / كذا ...» .

وروى المستمع المجهول تجربة ما كدنا نقرأها حتى حولناها إلى خبير من خبراء الإعداد الدرامي بإذاعة الشباب الذي حول الخطاب إلى مادة درامية قصيرة استغرقت خمس دقائق ...

اقرأ السطور التالية بأذنيك :

صوت الشاب : أعزائي الشباب ... يسرني أن أنقل إليكم تجربة وقعت لي في الأسبوع الماضي ... كنت أقود سيارتي القديمة في وسط المدينة ... ومعي ... كانت زوجتي .

(مؤثرات صوتية) أصوات طريق عام ... سيارات ...

الزوجة (تزفر) يا ساتر ... الدنيا حر قوي .

الشاب (يزفر) أنا حاسس إني حا اولع .. هدومي بقت نار ...

الزوجة : بص للعربية الكبيرة اللي جنبك دي .

الشاب (يضحك) آه ... مكيفة ... الراجل قافل على روحه الشبابيك ... ومتمتع جوه .... ومش حاسس بالحر .

الزوجة : امتى حا يبقى لنا عربية مكيفة كده .

الشاب : نعمل بيها ايه ؟ ... دول خمس ست أيام حر بالشكل ده طول السنة في مصر .

الزوجة : لا ... السنة دي زادوا قوي .. شايف الشاب اللي ماشي في وسط الشارع ده بيتنطط ... ايه ده ؟ هدومه فيها مكيف .

الشاب : (يضحك) أيوه حقيقي ... (فجأة في دهشة) الله !! .. عارفة ده مين ؟ . دا ضياء (منادياً) يا ضياء ... ضياء .

الزوجة : ضياء صاحبك المزارع ؟

الشاب : أيوه .. هو ... (صائحاً) يا ضياء .

الزوجة : سمعك وجاي ... لو كنا راكبين العربية المكيفة اللي قزازها مقفول ما كانش سمعك .

الشاب : (يضحك) افتحي له الباب من ورا ..

(مؤثرات) صوت فتح باب سيارة ... حركة إغلاق باب السيارة .

الشاب : أهلاً يا ضياء ... ازيك .

ضياء : أهلاً بيكم ..

الشاب : دي مراتي هي اللي لفتت نظري لك .. قالت شوف الراجل اللي عمال بيتنطط كأنه مش حاسس بالحر .

ضياء : حر ... حر ايه ؟

الشاب : (ضاحكاً) حر ايه ؟ ... دي يظهر معاها حق .. يمكن مركب في هدومك مكيف .

ضياء : (يضحك) .

الزوجة : على العموم الأستاذ ضياء متعود على الحر ... طول النهار واقف تحت الشمس يزرع ويقلع .

ضياء : حر ايه يا جماعة ... انتو حاسين بحر ؟

الزوجة : احنا حانموت من الحر ..

ضياء : (في عجب) الله ... انتو ما سمعتوش ولا ايه ؟

الزوجة : سمعنا ايه ؟

ضياء : عارفين الحر الطويل ده عمل ايه في القطن ؟ المحصول السنة عظيم عظيم .. بسبب الحر .

الشاب : أيوه حقيقي ... قريت في الجرايد امبارح .

ضياء : فيه ثلاثين مليون مزارع وفلاح فرحانين اليومين دول .. كبار وشباب وبنات ... وأطفال ... فرحانين لأن آمالهم وأحلامهم اللي مؤجلة من سنين حاتتحقق .... المباني والجواز والتملك ... والغوايش الذهب ... كل الأحلام دي حاتتحقق السنة دي .. لو جمعت سعادتهم وابتسامهم وضحكهم وفرحتهم تلاقيها فرحة تملأ الكون ... بص بص ... بص فوق .. الشمس أهي .. بتضحك هي كمان في السما ... تعرف بتضحك ليه .. عشان الملايين الفرحانين .. هيه كمان فرحانة .. هيه . (صمت) .

الزوجة : (في تأثر) ايه ده يا أستاذ ضياء .. أنت شاعر .
ضياء : أبداً .. أبداً ... الله ! ... أبداً ليه ؟ فعلاً أنا شاعر ..
شاعر بمشاعر الناس كلها ... شاعر اليومين دول بفرح
الناس كلها .. هيه ... لسه حاسين بالحر ؟
(صمت طويل)
صوت الشاب : أعزائي الشباب ... دعوني أؤكد لكم ... أنني
أحسست بابتسامة متسعة سعيدة ... تتسلل إلى قلبي ونفسي ...
وأحسست بملايين حولي يبتسمون في سعادة .. والتفت لزوجتي ..
وجدتها هي أيضاً تبتسم ... وفجأة .. لم نعد نحس بالحر .
ومع هذه الفرحة التي غمرتنا ... وطردت الحر الذي كان يخنقنا
إذا برأسي تمتلئ بكلمات أغنية قديمة جداً كنت أسمعها من أبي
عندما كنت صغيراً .. فجأة وجدت الأغنية حاضرة في ذهني ...
لست أدري كيف ...
وأنا أطلب الاستماع إلى هذه الأغنية التي لا أقول ما هي ..
هذا هو اختباري لذكائكم كما تفعلون مع المستمعين يا إذاعة
الشباب إذا أذعتم الأغنية التي جاءت إلى ذهني في ذلك الوقت ..
فاسمحوا لي أن أشكركم .. أما إذا لم تفعلوا فسوف أرسل لكم جواب
شتيمة .

وأذعنا هذا البرنامج الدرامي القصير المأخوذ من الخطاب الذي وصلنا ... وأذعنا الأغنية التي تصورنا أنها خطرت في ذهن الشاب صاحب الخطاب ... وحتى كتابة هذا الكلام في ١٥ مايو سنة ١٩٨٢ لم يصلنا خطاب الشتيمة .

من هذا اللون قدمت إذاعة الشباب عشرات الخطابات ولعلي أذكر هنا خطاب آخر طريف كهذا الخطاب ...

« أنتم تختبرون ذكاءنا كثيراً في البرنامج اليومي » وقود العقل « فهل تسمحون لي أن أختبر ذكاءكم في برنامج ما يكتبه الشباب » .

أنتم تعرفون أن كثيراً من الأغاني تتغنى بالمحبوب ... وغالباً ما يسمع المحبوب هذه الأغنية أو تلك ويفهم أنها موجهة إليه ...

ولكنني أريد أن أستمع إلى الأغنية الوحيدة التي توجه إلى شخص ... هذا الشخص هو الوحيد الذي لا يفهمها .

وأرجو ألا تقولوا إنها الأغنية التي تتغنى بحب مصر .. أو بحب الوطن عموماً . فإن الوطن هو عبارة عن الحب الذي يكمن في قلوبنا كلنا ... والذي يعنينا كلنا .

والآن أرجو أن تذيعوا لي هذه الأغنية التي طلبتها وتعتبروا بأن هذا الخطاب هو « فزورة » وضعتها لأشترك بها في برنامج « ما يكتبه الشباب » .

وقد أذعنا الأغنية التي طلبها الشاب وأرسل إلينا يشكرنا .. ويهنئنا على ذكائنا .

لو استرسلت في ذكر الخطابات التي قدم فيها المستمعون لإذاعة الشباب لاحتجت إلى كتاب خاص ... وأكتفي بهذا القدر .

ولكن قبل أن أتحدث في موضوع آخر أذكر هنا اسم الأغنية التي أذعناها مع خطاب الشاب الأول .. والأغنية التي أذعناها حلاً لفزورة المستمع الثاني :

الأولى : نورت يا قطن النيل

يا حلاوة عليك يا جميل
اجمعوا يا بنات النيل يلللا
داملوهش مثيل قطننا والله

الثانية : برجلاتك .

اللغة :

الحوار الذي قرأته في المادة الدرامية السابقة أعدّ بالعامية المصرية ... وإذاعة الشباب كانت تذيع بعض موادها بالعامية المصرية ... ولكنها كانت تهتم أكثر باللغة العربية ... لدرجة أنها تقدم برنامجاً نجح مع الشباب المستمعين ...

اسمه «تعال نتحدث العربية»[1]

البعض تساءلوا :

– ما سبب اهتمام إذاعة الشباب باللغة العربية .

لهؤلاء المتسائلين كنت أقول :

– الجامعات الإسرائيلية تقيم مسابقات أدبية كل عام ... مسابقة منها للمواطنين الأصليين «العرب» ... ظاهرة شكلها جميل ... تماماً كما خصص المهاجرون الغربيون للهنود الحمر أرضاً معينة يعيش فيها مواطنو أميركا الأصليون .

ظاهرة جميلة هي الأخرى ... ولكن باطنها شيء آخر ... الشرط

---

(١) بالأمس القريب بلغني أن إذاعة الشباب حالياً .. وهي تحمل اسم «إذاعة الشباب والرياضة» أوقفت إذاعة هذا البرنامج ... (مايو ١٩٨٢) .

الوحيد لهذا العمل الأدبي للمواطنين العرب في إسرائيل .. هو أن يكون العمل الأدبي :

بالعامية .....

يقول المفكرون الإسرائيليون انهم يشرحون النشاط الأدبي للشباب العربي في المنطقة ولكن الحقيقة أن الهدف الذي يقصدونه ويحققونه هو تشجيع تمزيق أواصر اللغة العربية ... التي ظلت تربط الأمة العربية كلها طوال هذه القرون .

والمفكرون اليهود يجيدون الاستفادة من التاريخ ، ويؤكد التاريخ أن اللهجات العامية هي المسؤولة عن انسلاخ كل بلاد الغرب عن اللغة الأم الواحدة «اللاتينية» فتفرقوا كلهم قوميات مختلفة ... وحارب كل منهم الآخر .

وأوضح دليل على هذا هو أن المفكرين اليهود عندما أرادوا أن يجمعوا اليهود الموزعين في أرجاء العالم حول القومية اليهودية أحيوا لغة قديمة جداً ... كانت قد ماتت واندثرت من ألفي سنة .. أحيوا اللغة العبرية فاستطاعوا بها أن يجمعوا اليهود المتفرقين في العالم كله ... ثم جعلوها اللغة الرسمية لإسرائيل ... لأنها كانت – اللغة – البداية الحقيقية لإسرائيل .

من أجل هذا تهتم إذاعة الشباب ... آسف أقصد .. من أجل هذا كانت إذاعة الشباب تهتم باللغة العربية ...

كانت تعمل على ذلك لتذيب إحساس الغرابة التي تحس به بعض الآذان نحو اللغة العربية الفصحى ... كخطوة أولى للحفاظ على اللغة العربية .

اللغة العربية ... هناك مقال تال يحمل هذا العنوان :

عزيزي القارئ :

من أجل هذه الأسباب أدعوك إلى أن تكتب باللغة العربية السليمة .. حينما تكتب للإذاعة أو التليفزيون ... بل أرجو أن تكتب باللغة العربية حين تكتب خطاباً لصديق لك .

أما إذا فضّلت أن يكون جوابك بالعامية لأنك تحبها وتعتقد أنك يجب أن تكون واقعياً في كتاباتك فلا بأس ولكن – أرجوك راعي القواعد الثلاث التالية :

(١) تجنب السوقية في الحوار ... عبارات الداهية والنيلة ... ابتعد عنها .

(٢) من ناحية أخرى تجنب حوار الدكتور طه حسين .. الذي كان يجعل الفلاحة تقول للعمدة في دعاء الكروان «عمت صباحاً يا عمدة» .

(٣) تذكر أن الفن والأدب الذي يدخل بيوت الناس جميعاً متسللاً عن طريق الشاشة الصغيرة يجب أن يرتقي بعادات الناس ولغتهم ... وأن الفن – الذي يدخل للناس عن طريق بيوتهم خلال الشاشة الصغيرة يجب أن يكون منتقى .. لأنك تؤثر في الناس وتجعلهم يتصرفون بالشكل الذي تعرضه عليهم .. الناس على دين إذاعاتهم . فحاول أن تُجمّل الواقع ... لا أن تنقله نقل مسطرة .

نصّ إذاعيّ كامل

ألف ليلة وليلة ... كم أثارت خيالات كثيرة ... في عالم الأمس واليوم .. والغد أيضاً .

وقد أنتجت السينما العالمية والعربية ... والتليفزيونات والمسرح .. والإذاعة .. مئات من الموضوعات التي نقلتها عن «ألف ليلة وليلة» .

ولكن ... أطرف ما أثارته ألف ليلة وليلة ... هو ماذا حدث بعدها ... ماذا حدث في الليلة الثانية بعد الألف .

لن أستطيع أن أعدّ الأعمال التي كتبها مؤلفوها تحت نفس هذا العنوان :

«الليلة الثانية بعد الألف»

ولكن آخر من كتبوا تحت هذا العنوان .. كانوا الأساتذة نجيب محفوظ ونعمان عاشور في برنامج إذاعي أنتجته شركة صوت القاهرة للصوتيات والمرئيات وأذاعته الإذاعات العربية وصوت العرب من القاهرة .

والتمثيلية التي أضعها هنا ... نص إذاعي أعتقد أنه يمثل أفضل الأشكال الإذاعية ... فهو :

(١) يجتذب اهتمام المستمع منذ الدقيقة الأولى .

(٢) يستغل أسطورة شهرزاد التي تعيش في ذهن العالم .

(٣) يناقش موضوعاً من الموضوعات العلمية في العصر الحديث ...

(٤) يخلط بين الأسطورة ... والخيال العلمي .

وأحب هنا أن ألخص آرائي في التمثيلية الإذاعية :

أولاً : أعتقد أنه إذا لم تستطع التمثيلية الإذاعية أن تجتذب اهتمام المستمع من أول جملة فيها فهي ليست تمثيلية إذاعية .

ثانياً : أنها إن لم تَرْوِ موضوعاً طريفاً جذاباً جديداً .. حتى النهاية ... فهي ليست تمثيلية إذاعية .

ثالثاً : أنها إن لم تتسلل إلى عقل المستمع في رفق وتزرع شيئاً بنّاء أو سلوكاً عصرياً فهي ليست تمثيلية إذاعية .

اقرأ تمثيلية شهرزاد ... إلى الأبد !! ليس فقط بعينيك ... بل أيضاً بحاسة السمع عندك ... اقرأها بأذنيك .

شهرزاد ... إلى الأبد

تمثيلية إذاعية

(موسيقى) : شهرزاد كورساكوف .

الراوي : ومرت الألف الأولى من الأيام ، وأوشكت أن تكتمل ثلاثة أعوام وشهرزاد قد امتلأت من كثرة الطعام . وحل نفس الميعاد ... وأقبلت شهرزاد ... واستلقت بجوار الملك شهريار وقد استدار وتكور بطنها ، وامتلأ وتضخم وجهها ...

شهرزاد : (تلهث) مولاي .

شهريار : مالك شهرزاد تلهثين .

شهرزاد : آكل يا مولاي أكلين – لي وللجنين .

شهريار : أنت تلدين يا شهرزاد كالأرانب .

شهرزاد : ليلتف حولك من أولادك الكتائب .

شهريار : حسناً يا شهرزاد ... هذا موعدك .

شهرزاد : وأنا لا أتأخر يا مولاي عن القدوم .

شهريار : هاتي الحكايات ... ماذا حدث في واق الواق ... ومن الذي نام في الجب ثمّ أفاق : وماذا فعل السحرة بالأمير طرموش ... وأي أحلام طلعت فاشوش .

شهرزاد : قصتي اليوم يا مولاي ... قصة عجيبة ... يقولون إنها وقعت في مستقبل الزمان .. وقادم العصر والأوان ... والقصة تقول :

شهريار : مهلاً يا شهرزاد .

شهرزاد : مولاي .

شهريار : ما بالك اليوم لا ترعين اللغة وقواعدها .. هل استخففت بعقلي الذي ملأته بسيرة العفاريت ؟

شهرزاد : عفواً يا مولاي .

شهريار : تقولين وقعت في مستقبل الزمان ... مستقبل الزمان مستقبل ووقعت فعل ماضي يا شهرزاد ..

شهرزاد : مولاي ... أحلام الناس الطيبين وقعت في رؤى النوم .. يقولون عنها انها «وقعت» ولكنها سوف تقع في المستقبل .

شهريار : هيه .. حسن .. أكملي قصتك .

شهرزاد : مولاي ... بعد أن ضاق سندباد بحياته الهادئة .. وعيشته الناعمة .. هزه الشوق إلى الرحلات .. وما فيها من مغامرات .. وكان قد جهز تجارة كبيرة .. ملأها ببضاعة كثيرة .. أقمشة ملونة من الهند .. وحريراً رقيقاً من السند .. وعطوراً تفوح منها ريح الشرق .. وخناجر وسيوفاً تلمع كالبرق ، جَمع الزاد والزواد مع تجارته .. وانطلق في البحر كعادته ..

(مؤثرات) : صوت البحر والأمواج ..

شهرزاد : وسار أياماً في البحر .. حتى أكمل ليال عشر ..

والأمواج هادئة .. والرياح مواتية .. ثم جاء صباح جديد وعلى الأفق البعيد .. أبصر الملاحون جزيرة ..

(مؤثرات) : صوت البحر والأمواج ..

صوت : (ينادي من بعيد) جزيرة بعيدة على اليمين يا سيد سندباد .

سندباد : (ينادي) على بركة الله اتجه إليها لنهبط عليها ..

صوت : (ينادي من بعيد) أمرك يا سيد سندباد ..

صوت : (ينادي من بعيد) جزيرة أخرى على اليسار ..

سندباد : جزيرة أخرى على اليسار .. (ينادي) أيهما أكبر يا قائد السفينة .

صوت : (ينادي من بعيد) كلتاهما كبيرة جداً يا سندباد .

سندباد : اتجه إلى أقربهما اذن .

صوت : (ينادي من بعيد) .. أمرك يا سيد سندباد ..

(مؤثرات) : زوابع في البحر .

سندباد : ما هذا ؟ ... البحر يهيج فجأة ونحن بين الجزيرتين ..

(مؤثرات) : رعد وهياج . ورياح .

صوت : الأمواج تتقاذف السفينة .

سندباد : ارس بالسفينة على أقرب جزيرة .

صوت : (صائحاً من بعيد) لا نستطيع يا سيد سندباد .. أمواج عالية كالجبل تشدنا إلى جزيرة وأمواج أخرى تشدنا إلى الجزيرة الأخرى لا نستطيع توجيه السفينة ألى أي من الجزيرتين ..

(مؤثرات) : يرتفع الموج والرعد .

شهرزاد : (تروي) وكلما قذفت موجة كالجبل بالسفينة إلى ناحية الجزيرة الكبيرة إلى اليمين حتى تلطمها موجة أخرى كالجبل وتوجهها إلى الجزيـرة الكبيرة إلى اليسار وتصارعت الأمواج تعبث بالسفينة التي ما لبثت أن تحطمت في وسط الأمواج ..

صوت : البضاعة تغرق يا سيد سندباد ..

سندباد : لا تهم البضاعة .. لا أهمية الآن إلا أرواحنا .. كل واحد منكم ينقذ نفسه كل واحد منكم ينقذ نفسه ..

(مؤثرات) : الأمواج ..

شهرزاد : وجاءت موجة عظيمة خطفت سندباد من السفينة وألقته في البحر فجأة .. وامتدت يدا سندباد تبحث عن القشة المشهورة فخبطت صاري الشراع وتشبث بها الشجاع وصار الموج يرفعه ويحطه حتى كاد يحطم وسطه .. وما لبث سندباد أن فقد الأمل في النجاة وسلم أمره لله ..

(مؤثرات) : صوت هليكوبتر ..

سندباد : (يحدث نفسه) ما هذا ؟ .. طائر يحوم في السماء .. ويهبط فوقي .. انه طائر لم أر مثيلاً له في رحلاتي السابقة .. انه ضخم جداً .. أكبر بكثير من العنقاء ومن طائر الرخ .. يهبط فوقي .. له جناح واحد يلف فوقه .. وهذا الصوت الفظيع الذي يصدره .. لعله يضحك وهو يراقبني أغرق .. ما هذا ؟ إنه يلقي بحبل

من بطنه .. والحبل يهبط .. يهبط حتى يصل إليّ إنه ليس حبلاً فقط انه سلم مجدول من حبال .. هيه .. هيه .. أمسكت به أصعد إليه .. هيه أضع رجليّ على السلم .. هيه .. الحمد لله ..

(مؤثرات) : صوت الهليكوبتر ..

(تروي) : وبالسلم المجدول تشبث سندباد وهو يشكر الله رب العباد ، حتى وصل إلى بطن الطائر الكبير .. وشعر بيد تجذبه وتجلسه على مقعد وثير والتفت حوله في عجب فوجد نفسه في شيء كالجب .. كل شيء فيه كالحديد يلمع كالجديد .. وبجواره رجلان على مقعدين يجلسان أمامهما آلات دقيقة ومقابض فريدة .. داس الواحد منهما على زرار فزمجر الجناح اللفاف وطار .

شهريار : ما هذا يا شهرزاد ..

شهرزاد : ماذا يا شهريار .. ؟

شهريار : هذا الطائر .. انه ليس الرخ .. وليس العنقاء .. يهبط منه سلم مجدول من حبال .. يركب في بطنه رجال .. هذا خيال في خيال ..

شهرزاد : مولاي .. اني أروي لك القصة كما هي .

شهريار : ولكن هذا غير معقول ..

شهرزاد : مولاي .. رويت لك من قبل حكاية الحصان الطائر .. انه شيء يشبه هذا الحصان .

شهريار : حسناً .. حسناً .. أكملي قصتك (تنهد في شيء من الضيق) ..

شهرزاد : انطلق الطائر الحديد أسرع من الجن الشديد .. حلق عالياً في السماء وراح فوق الجزيرتين وجاء في خفة حوت يسبح في الماء .. ثم اتجه كسهم انطلق من قوس قوي مرق .. فوصل إلى وسط الجزيرة اليمين .. وابتدأ يشق الهواء كالسكين .. وهبط على أرض الجزيرة .

(مؤثرات) : هبوط الهليكوبتر ..

شهرزاد : وبعد قليل وجد سندباد نفسه في حجرة كبيرة فيها آلات كثيرة .. والتفّ حوله أطباء يفحصونه .. وآخرون يغذونه .. حتى استعاد هدوءه .. وبدأ يفكر فيما حوله . واقترب منه الرجلان يبتسمان وانطلقا يتحدثان .. ولكن سندباد لم يفهم لسانهم .. ولم يدرك ما يعنيه كلامهم .. ثم رآهم يتهامسون فيما بينهم .. ثم يقبلون عليه فيقدمون له مشروباً حلو المذاق .. ما إن ذاقه حتى نام .. وما أفاق .. ولما استيقظ من نوم طويل كالدهر .. وجد نفسه مستلقياً على الظهر .. فوق محفة تلمع يرتدي فوق رأسه قلنسوة مصنوعة من سلوك كخيوط العنكبوت .. وهذه الخيوط تتصل بآلات كثيرة تدور وتبرق ثم يسمع أصواتاً تقترب منه ..

(مؤثرات) : آلات الكترونية .. وباب يفتح ..

رجل ٢ : (من بعيد) أرجو أن يصدق ظنك .

رجل ٢ : أنا متأكد .. انه يبدو متوقد الذكاء .

رجل ٢ : (يقترب) سنرى الآن .. ها هو قد فتح عينيه ..

رجل ١ : (قريباً) ويحملق فينا في ذهول .. ماذا بك يا هذا ..

سندباد : (في ذهول) .. انني أفهم لسانكم الذي تتحدثان به ..

رجل ١ : وتتحدث إلينا به ..

سندباد : نعم .. ولكن كيف ..

رجل ١ : تلقيت درساً مركزاً للغتنا أثناء نومك ..

سندباد : كيف هذا ؟ .. العلم يتلقاه الإنسان وهو مستيقظ .

رجل ٢ : وأحياناً يستطيع بمعونة بعض الآلات أن يتلقاه وهو نائم ..

سندباد : هذا أمر عجيب ..

رجل ١ : (في دهشة) .. (عجيب) !.. يبدو أنك لم تزر جزيرتنا من قبل ..

سندباد : لم أزرها .. ولا الجزيرة المجاورة .. إلى اليسار ..

رجل ٢ : (في عنف) اسمع ..

سندباد : ماذا ؟

رجل ٢ : لا تذكر الجزيرة المجاورة .. إنها جزيرة أعدائنا ..

سندباد : أعدائكم ..

رجل ٢ : وأنت رجل محظوظ اننا استطعنا أن ننقذك من الغرق ولم ينقذوك هم .

سندباد : لست أفهم .. لو أنكم لم تصلوا إليّ بهذا الطائر

العجيب .. واستطاعوا هم أن ينقذوني .. أكنت عندئذ أكون سيئ الحظ ..

رجل ٢ : بالفعل .. لو لم ننقذك نحن لكان من الأفضل بالنسبة لك أن تموت غرقاً .

سندباد : يا إلهي ... لماذا ؟

رجل ٢ : نحن عندما أنقذناك أطعمناك ورعيناك وطببناك ثم علمناك لساننا .. أما هم لو كانوا أنقذوك لجوعوك وأمرضوك ومسحوا مخك ..

سندباد : مسحوا مخي .. كيف ؟

رجل ٢ : بمثل هذه الآلات التي علمناك بها كانوا يقدرون على مسح كل ما في ذهنك من علم ومعرفة .. ولجعلوا لسانك أبلهاً .

سندباد : يا خفي الألطاف .. الحمد لك أن كتبت لي النجاة .

رجل ٢ : أرأيت حسن حظلك العظيم الذي جعلنا نسرع لنجدتك .

سندباد : شكراً لكما ..

رجل ١ : يكفي هذا الحديث ودعونا ندخل في المهم ..

سندباد : هل هناك شيء أكثر أهمية من انقاذي من الموت ؟

رجل ١ : نعم .. نحن نحتاج إليك ..

سندباد : تحتاجون إليّ .. ألهذا أنقذتموني ؟ ..

رجل ١ : كلا .. كلا .. هذا موضوع آخر .. والآن .. نبدأ بأن نعرف اسمك .

سندباد : اسمي سندباد ..

رجل ١ : حسناً يا سندباد .. اننا كنا نبحث عن رجل ثالث يأتي معنا في رحلة . هل تحب الرحلات ؟

سندباد : (في سرور) .. الرحلات .. ان الرحلات هي كل حياتي .. وقد زرت كل بلدان العالم في رحلاتي السابقة ، وعرفت كل المغامرات وكل الأهوال ..

رجل ١ : ولكنك لم تزر المكان الذي ستزوره في رحلتنا .. هذا أمر لا شك فيه فإننا نعرف أسماء كل الذين زاروه .. وهم عدد قليل وليس فيهم سندباد أربعة أشخاص على وجه التحديد .. ونحن سنكون رقم خمسة وستة وأنت رقم سبعة .. رقم سبعة .. رقم سبعة رقم محظوظ ..

سندباد : أي مكان هذا ؟

رجل ١ : القمر .

سندباد : بلاد القمر .. لقد زرتها في رحلاتي ..

رجل ١ : كلا .. ليست بلاد القمر . القمر نفسه .

سندباد : القمر .. الذي يظهر في السماء في الليل .. ويكتمل في الليلة الرابعة عشرة من كل شهر .

رجل ١ : هذا هو فعلاً ..

سندباد : وكيف سنرقى إلى هذا القمر ..

رجل : لقد أعددنا سفينة كبيرة .. ضخمة يركبها ثلاثة .. وكنا فعلاً ثلاثة ولكن واحداً منا أصيب بمرض الحصبة الألمانية .. ولا يستطيع أن يأتي معنا إلى الرحلة وأنت

ستحل محله .. هيا بنا .. لترتدي ملابس السفر إلى القمر ..

(مؤثرات) : حركة ..

شهرزاد : وأخذوا سندباد وقادوه وللسفر أعدوه .. ارتدى حلة غريبة أو هم ألبسوه : غطاء ثقيلاً يغطي رأسه .. وأسلاكاً هنا وهناك وأنابيب ذات أزرار ومفاتيح .. سألهم ما هذا .. قالوا هذه ملابس رحلة القمر وحملتهم عربة تسير بلا خيل حتى وصلوا إلى وسط ميدان كبير .. وفي وسط هذا الميدان كانت تقف السفينة ..

شهريار : شهرزاد ..

شهرزاد : ماذا يا مولاي ..

شهريار : سفينة تقف في وسط ميدان على الأرض .. السفينة في البحر يا شهرزاد ..

شهرزاد : هذا نوع خاص يا مولاي من السفن .. لرحلة القمر .

شهريار : ويرتدي ملابس خاصة بالقمر .. هل لكل رحلة ملابسها .. وما هي العربة التي تسير بغير خيل يا شهرزاد .. تستخفين بعقلي يا شهرزاد ..

شهرزاد : هكذا تقول القصة يا مولاي .

شهريار : (يتنهد) .. حسن .. أكملي .. يا شهرزاد .. امضي في قصتك .

شهرزاد : أمر مولاي ..

كانت السفينة تقف في وسط الميدان .. وركبوا إليها

في محفة ترفعهم وركب ثلاثتهم في بطن السفينة ..وأغلقت أبوابها وفجأة سمع سندباد صوتاً يهمس في أذنه ..

صوت : (فل) .. هل كل شيء على ما يرام ؟

رجل ١ : (فل) كل شيء على ما يرام .

صوت : (فل) استعدوا لانطلاق السفينة إلى مدار حول الأرض .

رجل ١ : (فل) نحن على استعداد .

صوت : (فل) ابدأ العد التنازلي .

رجل ١ : (فل) العد التنازلي .. – ١٠ – ٩ – ٨ – ٧ – ٦ – ٥ – ٤ – ٣ – ٢ – ١ – .. صفر .

(مؤثرات) : اشتعال الوقود ..

شهرزاد : وما كاد الرجل ينطق بالصفر حتى أحس سندباد باهتزاز عظيم .. ثم أحس كأن يد مارد أمسكت بالسفينة وطوحتها في السماء ..

سندباد : (فل) ما هذا ؟ .. ما هذا ..

رجل ١ : (فل) اهدأ يا سندباد .. هذه صواريخ الدفع تدفع السفينة إلى الفضاء .

سندباد : (فل) فضاء .. قلت إننا سنذهب إلى القمر ..

رجل ١ : ألم تك تعلم أن ما بين الأرض والقمر فضاء ..

سندباد : كلا .. لم أك أعلم ..

رجل ١ : اذن فهناك أمامك أشياء كثيرة تتعلمها ..

(موسيقى) : الكترونية انتقالية .

شهرزاد : (تروي) واستمرت السفينة تصعد في طريقها ساعات

طويلة .. وفي اذن سندباد تجري اتصالات غريبة بين أصوات الملاحين زميليه وأصوات أخرى على الجزيرة .

سندباد : من .. من الذي يخاطبني في أذني .

رجل ٢ : انه أنا زميلك في السفينة بجوارك .. أنت وزميلي الآن ستنامان وسأبقى متيقظاً ثم أنام أنا وتستيقظ أنت ..

سندباد : نتناوب الحراسة ..

رجل ٢ : نعم .. فنحن سنصل إلى القمر بعد مسيرة ثلاث ليال في الفضاء هيا .. نم أنت الآن ..

(مؤثرات) : الكترونية انتقالية .

شهرزاد : (تروي) وبعد ساعات استيقظ سندباد .. وكان عليه أن يفتح عينيه وأذنيه لكل شيء .. وبعد ساعات أخرى كانت فترة أحد زميليه ليقوم بالحراسة .. وعاد سندباد ينام .. وفي نومه اهتزت السفينة هزة قوية وسمع صوت دوي عظيم أيقظه في الحال من نومه ..

(مؤثرات) : انفجار ..

سندباد : (مفزعاً) .. ماذا .. ماذا حدث ؟ .. ما هذا ؟ .. السفينة أظلمت ماذا حدث ؟

رجل ١ : أسكت يا سندباد .. ودعني أخاطب المراقبة الأرضية ..

صوت : ماذا حدث عندكم ؟

رجل ١ : انني لا أحب أن أقول هذا ولكن يبدو ان إحدى وحدات القوة في السفينة قد تعطلت ..

صوت : لماذا .. ماذا حدث ..

رجل ١ : لا أدري .. حدث انفجار كبير هز السفينة .. لا أدري هل هو انفجار داخلي من الضغط الداخلي أم اصطدام أحد النيازك .

سندباد : (يختنق) ..

رجل ٢ : (يختنق) ...

رجل ١ : (يختنق) ..

صوت : ماذا حدث ؟

سندباد : لست أستطيع التنفس .

رجل ١ : نختنق .

رجل ٢ : فرغ الهواء ..

رجل ١ : افتح خزان الهواء الثاني .

رجل ٢ : لا أستطيع أن أصل إليه .

رجل ١ : سندباد .. افتح خزان الهواء الثاني .

سندباد : أين .. ؟

رجل ١ : تحسسه بيدك .. ودس عليه .

سندباد : لا أعرف أين هو .. افتحوا الباب ليدخل علينا بعض الهواء من الخارج .

رجل ١ : أنت مجنون .. لا يوجد هـواء بالخـارج .. نحن في الفضاء ..

سندباد : هيه .. هيه .. هذا هو .. أدوس عليه ..

الثلاثة : (يتنفسون) ..

سندباد : الحمد لله ..

صوت : (فل) يا رواد السفينة . احسبوا الهواء الباقي عندكم ..

رجل ١ : انتظر .. حتى أوقد البطاريات الصغيرة .. فقد توقفت البطاريات الكبيرة عن العمل هيه .. هذا هو عداد خزانات الهواء .

صوت : كم بقي لديكم من هواء ..

رجل ١ : ما يكفينا لخمسين ساعة .. ما يكفي ثلاثتنا .. وسأبدأ الآن في العودة إلى الأرض .. (ينطلق صاروخ التوجيه إلى الأرض) .. وأرجو ألا يكون الصاروخ قد أصيب بعطب من الانفجار .. سأطلق صاروخ العودة إلى الأرض ..

(مؤثرات) : اشتعال صاروخ ..

شهرزاد : (تروي) وانطلق الصاروخ وهز السفينة .. والركاب الثلاثة فيها رهينة وصاح صوت من المراقبة الأرضية يقول إن السفينة غيرت اتجاهها وعدلت إلى الأرض مسارها وان كل شيء يسير على ما يرام .

سندباد : (فل) كيف عرفوا أن مسار السفينة اتجه إلى الأرض .

رجل ١ : انهم يراقبوننا على الرادار ..

سندباد : الرادار .. ما هو هذا الرادار ..

رجل : يا سندباد .. دعك من الأسئلة الآن .. فنحن في موقف حرج والمواقف الحرجة لا تصلح للاستزادة من العلم ..

سندباد : معك حق .. إن لم يستزد المرء من علمه في أوقات حياته العادية الهادئة الوادعة فإنه لا يستطيع أن يستزيد

علماً في أي وقت آخر .. ولكن الإنسان يظن أنه لا يحتاج إلى العلم ما دام يعيش في هدوء ووداعة ولا يحتاج إليه إلا في وقت الخطر .. وفي وقت الخطر لا يستطيع أن يستزيد من العلم .. القرآن الكريم والرسول دعونا إلى التزود بالعلم في كل وقت ولكننا لم نعد نفهم ما قالوه لنا ..

صوت : (فل) انتبهوا يا ركاب السفينة .. انتبهوا إلى المراقبة الأرضية ولا داعي الآن للبكاء على ما فات ..

سندباد : معك حق .. الذي فات مات .. وإذا لم أمت في هذه الرحلة وأعود إلى حياة الدعة والهدوء فسوف أتزود من العلم في كل وقت وآن ..

رجل : اسكت يا سندباد ..

سندباد : سكت ..

رجل : نحن نستمع إلى المراقبة الأرضية ..

صوت : العقول الآلية حسبت الوقت الذي يلزمكم .. انكم ستهبطون إلى الأرض في ستين ساعة .. ستين ساعة ..

صوت : يا إلهي .. الهواء الذي معنا لا يكفينا نحن الثلاثة إلا خمسين ساعة .

صوت : ولكن الهواء يكفي للهبوط إذا كنتم اثنين فقط لا ثلاثة .. (صمت) .

سندباد : اذن فيجب أن يتوقف واحد منا عن التنفس ..

رجل ١ : ان أحداً لم يقل هذا بعد يا سندباد ..

سندباد : ولكنكم ستقولونه .. أليس كذلك ؟

صوت : (فل) العقول الآلية الحاسبة قالته فعلاً ..

رجل ٢ : ليس هناك غير حل واحد ..

رجل ١ : ما هو ؟

رجل ٢ : نقوم باختيار واحد منا يخرج من السفينة ويموت في الفضاء ويكفي الهواء الباقي للاثنين اللذين سيبقيان .

رجل ١ : أنا أقبل إجراء قرعة ..

سندباد : أما أنا فلا أقبل القرعة .

رجل ١ : كيف يا سندباد .. لقد قبلناها ..

سندباد : أنا لن أقبلها .. افتحوا باب الخروج لأخرج أنا ..

رجل ٢ : أنت تخرج يا سندباد .. تضحي بحياتك قبل إجراء القرعة ..

سندباد : أنتما عالمان تفهمان أشياء كثيرة وأنا لا أفهمها .. والذي يفهم ويعلم أفضل وأصلح للحياة من الذي لا يفهم ويعلم .. افتحوا لي الباب لأخرج ..

رجل ١ : ولكنك ستتعلم .. هكذا قلت ..

سندباد : اختارني الموت قبل أن أقدر على اختيار العلم .. افتحوا الباب ودعوني أخرج لقدري .

صوت : افتحوا له الباب .. ليخرج إلى الفضاء .. ان اسمك يا سندباد سيذكره التاريخ .

سندباد : لعل الناس تتعلم من ذكر اسمي .. وتقول إن سندباد هو الرجل الذي علّم العالم أنه عليه أن يختار بين

شيئين .. العلم أو الهلاك .. افتحوا الباب ..

صوت : (فل) افتحوا له الباب .

رجل ١ حسناً .. وداعاً يا سندباد .

سندباد : وداعاً ..

(مؤثرات) : فتح باب الكتروني .

رجل ٢ : هذا باب السفينة قد فتح .

سندباد : وأخرج منه .. إلى الهلاك .

صوت : (فل) انتظر ... انتظر .

رجل : من .. من يتحدث .. المراقبة الأرضية تتحدث ؟ ..

صوت : كلا .. ليست المراقبة الأرضية تتحدث ..

صوت : (فل) أنا هنا من المراقبة الأرضية من الجزيرة الأخرى .. وإلى اليسار .

رجل ٢ : جزيرة الأعداء ..

صوت : انتظر يا سندباد ولا تخرج إلى الفضاء .. لقد أنقذتم سندباد من الغرق في البحر فاسمحوا لنا أن ننقذه من الغرق في الفضاء ..

رجل ١ : ماذا بمقدوركم أن تصنعوا ؟

صوت ٢ : (فل) لقد أعددنا سفينة صغيرة مزودة بهواء كثير سنرسلها بعد لحظات قليلة فتلتقي بكم في مداركم وتزودكم بما يحتاج ثلاثتكم من هواء ولكنني أحتاج إلى الاستعانة بمراقبة الأرض في جزيرتكم لتحقيق هذا اللقاء هل أنتم على استعداد للتعاون .. ؟

صوت ١ : (فل) ولكننا قد نفشل في تحقيق اللقاء ..

صوت ٢ : (فل) هذا صحيح .. ولكننا أيضاً قد ننجح إذا خلصت النيات وتعاونا باخلاص ..

صوت ١ : (فل) إننا في هذه الحالة نخاطر بحياة ملاحينا الاثنين .

صوت ٢ : (فل) فلندع الملاحين يقرران .. ما رأيكما ..

— (صمت) .

سندباد : اتركاني أخرج إلى الفضاء .. لن يقبلا هذه المخاطرة ..

رجل ١ : انتظر يا سندباد .. أنا قبلت ..

رجل ٢ : وأنا أيضاً قبلت ..

صوت ٢ : (فل) عظيم جداً .. ولنر الآن تعاون المراقبة الأرضية إلى اليمين ..

صوت ١ : المراقبة الأرضية على استعداد للتعاون الكامل مع المراقبة الأرضية في جزيرة اليسار لإنقاذ رجال سفينة القمر ومعها سندباد ..

صوت ٢ : السفينة المزودة الهواء لسفينة القمر تنطلق إلى الفضاء لتلتقي بسفينة القمر وتزودها بالهواء اللازم .. بعد عشر ثوان من الآن ١٠ — ٩ — ٨ — ٧ — ٦ — ٥ — ٤ — ٣ — ٢ — ١ — ٠

شهرزاد : وانطلقت إلى الفضاء سفينة تحمل الهواء .. وبعد ساعات حرجة خطيرة اتصلت في اللحظات الأخيرة بسفينة القمر .. وزودتها بالهواء اللازم وتنفس سندباد الصعداء ونظر حوله في السماء .. فرأى السفينة تقترب

من الأرض لا يدري بالطول أم بالعرض .. وبعد ساعات أخرى هبطت السفينة إلى البحر .. وكان في انتظارها سفن مائية كثيرة نقلتهم إلى الجزيرة ..

رجل ١ : حمداً لله على سلامتك يا سندباد ..

سندباد : لن أسلم حقاً حتى أدرس العلم ..

رجل ١ : نرجوألا تنساه حين تخلد إلى الهدوء والراحة والدعة ..

سندباد : أبداً لن أنسى .. أبداً لن أنسى ..

شهرزاد : وعاد سندباد إلى بلده وصار في كل يوم يلتقي بالعلماء يتلقى على أيديهم العلم .. وبعد أن كان يخرج في رحلات بحثاً عن المغامرات تعلم أن مغامرات العلم أحلى وأجمل وأكثر فائدة ومتعة .. مولاي .

شهريار : شهرزاد .. أنت قد جننت .

شهرزاد : جننت يا مولاي .

شهريار : نعم .. ولن أعيش مع امرأة مجنونة تحدثني عن أشياء مجنونة تريد أن تنقل الجنون إلى رأسي ..

شهرزاد : مولاي .. إلى أين يا مولاي ..

(مؤثرات) : خطوات .. فتح باب ..

شهريار : (يصيح) ..يا سياف .

السياف : مولاي ..

شهريار : تعال وأطح برقبة هذه المجنونة التي تحكي لي قصصاً غير معقولة لا تعيش امرأة تستخف بعقلي أبداً .. أطح برقبتها ..

السياف : أمر مولاي ..

(مؤثرات) : مناسبة .

شهرزاد : (تصرخ) مولاي .

(موسيقى) : جملة موسيقية .

الراوي : وبهذا تنتهي الليلة الثانية بعد الألف من كتاب ألف ليلة وليلة وفيها نهاية الكتاب .. وفيها نهاية شهرزاد نفسها ..

(موسيقى) : الختام .

الشَـابُ الذِي اعتَصَم بـبُرُج إيفـل !!

في الثاني عشر من يناير عام ١٩٨٢ وقع في عاصمة فرنسا باريس ـ حدث غريب ... مثير ... عرضه التليفزيون في نشرة الساعة التاسعة في دقيقة واحدة .

شاب فرنسي صعد إلى الأدوار العليا من برج ايفل .. واعتصم هناك يومين ... حاولت جهات كثيرة أن تثنيه عن هذا الاعتصام فرفض ... وفي اليوم الثالث أعلن أنه سوف ينهي اعتصامه إذا سمعوا شيئاً هاماً يريد أن يعلنه للعالم .

وقال الشاب :

– أبي طبيب ... قضى حياته في بحوث علمية حتى توصل إلى دواء يستطيع أن يشفي السرطان ... ولكن الهيئات الطبية في فرنسا ترفض أن تستمع إليه .

هذا الحديث يستطيع أن يهز ضمير العالم كله ... ولكن أحداً لم يسمع مزيداً من أخبار هذا الشاب ... مات الخبر ... وانتهى عند هذا الحد .

كيف ؟ !!!!!

إنني أتصور أنني لو كنت عضواً في الهيئة الطبية ، في المجتمع

الطبي الفرنسي لكنت أسرعت إلى هذا الشاب وطلبت منه أن يوصلني إلى أبيه العظيم ... وأتعرف على الدواء ، وعلى التجارب التي قام بها ، ثم أجند كل المجتمع الطبي لاختباره وإجراء التجارب عليه :

فإذا اتضح أن الدواء يشفي السرطان فعلاً ، فسوف أزف الخبر إلى العالم ...

أو أعلن في أسى وحزن أن هذا الدواء خيال في عقل أخطأ الطريق .. وان كان قلب صاحب هذا العقل عامر بحب الإنسانية .

أما أن يموت الخبر هكذا !!!!!!! فأمر يثير العجب والدهشة ويوحي بشيء واحد مفزع رهيب :

إن الإنسان اليوم يعيش في عالم يحكمه مصاصو الدماء ! .

ومصاصو الدماء يفضلون أن يبقى السرطان متربعاً على عرش الرعب في العالم ... لأنهم مستفيدون .

وفائدتهم كبيرة ... فهم أصحاب المستشفيات المجهّزة بأجهزة علاج السرطان بالإشعاع والكوبالت ، وهم أصحاب المصانع المنتجة لهذه الأجهزة ، وهم الجراحون وأطباء التخدير المعاونون لهم .. وغيرهم من المنتفعين بتربع السرطان على عرش الرعب ... وهم الذين يخشون أن يكتشف أحدهم دواء يشفي هذا المرض فيخفف عن الإنسان آلامه وأوجاعه ومخاوفه وأحزانه .. ويخفف عنهم هم ملايينهم .

لا أستطيع أن أتخيل شيئاً غير هذا .. يفسر موت خبر هذا الشاب وخبر هذا الدواء ... بهذه السرعة ....

وانطلاقاً من هذا التخيل أتصور أن الميكروفونات اتجهت إلى هؤلاء المنتفعين تسألهم عن هذا الحكم بالإعدام بأسفكسيا الخنق ..

فتجد عندهم كلاماً مؤثراً ... جاهزاً مليئاً بالوقار والحكمة :

«نحن نعمل في المقام الأول من أجل صالح الإنسان .. نريد أن نجنبه الوقوع في حبائل الأوهام ، حتى لا يتأخر عن جراحة تنقذ حياته أو عن البدء في علاج بالإشعاع الذري يحفظه سنوات لأهله وأحبائه ... حرام أن نضع هذا الوهم الذي أعلن عنه هذا الشاب فوق برج ايفل ... وهو أمل ميت» .

وكل من يقف في طريق التطور في أي مجال ... لديهم بلاغة خاصة بهم ... ويعرفون متى يرفعون أصواتهم بكلام مزوق جميل منمق حاضر ... يتشدقون فيه بالحديث عن الإنسان وصالحه ... والإنسان الوحيد الذي يعنيهم صالحه ... هم أنفسهم .

* * *

تحركت في ذاكرتي قراءة قديمة طفت على السطح .

منذ عشرين عاماً قرأت هذه الحكاية في كتاب علمي عن الكشف والاختراع .. وكانت الحكاية تكشف سراً قديماً ، وقع قبل أكثر من عشرين عاماً أخرى .

حكاية ضابط بريطاني في سلاح الفرسان سقط من فوق جواده عندما جمح فتحطمت سلسلته الفقرية ... ووضع ظهره في الجبس وأصدر أطباءه إليه الأمر أن يظل طريح الفراش عاماً كاملاً .

كان الضابط يعلم أن جسمه يستطيع أن ينفذ الأوامر ويظل خاملاً لمدة عام كامل ولكن عقله لا يستطيع . انه متيقظ دائماً يعمل طول الوقت ، ولذلك قرر أن يشغل هذا العقل بموضوع .. ويصل إلى إجابة عن سؤال طرحه عقله .

كان الضابط قد تعلم الكتابة على الآلة الكاتبة بطريق اللمس وكان يتساءل : أي اليدين - اليمنى أم اليسرى - تقوم بجهد أكثر في الكتابة ؟

استأجر كاتبات على الآلة الكاتبة من أسرع الكاتبات وأبرعهن ، وأملاهن - على الآلة الكاتبة - مجموعة من الموضوعات المختلفة : مقالات في السياسة ، مقالات اقتصادية ، قصصاً ، موضوعات علمية ، تقارير هندسية ، أخباراً وتعليقات ، روايات بوليسية وغرامية وعنيفة وسياسية ، وخطابات عمل وخطابات غرامية ، ومسرحيات ...

كان يمليهن بسرعة ، ويطلب من الواحدة منهن أن تتوقف عندما تحس بأن يدها - اليمنى أو اليسرى - تعبت .

ومرت شهور ... وخرج بنتائج سجلها ... وكانت النتائج النهائية عجيبة .

اليد اليسرى تتعب دائماً قبل اليمنى ... ليس فقط لأن اليد اليسرى في ٩٥ ٪ من الحالات أضعف من اليد اليمنى . ولكن لأنه في كل ألوان الكتابة المختلفة تقوم اليد اليسرى بجهد يزيد ٢,٥ ٪ عن الجهد الذي تقوم به اليد اليمنى (الأصابع) مع أن العكس هو الذي كان يجب أن يكون ... حيث ان اليد اليمنى وأصابعها أقوى من أصابع اليد اليسرى وتتحمل أكثر .

إذن .... فالحروف الموزعة على الآلة الكاتبة يجب إعادة توزيعها بحيث تقوم أصابع اليد اليمنى في الضرب على الحروف بجهد أكثر قليلاً من أصابع اليد اليسرى .

وأعاد الضابط توزيع الحروف على الآلة الكاتبة بحيث تحقق

النتيجة المرجوة .. وصنع الضابط آلة كاتبة جديدة ، حروفها موزعة حسب هذا الوضع الجديد ، ثم اختار كاتبات على الآلة الكاتبة تحت التمرين ، فدربهن على الآلة الكاتبة الجديدة حتى صرن يكتبن بنفس سرعة الكاتبات اللواتي بدأ بهن ، ثم ابتدأ يمليهن موضوعات مختلفة .. تحت نفس الظروف .

وفي نهاية العام كان قد قام بعمل كبير .. صنع شيئاً جديداً يستطيع أن يفيد الإنسان ، فقد صارت الكتابة على الآلة الكاتبة الجديدة أكثر سرعة وأقل تعباً ... وعندما سمح له الأطباء بمغادرة فراشه ذهب إلى مكتب تسجيل الاختراعات يحمل اختراعه الجديد .. ولما حصل على براءة الاختراع ذهب إلى أكبر شركة في بريطانيا تنتج الآلات الكاتبة ... قابل مديري الشركة ولعله يكون قد قال لهم :

« اسمعوني ... أقولكو ايه »

واستمعوا إليه في عجب شديد ... لم يهتفوا له كما يهتفون للمطربات ولاعبي الكرة واعلانات المشروبات الغازية ، بل بالعكس .. أصيبوا بصدمة .. لأن هذه الفكرة لم تخطر لهم ... وطلبوا مهلة للتأكد من الأبحاث التي قام بها .. وحددوا موعداً للقاء .

وجاء في الموعد المحدد ليصاب هو بصدمة هذه المرة ... كان في استقباله عدد هائل من أصحاب ومديري الشركات البريطانية لإنتاج الآلات الكاتبة .. ومن مدرسي مدارس الآلات الكاتبة ، ومن مؤلفي كتب تعليم الكتابة على الآلة الكاتبة ، ومن رؤساء وأعضاء نقابات الطابعين على الآلة الكاتبة ... وغيرهم وغيرهم ... وقالوا له :

– لقد سمعناك ... وصل صوتك إلينا قوياً واضحاً .. بقي أن تصغي

أنت إلينا .. أنت قدمت في اختراعك ثورة خطيرة سليمة تماماً ، تستهدف صالح الإنسان وتخفف عنه عبئاً من أعباء الحياة .. وقد درسناها وتحققنا من صحة كل النتائج التي توصلت إليها ...

ولكن ...

ولكن ... هل تدرك ماذا يحدث إذا أخذنا بهذا الاختراع الجديد .. ستضيع ملايين الجنيهات .. ستغلق أبوابها ملايين المدارس في أرجاء العالم .. ستعيد ملايين الكاتبات على الآلة الكاتبة التدريب على الآلات الجديدة .. ربما تُفصل آلاف العاملات اللواتي يكسبن عيشهن من هذا العمل ... هذه مجرد أفكار عن الآثار التي تترتب على الأخذ باختراعك .. وقد تكون هناك آثار أكثر خطورة لم نفكر فيها ...

إننا نعلم جيداً أنك تستطيع أن تذهب باختراعك هذا إلى بلد آخر .. إلى اليابان مثلاً ... وتبيعهم اختراعك وتتسبب في انهيار في الاقتصاد البريطاني في هذا المنتج الحيوي فهل تفعل ؟

لم يكن يخطر كل هذا للضابط المخترع ... وللحظات لم يتكلم ... وراح يقلب النظر هنا وهناك حتى تقدم أكبر المجتمعين قدراً وفخامة وتأثيراً ... وسكت الجميع ليتكلم هو :

– اسمع ... نيابة عن الجميع أتحدث إليك .. اننا سندفع لك – الآن – حالاً – مبلغ مليون جنيه في مقابل أن تتنازل لنا عن اختراعك ... سنضع براءة الاختراع ... والاختراع نفسه ... والأبحاث التي أجريتها في خزانة ... نغلقها .. ونلقي مفاتيحها في البحر .. وننساها .. ونطلب منك أن تنساها أنت أيضاً .. ما رأيك ؟

وقع هذا الحادث عام ١٩٣٦ ... أيام كان المليون جنيه ... مليون جنيه ... ووضع الضابط المبلغ في حقيبة .. وأخذه وخرج .. ونسي الأمر ...

وظل هذا الأمر منسياً ... حتى تسرب في نطاق ضيق عندما نشرته بعض الكتب العلمية المتخصصة في براءات الاختراع ، كما سبق أن قلت ... في عام ١٩٥٥ .

ترى هل يتسرب خبر آخر في عام ٢٠١٠ مثلاً يقول إن دواء السرطان الذي اكتشفه أبو هذا الشاب الفرنسي في مطلع عام ١٩٨٢ كان دواء قادراً على تخفيف آلام الإنسان وأحزانه ورعبه اليومي بالقضاء على السرطان ... ولكن المنتفعين بالسرطان وأدوه .

* * *

وفوق برج الجزيرة ... أو برج الكويت

أو

فوق الهرم الأكبر ...

أقف

من أجل الإنسان الذي يقرأ هذه اللغة ويفهمها ...

من أجلك أرجوك أن تتصورني فوق هذا البرج أو هذا الهرم وأصيح ... بأعلى صوتي .

اسمعوني ... أتحدث إليكم ... أنبه إلى خطر السرطان الذي تسلل إلى داخل نفوسنا ... عدو ينفث فينا .. ويحيط بنا .. يفتك ويغتال كل شيء جميل ... ويمزق بداخلنا كل روح عصر العلم الذي نعيشه .

أنتم تسمعون عن السرطان الذي يرعب الإنسان في العالم كله ... اللهم احفظنا منه .

هذا السرطان يفتك بالخلايا البناءة في الجسم ويجعل منها خلايا شريرة مدمرة .. تدمر الخلايا الخيّرة التي تبني الجسم البشري ... فتحولها إلى طاقة تدمير .

كذلك هذا السرطان الذي ألفت النظر إلى وجوده بيننا ... انه سرطان يغتال ويفتك بالنفس البشرية ... في البلاد التي يقرأ أصحابها هذه اللغة ويفهمونها .. أو الذين إذا قرئت لهم هذه اللغة فهموها ! ! ! .

إنه يفتك بسرعة الفهم والإدراك ، والابتكار والخيال ، والابداع .. وسرعة الإيقاع التي تميز العصر الحديث عن عصور التأخر ... ويدمر كل الخلايا البناءة في النفس البشرية .

وهو في نفس الوقت يشجع اللامبالاة ، والبطء والتراخي ، وينمي السذاجة حتى تصل أحياناً إلى بلاهة إنسان الأفيون والقات ... وغياب الوعي .

وهناك منتفعون من هذا السرطان ... يقفون كالصخر الصلد أمام كل من يحاول علاجه ... أو مجرد كشف خطورته وإلقاء الضوء عليه ... وهم يلجأون إلى كل الأساليب المباشرة والخبيثة لخنق أي صوت يرتفع للقضاء على هذا السرطان ... لأن مجدهم وقيمتهم تعتمد على هذا السرطان ....

لأنهم لا يعرفون شيئاً غير إنتاج المسلسلات الممطوطة المنفوخة المصابة بالأورام والتي تصيب الإنسان بأورام التخلف والبطء والتراخي والسذاجة ... وما سبق أن ذكرته من أدواء .. تملأ جيوبهم هذه

الحكايات الممطوطة الهايفة والأغاني المكررة .. بالآلاف والملايين

من أجل هذا تجد لديهم كلمات جاهزة حاضرة يغرقون بها كل من يهاجم سرطانهم ... أو يتعرض له بكلمة نقد .

هذا العدو السرطاني الذي ينفث في داخلنا سمومه زرعه فينا – من زمان بعيد – شيطان أريب هو أذكى شيطان في العالم (الاستعمار).

وبعد أن زال هذا الاستعمار من هنا ومن هناك ظل هذا العدو السرطاني مزروعاً في عقولنا ... ينفث سمومه فينا .. يمزقنا من الداخل دون توقف ... ونحن لا نحس ... بسبب اعتيادنا عليه .

وقد اعتاد الإنسان عبر التاريخ على أمور كثيرة ... لدرجة أنه في حالة أي تغيير في هذا الذي اعتاد عليه قاوم هذا التغيير ... كان قد اعتاد على عبادة الأصنام فلما جاءت عبادات التوحيد والأديان قاومها ... كان معتاداً على السير على الأقدام فلما استؤنست الخيل قاومها ... ولما اعتاد على ركوب الخيل وجاءت العجلة قاومها ... ولما تعود على ركوب العجلة التي يجرها الخيل ثم جاء المحرك البخاري قاومه ... ومع الكهرباء فعل نفس الشيء ولا زال يفعل مع المفاعل الذري ... وسيظل يعتاد على شيء فإذا جاءت رياح التغيير بشيء مختلف جديد قاومه .

هكذا كان الإنسان وسيظل دائماً .

وسيظل المنتفعون يستغلون في الإنسان هذا التعود فيعودوه على ما يضره وهم يدركون تماماً أنهم ما داموا قد تعودوا على شيء فلن يغيروه .

ولهذا عوّد المستعمر أهل الصين على الأفيون ... وعوّد الحكام في

بعض البلاد رعاياهم على القات ، وعوّد بعض الحكام الآخرين شعبهم على الكورة وأم كلثوم والبطء في الغناء .. وعوّد الاستعمار ومن بعده حكام ضعاف الناس على التكرار والمط ... والبطء .

لأن هذا الاستعمار (أذكى شياطين العالم) يعرف جيداً ، وكان يعرف – من زمان – الحقيقة التي أضعها اليوم عنواناً لهذا الكتاب «الناس على دين إذاعاتهم» .. فزرع في تلك الإذاعات أصناماً وبطئاً وسذاجة ليخرج الناس على شكلها .

نعم ... هو الاستعمار .

هل هو الاستعمار ؟

* * *

نعم ... هو الاستعمار الذي ترك حقول الألغام في نفوس الناس تنفجر فيها وتعطلها عن التقدم .

فالاستقلال يعني أن يتقدم الشعب المستقل ويرتقي ويلحق بالدول التي تقدمت ... أما أن يعلن استقلاله رسمياً ويظل معطلاً عن الرقي والتقدم ، فلا معنى لهذا الاستقلال .

وتحضرني الآن بعض النماذج ... وأظنك تستطيع أن تستحضر نماذج أخرى عديدة .

(١) زرع الاستعمار البريطاني عندما كان يسيطر على الصين ... زرع الأفيون .. ولما حمل الاستعمار البريطاني عصاه ورحل عن الصين خلف فيها الأفيون يسيطر على الناس ويعيش بداخلهم كحقل الألغام الذي ينفجر ليمنع أي حركة في سبيل العمل في سبيل الصين وتقدمها ... وظل الأفيون يسيطر على الشعب ويعطله .. ولما

استطاعت الصين أن تتخلص من الأفيون ... استطاعت أن تبدأ الرحلة إلى التقدم والرقي .

(٢) كان الاستعمار يسيطر على السودان ... وكان يعرف أنه لو زود بسبل مواصلات جيدة لاستطاعت السودان أن تجعل كل البلاد العربية لا تحتاج إلى طعام من أي مكان فأرض السودان متسعة الأطراف وصالحة كلها للزراعة ولذلك زرع هناك ألغام التأخر ... في هيئة سبل مواصلات – سكك حديدية ضيقة ... خط واحد مفرد يحتاج فيه القطار أن يسير المسافة كلها ذهاباً ... حتى يستطيع أن يعود مرة أخرى اياباً ... وجعل القضبان ضيقة ... لأسباب عميقة تخطيطية .. سنعرفها الآن :
أولها أن القضبان الضيقة تجعل القطارات غير قادرة على أثقال كبيرة ... وتجعل القطارات تهتز وتقع بسهولة خصوصاً خلال فترات السيول في السودان .. وهي كثيرة .

(٣) وكان الاستعمار يسيطر على مصر ... وكان قد فكر وخطط وعرف أنه يجب أن يفصل بين مصر والسودان ، فإن الاتصال بين مصر والسودان يستطيع أن يجعلهما لا يحتاجان إلى قوة خارجية عنهما ... وغذّى القبليات وغذّى الفرقة ولكنه لم يكتف بهذا ... عندما كان عليه أن يقيم سكك حديدية في مصر جعلها سكك حديدية عريضة ... ذات قضبان عريضة .

لماذا ؟

حتى لا يستطيع القطار السوداني الضيق العجلات أن ينتقل على

القضبان العريضة للقطار المصري ... فكان من نتيجة ذلك أن أصبح الاتصال مستحيلاً .

وأثبت الاستعمار أن يجعل من عجلات القطارات حقل الألغام الذي ينفجر وينسف أي عمل للتقدم والرقي .

جعل من عجلات القطارات الأفيون الخاص بمصر والسودان .

وتستطيع أنت – عزيزي القارئ – أن تضيف إلى هذا الأفيون الاستعماري أفيون آخر زرعه الاستعمار هنا وهناك يعطل به التقدم .

* * *

أفيون الإذاعات

في عام ١٩٢٠ جاء إلى الحياة اختراع جديد .... الإرسال اللاسلكي ... وجهاز الاستقبال اللاسلكي (الراديو) .

انتشر الجهاز في العالم ... وابتدأت محطات الإذاعة في كل أرجاء العالم تذيع مواد مسلية يستقبلها الناس ويتمتعون بها ... كانت تلك المواد من موسيقى وغناء وأخبار وتمثيل وأحاديث تهدف للتسلية من أجل أن يقبل الناس على شراء الأجهزة .. أي أن تلك المواد كلها كانت مجرد إعلانات من أجل دفع الناس إلى شراء الأجهزة .. مجرد إعلانات .

وكانت هذه حال كل إذاعات العالم – انجلترا – فرنسا – ألمانيا – السويد – إيطاليا – وأميركا ... وغيرها من دول العالم المتقدم .. حتى جاء رجل .. رجل واحد في انجلترا ... مهندس اسمه «جون ريث» ... المؤكد أنه لم يكن يتمتع بذكاء وفهم أكثر من المعتاد ... ولكنه

كان ككل العاملين الإنجليز ... كان إذا كلفته بعمل ما فإنه يدرس هذا العمل .. ويفهمه من كل جوانبه . وقد عيّن في عام ١٩٢٧ مديراً للإذاعة .

درس الإذاعة ... ودرس آثارها على المستمعين .. ثم خرج بأن هذه الإذاعة خطيرة الأثر على الناس ... ويجب أن تكون لها فلسفة تحكمها .. وفكر يوجه العمل فيها ..

وكانت فلسفة الإذاعة التي وضعها وابتدأ يدير إذاعته على هديها هي التي وضعها في كلمات قاسية لتكون واضحة للعيان .. قال :

– ليست الإذاعة قواداً يقدم للناس ما يريدون ... انها يجب أن تكون قائداً يقدم للناس ما يصلح به أحوال الناس .

وما كاد جون ريث يعلن عن هذه الفلسفة حتى عرفت بها كل إذاعات العالم وما كادت تناقش هذه الفلسفة حتى اعتنقتها هي الأخرى .. فقد ثبت لها أن هذه الفلسفة هي التي يجب أن تحكم العمل الإعلامي ... هذا الجهاز الجديد لم يكن مجرد لعبة مسلية ... انها جهاز قادر على بناء الإنسان ... كما انه قادر تماماً على هدمه ... ولو ظل كما كان في السنوات الثلاث الأولى جهازاً مسلياً يقدم للناس ما يريده الناس فقط لأصبح جهاز هدم .. أما إذا درس ما يقدمه وأثر هذا الذي يقدمه في الناس واختار فقط ما يصلح حال الناس ... ما يبنيهم ويثقفهم ... ويجعل منهم مواطنين أسوياء صار جهاز بناء لا جهاز هدم .

ومرت السنوات .. ومارست الإذاعات أن تكون هذا الجهاز العظيم

الذي يبني الناس ... كالأم التي تقوم بهذا العمل الشريف ... بناء إنسان صالح .

سنوات طويلة مرت .. حتى جاء اليوم الذي يجب أن يفكر فيه الاستعمار أن يدخل الإذاعة في مصر ... وكان يعرف أن إذاعة مصر هي التي ستكون الإذاعة «الأم» في المنطقة العربية كلها ... ستقلدها كل الإذاعات التي ستنشأ في البلاد العربية الأخرى .. فيجب أن تكون إذاعة مصر هي هذا الأفيون ... هي ذلك «حقل الألغام» الذي تقلده كل الإذاعات العربية ... حتى إذا ما اضطر الاستعمار أن يرحل عن هذا البلد أو ذلك البلد فيكون قد وضع لها ما يكبلها ويمنعها من التقدم والرقي .

وكان أن استدعى الاستعمار خبراءه وناقشوا وخططوا واستشاروا ودرسوا ووضعوا الأسس ... قرروا أن يعيدوا عقارب التقدم الإذاعي إلى الوراء .

قرروا أن تكون الإذاعة المصرية كما كانت إذاعة الـ B.B.C. قبل عام ١٩٢٧ ... أيام كانت الإذاعات تذيع برامج مسلية فقط لتبيع الجهاز الجديد .. قبل أن توضع لها الفلسفة التي سارت عليها كل الإذاعات .

وعلى أساس الإذاعة المسلية دربوا مجموعة من الناس ... ظلوا يسيّرون الإذاعة .. حتى اليوم ... وهم الذين استعانت بهم الإذاعات العربية لتنشئ إذاعاتها ..على أساس أن هؤلاء هم الخبراء .

استطاع الاستعمار أن يزرع في أذهان هؤلاء أصناماً يعبدونها ... ومن أكثر هذه الأصنام إثارة للسخرية هو صنم «أبو الهول» .

جعل الاستعمار تمثال «أبو الهول» شعاراً للإذاعة ... ولا شك

أن العالم كله ضحك على سذاجة مصر ...وسذاجة سكانها .. وهل أنسب ما يوصف به ناس الإذاعة المصرية هو «يا أمة ضحكت من جهلها الأمم» .

فكيف يمكن أن يتصور إنسان عاقل أن يقبل أن يكون «ممثل الصمت المطبق» في العالم – أبو الهول – هو شعار الإذاعة حتى لو كانت إذاعة لا تتكلم .

وأتوقف لحظة هنا لأضع ما جاء في صفحتي ٥٠ ، ٥١ من كتاب «الإذاعة ... وبناء الإنسان» ... وبعدها أعود إلى سياق الكتاب الجديد ... الناس على دين إذاعاتهم :

التقرير السري بشأن إنشاء الإذاعة اللاسلكية للحكومة المصرية :

إنه في اليوم العاشر من يناير عام ١٩٣٤ اجتمع بالقاهرة خبراء وزارة الاستعمار البريطانية لوضع الاسس التي تراعى في إنشاء الإذاعة اللاسلكية للحكومة المصرية التي تنفذها شركة ماركوني تحت إشراف وزارة المستعمرات البريطانية .

وقد قدم المجتمعون الخبراء اقتراحات قيّمة وافقت عليها اللجنة :

١ – يكون «أبو الهول» (ممثل الصمت في العالم) هو شعار الإذاعة اللاسلكية للحكومة المصرية .. على أساس أن مصر معروفة بالأهرام وأبي الهول[١] ... وقد أخذت جريدة الأهرام شعار

(١) ظل «أبو الهول» – ممثل الصمت في العالم – هو شعار الإذاعة حتى كتب بعضهم يقول : «أفيقوا يا ناس ! العالم كله يضحك على احتفاظكم بأبي الهول شعاراً للإذاعة ..» وأفاقوا .. وغيروه .. في عام ١٩٥٥ .

الأهرام ، فبقي أبو الهول لتأخذه الإذاعة .

٢ – تبقى الأغاني الشرقية ذات التخت ... الأغاني الطويلة المكررة البطيئة هي المسيطرة ! وقد أرسل المجلس توصية لشركة ماركوني لتجعل أجر الأغنية على أساس الدقائق التي تستغرقها الأغنية ليتبارى المطربون في الإطالة والتكرار في أغانيهم .

٣ – التخويف من انضمام مصر إلى اتفاقيات حقوق المؤلف العالمية ، ليبقى أصحاب الأفكار غير قادرين على الاجادة ، لأنه لا حقوق لهم ! .

٤ – وضع قانون المطبوعات والرقابة مليئاً بالمحظورات بحيث يضيق الخناق على المؤلف ، فيدور في حلقة واحدة ضيقة ! ويتوقع واضعو هذه القوانين أن تدور كل الأعمال الفنية – مسرحية أو إذاعية أو سينمائية – عن شخصيات لا هوية لها ... ويتوقعون أن المثل الأعلى للفتى المصري والشاب المصري سيكون هو المطرب .

٥ – تمجيد صاحب الموهبة الصوتية ، والحجر على صائغ الفكر سواء كان مؤلفاً أم موسيقياً ! .

وقد وافق المجتمعون على كل هذه المقترحات الجيدة التي تبدو في مصلحة الشعب ، ولكنها تؤثر فيه تأثيراً سيئاً حتى يعجز عن الإصلاح !

وسوف تتم اجتماعات دورية لوضع مزيد من الاقتراحات التي تخلفها في نفوس الناس لتعطلهم عن التقدم والوعي والفهم والإدراك السريع .

* * *

وتماماً كما توقع المجتمعون الأذكياء – تخلصت مصر وغيرها من الاستعمار ، ولكن بقي الاستعمار في نفوسنا نطيعه ونسير على السياسة التي وضعها لنا لنتخبط في طريقنا إلى التقدم والرقي ! .

العادة اذن هي أفيون الإنسان ... وقد اعتاد الإنسان عبر تاريخه على أنواع مختلفة من الأفيون .

وقد التقيت بالأمس غير البعيد بصبي في السادسة من عمره في أحد الأوتوبيسات ، وقد أثارني أنه – في عام ١٩٨٢ – لا زال يتعلق بعادة قديمة ضارة .

كان يجلس في حجر أمه – أو لعلها جدته – التي ترتدي ملابس سوداء لامعة فاخرة تحدد انتماءها إلى الطبقة الجديدة التي انتقلت إليها من طبقة دنيا في سنوات قليلة.

ما ان وقع نظري على الصبي حتى توترت أعصابي ... وأوشكت ذراعي أن تتحرك حركات عصبية أمام وجهي ووجوه كل الناس الذين يركبون الأوتوبيس تنش الذباب الذي كان يعشش على وجه الصبي الصغير ... ويتجول على عينيه رائحاً غادياً ... يحمل القذى والقذارة والمرض والوباء ... والصبي هادئ لا يحس بهذا التوتر الذي أحسست به لمجرد وقوع عيني على هذا المنظر ... الصبي هادئ ساكن والسيدة ذات الرداء الأسود اللامع الفاخر لا تحرك هي الأخرى ساكناً .

ظللت يوماً كاملاً وأنا أحرك يدي حركات عصبية أمام وجهي ... أنش ذلك الذباب الذي رأيته يتنزه على عيني ووجه الصبي .

إن هذا الكتاب يحاول أن يخلق لدى انسان اليوم ذلك التوتر

العصبي الخفيف الذي يجعله يتعرف في الحال على ذلك العدو الذي يعيش بداخلنا .. لينشه بعيداً إذا تعرض له ... إذا تسلل إليه من خلال الشاشة الصغيرة أو الراديو الصغير ... ليقي نفسه من سمومه التي ينفثها بداخل الإنسان .

الطّابور والطّبول

هذا الكتاب ... وضعته لأعرّف بحقيقة العدو الذي يفسدنا من الداخل .. ولنفهم الموقف بصورة ملموسة .. أقول :

– تصور طابوراً ... طويلاً .. طويلاً .. طويلاً ... يسير فيه كل الناس ... كباراً صغاراً ... نساء ... رجالاً ... شباباً ... شيباً ... في طابور واحد طويل .

في مقدمة هذا الطابور تسير فرقة موسيقية ذات طبول تعزف الموسيقى التي يسير كل السائرون في الطابور على ايقاعها .

هذه الفرقة ذات الطبول هي الإذاعة والتليفزيون .

إذا كانت إيقاعاتهم وعزفهم سليماً كانت خطوات الناس وطريقة سيرهم «سليمة» .. أما إذا كانت الفرقة الموسيقية وعازفي الطبول فيها مثل :

الهبلة اللي مسكوها طبلة .

كان العزف كله نشازاً ... وسير الناس كلهم نشاز ... وتعبير نشاز تعبير مهذب لتعبير «لخبطة» .

الناس تسير على إيقاع هذه الفرقة وطبولها التي تسير في أول الطابور تضبط إيقاعاته .

الناس على دين إذاعاتهم .

الأعداء الذين حولنا

نحن – في الوطن العربي – نعيش ... محاطين بأعداء .... هنا وهناك ... بعيدين ، وقريبين .

كلمة هامة يجب أن نضعها أمام عيوننا بخصوص هؤلاء الأعداء .. والعدو الذي بداخلنا .

مهما كان عدد الأعداء الذين يحيطون بنا من هنا ومن هناك ، فلا أهمية لهم ولا قيمة لهم .... ما دمنا نستطيع أن نتخلص من العدو الذي يعيش بداخلنا ينفث في نفوسنا سموم التخلف .

هذا الكتاب دعوة لنا جميعاً ... في كل مكان من الوطن العربي .. لنتخلص من الألغام التي زرعها الاستعمار في نظمنا وحياتنا ... فأصبحنا الآن مستقلين اسماً ...

جلسة تنوير !!

قبل حكاية اعتصام الشاب الفرنسي ببرج ايفل بقليل ، جلسنا مجموعة من الأصدقاء نكوّن شلة متحابة في سهرة في منزل واحد منا ....

كانت واحدة من فتيات الأسرة الشابات قد طلبت أن نسمح لها بأن تفتح التليفزيون في موعد حددته لتشاهد برنامجاً تحب مشاهدته ... وتحفظ موعده .

جذب هذا اهتمامي ... فهذه فتاة شابة تنتظر برنامجاً تليفزيونياً ... وترقبت هذا البرنامج ... في شيء من القلق .

ولما اقترب موعد البرنامج شغّلت الفتاة التليفزيون وتحققت أسوأ

مخاوفي ... كان التليفزيون يعرض رقصة .

نظرت إلى الفتاة في عجب – وشيء من الضيق – وأنا أشير إلى الرقصة ، فصاحت الفتاة في استنكار :

– كلا ... ليست هذه ... برامج التليفزيون عادة مواعيدها غير مضبوطة ... تبدأ متأخرة أحياناً وتبدأ مبكرة أحياناً أخرى ... ولذلك أنا فتحت التليفزيون قبل الموعد لعل البرنامج يبدأ مبكراً .

وضحكنا كلنا لهذا التفسير ، وهنا ارتفع من بيننا صوت يقول :

« بس ... »

وازداد ضحكنا ... فهذا أسلوب واحد من زملائنا ... يبدأ كل جملة بقوله :

« بس ... »

والتفتنا إليه ... وقالت واحدة منا :

– قول يا سي « بس »

فقال :

– بس حرام عليكم ... التليفزيون يقوم بواجبه فيقدم لكل ذوق ما يريده ، فلا داعي لهذه السخرية لمجرد المواعيد ... هذا نقد مرير ... حرام عليكم .

وضحكنا أكثر فهذا أسلوب « بسيوني » الذي يبدأ حديثه دائماً بالمقطع الأول من اسمه ... ويدافع عن التليفزيون دائماً ... كما لو كان والده أو من أقرب أفراد أسرته ...

وهنا كانت الرقصة قد انتهت ... وتحولت الشاشة الملونة إلى لون واحد .. وابتدأت إعلانات البرنامج المنتظر ... وهنا صاح بسيوني :

— بس ... خلاص ... هذا هو البرنامج ... أليس كذلك ؟

فقالت الفتاة وهي تبتسم :

— نعم .... هو .

وكانت أنظارنا كلنا تتجه إلى البرنامج ... وسعدت سعادة لا مثيل لها ... فالبرنامج الذي كانت تنتظره الفتاة الشابه كان « الموسوعة الفيلمية » ... وكان عن « الإنسان الآلي » الذي تنتجه مصانع العالم المتقدم ... وتعلم أصوله لإنسانها ليطلع على كل تقدم علمي ... ورحنا كلنا نشاهد البرنامج ...

صاح بسيوني :

— بس ... انظروا إلينا جميعاً نشاهد البرنامج وتذكروا هذا الموقف حتى لا تهاجموا التليفزيون بعد اليوم .

وصاح من وسطنا صبي صغير .. كان يراقب معنا :

— هذا « أوسكار » ... بطل حلقات الرجل ذي الستة ملايين دولار ... لا بد أن هذه حلقة منها أو من المرأة البيونيك .

وصاحت الفتاة الشابة قائلة :

— بس ... يكفي كلاماً .

وهنا صاح بسيوني :

— هايل ... هذه الفتاة الصغيرة أيضاً تبدأ حديثها مثلي بـ ... بس .

وضحكنا ... ونحن نواصل مراقبة البرنامج ... وقال أحدنا :

— أرأيتم البراعة ... جاؤوا بهذا الممثل المشهور المعروف للجميع ... ليتسللوا عن طريقه إلى عقل المشاهد العادي ليقربوا موضوع « الرجل

الآلي» إلى أذهان المشاهد العصري ... الذي يجب أن يعرف كل تقدم علمي .

وظللنا نراقب ... كان التعليق باللغة العربية .. ولكن العلماء الذين كانوا يشرحون كانت أصواتهم لا تسمع ... شفاههم فقط هي التي كانت تتحرك ...

وقال أحدنا :

– هؤلاء علماء في كل فروع العلم وأساتذة في الجامعات ... كنت أحب أن أستمع إلى أصواتهم وهم يتحدثون ويشرحون باللغة الإنجليزية ... أظن أن هذه الترجمة العربية التي نسمعها في هذا التعليق الجذاب لا تصل إلى عمق المعلومات التي تتحرك بها شفاه العلماء ومقدمي البرنامج الأصليين .

وهنا صاح صوت يعترض على هذا التعليق .. وعرفنا في الحال أنه بسيوني ... فإن صوت بسيوني عندما ينفعل لا تستطيع أن تتعرف على صوته ... ولكنك تتعرف على بداية حديثه ... التي كثيراً ما تبدأ بالمقطع الأول من اسمه :

– بس يا جماعة ... التليفزيون يدفع مبالغ هائلة في هذه البرامج العلمية ... ويترجمها ... ويقرأها هذا الصوت الجميل (ملاحظة : هو صوت جميل فعلاً) ... أنظروا إلى هذا المصنع ... انه مصنع لتجميع السيارات ... وهذا هو الإنسان الآلي يعمل في تجميع أجزاء السيارة بسرعة ودقة .

واستمر الحوار ... ومشاهدة البرنامج الثقافي المثير الذي تعرضه

الشاشة الصغيرة ... وانتهى البرنامج ... وظهر على الشاشة اللافتة التي تعلن عن اسم القناة «ق ٢» .

قال أحد الحاضرين :

– هل ننتقل إلى القناة الأولى لنرى ماذا لديهم ؟

كان الحوار الذي يدور بيننا قبل فتح التليفزيون قد انقطع تماماً ... ما ان دخل التليفزيون حتى أصبح هو سيد الموقف الذي يتجه إليه الجميع بأفكارهم ومشاعرهم .

وافق الجميع إلا أن بسيوني اعترض بطريقته المعهودة .. إذ قال : بس بشرط ... شاهدوا وتفرجوا واستمتعوا دون تعليق .

أحدنا كان قد ضغط على الزرار الخاص بتحويل القناة ... دون أن نوافق على شرط بسيوني ... وفي اللحظة التالية استقبلنا مجموعة رائعة من الألوان ... وصاح بسيوني :

– بس ... هذه أحلى مغنية ... وردة .

وبالفعل ... كانت وردة تقف – زاهية الألوان وأحلى المطربات – كما قال بسيوني وكما يوافقه الكثيرون .

كلما رأيت وردة تذكرت أول مرة رأيتها ... في حفلة أقامتها المطربة صباح للترحيب بوردة ... كانت وردة أيامها صغيرة ضئيلة الجسم ... وهي اليوم صارت في عيون الكثيرين أحلى .. عندما زادت في الوزن ... ولكن المؤكد أنها زادت في طول الأغنية ... وهذا هو ما يعنيني هنا (راجع التقرير السري ص ٢٣٤) .

غنت وردة بصوتها اللذيذ :

للدرجة دي هواك غيرني

للدرجة دي هواك خلاني
للدرجة دي هواك غيرني
للدرجة دي هواك خلاني
آه يا عيني ... تاني تاني تاني
للدرجة دي هواك غيرني
للدرجة دي هواك خلاني
للدرجة دي هواك غيرني
للدرجة دي هواك خلاني

وهنا صاح واحد منا ضاحكاً :

– خلاكي ايه يا ست ؟ ... فين بقية المعنى ؟

وهنا ... هنا فقط ... أكملت وردة المعنى :

– خلاني ... روح شفافة ناعمة وراضية ما لهاش غير الحب أماني .
أماني ... أماني ... آه يا عيني ... تاني .. تاني .. تاني .

ثم عادت تكرر ما سبق أن كررته :

للدرجة دي هواك غيرني
للدرجة دي هواك خلاني

هذه الأغنية ... نموذج جيد جداً للأغنية التي وصفها الاستعمار ، وأوصى بها الإذاعات التي نشأت في حضنه ، لتكون كل الأغاني التي تذاع منها – وكل المواد الأخرى – على غرارها :

طويلة ، مكررة ، بطيئة ، متورمة ... تقول الشيء الواحد عدة مرات ... تعيد وتزيد فيما تقوله من كلمات أو موسيقى تظل على شكل واحد لا يتغير ... تزرع البطء والتراخي وعدم التركيز ... وتقتل

الإبداع .. وتدفن الخيال القادر على التجديد والابتكار وبناء مستقبل أفضل .

وقد زال الاستعمار من كل بلاد العرب ، ولكن بعد أن أحسن زرع هذه الدروس المدمرة في نفوس الذين كانوا قائمين على هذه الإذاعات فعلموها وغرسوها بدورهم في نفوس من جاؤوا بعدهم – حتى صارت هذه التعاليم أصناماً معبودة ... إذا جاء من يحاول تبصير الناس بحقائقها وجه إليهم هؤلاء العابدين للأصنام سهامهم المسمومة ..

لماذا ... لأنهم منتفعون ... لا يعرفون غير هذه التعاليم الخاطئة الضارة التي تنفذ تعاليم الاستعمار .

وبعض جماهيرهم اعتادوا على أن يقف الذباب على وجوههم ويعبث بعيونهم ولا يهشونه ... لذلك فهم راضين عنهم يعشقون التكرار ... ولا يرضون عنه بديلاً .

وأعود أتابع جلسة التنوير

وظلت المطربة الجميلة وردة تغني وتكرر ... ولا أدري هل قالت «معاني أخرى أم ظلت تردد نفس المعاني .. المهم أن الأغنية انتهت .. وصاح بسيوني :

– هل رأيتم ... الأغنية طويلة .. ولكن التليفزيون لاهتمامه بالإيقاع السريع الذي يدعو إليه بعض الناس الساكتين هنا فقد اختصر منها بعضها ويذيع جزءاً منها فقط .

وهنا صاح صبي صغير يلفت نظرنا إلى الشاشة التي كنا قد انصرفنا عن مراقبتها ... وعدنا ننظر .. كانت الشاشة الصغيرة – ذات التأثير

المهول – قد ابيضت تماماً أو اصفرت – لست أذكر بالضبط – وفي مساحتها الصفراء أو البيضاء وقفت شخصية « كاريكاتير » لم أتبينها بالضبط ... هل كانت لصبي صغير أم رجل ... ولكن الشخصية كانت ترتدي ملابس بلدية .. جلباباً أبيض ... وطاقية بيضاء أيضاً ...

وضحكت وأنا أتصور أن ملابس هذه الشخصية هربت من أحد المسلسلات الريفية التي تقدم كثيراً ... وقلت في نفسي «لا بد أن اسمه هراس أو عوضين» ... ويبدو أن هذه هي الطريقة التي فكر فيها راسم هذه الشخصية وهو يرسمها إذ لم يلبث أن بدا الغيظ الشديد عليه – على الشخصية الكاريكاتورية – ثم خلع طاقيته بضيق ... ألقاها على الأرض وقفز فوقها يسحقها برجليه .

وفجأة ... اختفى ... وأصبحت الشاشة بيضاء وظللنا ننظر ..

وفجأة دخلت الشخصية الكاريكاتورية المساحة البيضاء وعبرتها من الجانب الأيسر إلى الجانب الأيمن ... وهو يحمل شيئاً ثقيلاً ... يشبه السلم .. وما لبث أن وضع حمله على أرضية الشاشة ... وعرفنا أنه وضع

(الـ ....)

من نفس الطريق عادت الشخصية الكاريكاتورية ... واختفى خارج الشاشة ثواني قليلة ثم عاد يظهر وهو يحمل شيئاً ثقيلاً آخر ... يتضح أنه « قنا » .

وصاح أحدنا :

– آه ... هذا الكاريكاتير صعيدي من قنا ... وسيكتب اسمه : (القناوي)

وبالفعل ... وضع (قنا) بجوار (الـ ...) فتكونت كلمة (القنا) .

ولكن الشخصية الكاريكاتورية - بتكرار نفس الأسلوب - خرجت وعادت تحمل (هـ مربوطة) .. ثم خرجت .. وعادت .. خرجت وعادت .. خرجت وعادت .. وفي النهاية تجمع على الشاشة ... (الـ قناه الـ .. أو .. لى) .

ثم تقف الشخصية الكاريكاتورية في غضب ... وقرف شديد .. ويخلع طاقيته ... يلقيها على الأرض ... ويقفز فوقها في غضب شديد كما لو كان يريد أن يسحقها ...

ثم يختفي ... وبعد ثوان قليلة يتكرر نفس الروتين .. تماماً كالأغنية التي كانت منذ قليل .

وهنا انقسم الجالسين إلى قسمين ... قسم أبدى اعجابه الشديد بالبراعة العظيمة التي ظهرت في كتابة اسم القناة بهذه الطريقة الظريفة .. والبعض الآخر قال :

- بهذه الطريقة يتحدث الأستاذ بسيوني .. يقول : بس .. ثم يو .. ثم ... لي .

وضحك الجميع ... خصوصاً عندما أضاف أحد الجالسين :

- بس يا جماعة ... أنتم لا تفهمون أن التليفزيون يقوم بواجب من واجباته .. محو الأمية .

وهنا صاح بسيوني غاضباً غضباً صغيراً ... (بسيوني لم يغضب في حياته غضباً كبيراً) :

- تسخرون كالعادة ... ولا تعترفون أن هذا فتح جديد في عالم الصور المتحركة ... خطوة أولى نحو إنشاء هذا الفن العظيم في بلادكم ..

وأنت يا أستاذ .. انت لا تتكلم ... قل لنا رأيك .

كان بسيوني يوجه الحديث إليّ ... كان يعرف رأيي ، فقد قلته كثيراً .. ولكنه كثيراً ما كان يثيرني لأردده كالأغاني المتكررة ... وكان ينجح دائماً في إثارتي ... قلت له هذا ثم أضفت :

– هذا الأمر وحده لا يناقش على حدة ... إنما يناقش والصورة أمامنا كاملة .

إن هذه هي الطريقة التي يفكرون بها في المسلسلات المتورمة .. حلقات .. متصلة .. واحدة تأتي بعد الأخرى ... لتتعاقب في حادث واحد مركز .. إنما تنفخ .. وتمط .. وتشد . لتكون على عدد كبير من الحلقات ... طريقة تفكيرهم هذه وصلت إلى اسم القناة .. أ . ل . ق . ن .. ا .. ه .. الـ ... وهكذا .

إنهم لم يحسوا بالنفخ والمط والهيافة ... عن طريق المسلسلات ... فعشش في عقولهم .. وتسلل إلى اسم القناة .

تماماً كالصبي الصغير الذي التقيت به في الأوتوبيس ... الذباب يعشش على وجهه .. ويتجول في عينيه .. وهو لا يحس لأنه لا يعرف الفرق بين ما يفيده وما يضره .

هنا قال بسيوني :

– بس باختصار ... هذا لا يعجبك .

فقلت :

– أنا شرحت لك تفسيري له .. ولكن بعض الناس يعجبهم هذا .. لأنهم تعودوا عليه كالصبي الذي تعود على الذباب .

لم يستمر استعراض البطء في كتابة اسم « الـ .. قنا .. ه .. الـ .. أو .. لي » كثيراً ...

وما لبثت أن ظهرت على الشاشة صورة جميلة ثابتة .. لا تتحرك ..

ذكرتني بالصور الثابتة للورد التي كان يرسلها التليفزيون زمان أيام إرساله الأولى .

كانت الصورة لمكان جميل .. حديقة غنّاء ... زهور ذات ألوان زاهية .. طريق ممهد خال من الناس .. وبوابة حديدية كأنها بوابة قصر ... وعلى هذه الصورة الجميلة (رسم يد) خط خطاط ممتاز عبارات جميلة موحية ... بينما صوت مذيعة من مذيعات الاعلانات تقرأ الإعلانات :

– هذه مدينتك .. نظافتها وجمالها يعتمد عليك أنت تستطيع أن تجعلها أجمل المدن . وكان يصاحب الصورة والكلمات لحن موسيقي موزع للحن شعبي سريع الإيقاع نشط ... خفيف .. ظريف .

الذي حدث بعد ذلك سأرويه بالتفاصيل المملة ... لأنه كان شيئاً عجيباً ... غريباً ... يستحق التأمل ... والتفكير .

ابتدأت تتملكني حركة عصبية خفيفة كالتي تملكتني في الأوتوبيس أمام الصبي الذي كان يترك الذباب يتجول على عينيه ورحت أنش شيئاً أمام وجهي ... شيئاً غير موجود .

وازدادت عصبية حركة يدي أمام وجهي عندما صاح بسيوني :

– بس .. في هذه الصورة الثابتة الكفاية .. ترد على من يتقول على التليفزيون ... فهذا التليفزيون يعرف واجبه وهذا هو يحفز الإنسان

لما يجب أن يقوم به نحو مدينته .. لا تقل لي أن الأسلوب المباشر لا يحقق الغرض ... هيه .. ما رأيك في هذا .

وهززت رأسي موافقاً على ما قاله بسيوني بينما يدي تزداد تحركاتها العصبية .. تنش احساساً بالذباب يعف حولي ...

وهنا قالت إحدى السيدات اللواتي يعرفنني جيداً :

– أنت تنش ذباباً غير موجود .. الذباب تحس بوجوده .. بعقلك الباطن .. هل يعرف عقلك الواعي لماذا تتحرك يدك بهذه العصبية بنش شيء غير موجود .

توقفت يدي لحظة عن النش ... ولكنني عدت أنش بشدة وأنا أقول لها :

– لا أدري لماذا أحس بهذه العصبية في يدي .

سألت .. : وهل تريد أن تعرف ؟

فأجبت بالإيجاب ... فقالت :

– استمع إلى الموسيقى جيداً ... وأعطها عقلك الواعي لتفهم ما تقوله .

واستمعت ... وأنصت ... ولكني لم أفهم .. إلا عندما انتصب بسيوني واقفاً .. الذي أخذ يحدق فيّ ... وهنا – متأخراً قليلاً عن بسيوني – كنت قد أدركت .. وابتدأت أضحك على سذاجتي وبطئي ...

وهنا صاح بسيوني مرة أخرى :

– يا نهار أسود .

ومن يومها ... لم يحاول بسيوني أن يدافع عن التليفزيون ... أبداً .

ذلك أن الموسيقى الموزعة للحن الشعبي كانت تردد العبارة الشعبية .

– وأنا مالي .. وأنا مالي .. وأنا مالي ... وأنا مالي يا بوي وأنا مالي .

* * *

الصورة الثابتة توجه إليك رسالة «انك المسؤول عن مدينتك ونظافتها» .

والموسيقى المصاحبة تردد :

«وأنا مالي وأنا مالي ... وأنا مالي» .. وأنا مالي يا بوي وأنا مالي .

اللّغــة العَربيَّة !! ... للكِبار !

عشرات الأقلام تكتب في العالم العربي – كل أسبوع .. وأحياناً كل يوم .... عن اللغة العربية .

آخر من قرأت لهم كان الدكتور يوسف ادريس الذي كان يتحدث « في مفكرته » عن الشاعر أمل دنقل .

كتب يقول :

ولكن حظه السيئ – يعني الشاعر أمل دنقل – انه نشأ في ظل حركة ثقافية مشتتة ومسطحة ، بل لا يهمها الشعر بالمرة . ما دامت حلقات التليفزيون السخيفة موجودة ، وما دامت مذيعات التليفزيون يستطعن النطق بإنجليزية وفرنسية بإتقان مبالغ فيه بينما عربيتهن يتندر عليها رجل الشارع .

والمشكلة ملحة .. تستحق الكتابة والمناقشة .. وحلها لا يمكن أن يتم إلا عن طريق أجهزة الإذاعة والتليفزيون ، ولذلك أكتب هنا رسالة موجهة إلى كل أصحاب الأقلام الذين يتحدثون عن هذه المشكلة ويلعنون .. أكتب إليهم لأقول :

– لا تلعنوا الظلام ... أضيئوا شمعة .

اسمحوا لي أيها السادة أن أتحدث إليكم عن أمور ثلاثة .. أولها .. البرنامج الذي قدمته في إذاعة الشباب عملاً على تحقيق غرس اللغة العربية السليمة في النفوس .. وأعتبر أن هذا البرنامج هو أحد الشمعات التي أوقدتها من أجل اللغة العربية ولم أقتصر على لعن الظلام .

شمعتي أو برنامجي أطلقت عليه اسم « تعال نتحدث اللغة العربية» عهدت بتنفيذ هذا البرنامج إلى مذيع يجيد اللغة العربية إجادة تامة ... وكان في كل مرة يختار ضيفاً ما ... شاباً ... أو صغيراً ... أو كبيراً .. ليتحدث معه ... ويشترط في بداية الحديث أن يلتزم المتحدث باللغة العربية .

تحدث المذيع في البرنامج مع الكابتن محمد لطيف ... وطلب منه في أثناء الحوار أن يصف مباراة للكرة مع الالتزام باللغة العربية ... وتحدث مع ربة بيت .. وكان حديثها يرتبط بعمل ربة البيت في منزلها .. وتحدثا بالذات عن «الطهي» واهتما أكثر بطهي «الملوخية» التي عرفنا من المعلومات التي جاء بها المذيع أن اسمها الأصلي هو «الملوكية» فقد كانت الملوخية طعام الملوك لصعوبة طهيها .

وتحدث المذيع في البرنامج مع المخرج السينمائي أحمد كامل مرسي .. ومع عدد هائل من الشباب العرب والأجانب الذين يدرسون اللغة العربية .

تحدث إلى مسلم صيني ودارس تركي بالأزهر الشريف ... وتحدث مع مطربة جامعية ..

وكان الضيف يخطئ أحياناً في اللغة العربية ... فكان المذيع

المتخصص يصلح له الخطأ ويشرح له القاعدة ببساطة ويسر ... ثم يكملان الحوار .

وكان الغرض من هذه الشمعة أن تضيء الطريق – أمام عدد المستمعين القليل – إلى التعود على اللغة السليمة والنطق السليم .. ولكي يعتاد المستمع كيف يعبر عن نفسه بدقة ووضع بدون أخطاء .

ولكن الظلام في الأداء باللغة العربية السليمة يحتاج إلى شموع أخرى كثيرة ...

ومن هنا كانت دعوتي هذه التي أوجهها لمن يحركون أقلامهم بلعن الظلام ليوقدوا شمعات أخرى .

الأمر الثاني .. خاص بي ... وبابنتي ... علمتها منذ صغرها – مدفوعاً بإحساس بالمسؤولية الطبيعية التي يحس بها الأب نحو أولاده .. فكنت أدير معها حواراً باللغة العربية الفصحى حتى وضعت قدميها الصغيرتين على أول الطريق إلى القدرة الكاملة على التحدث باللغة العربية بطريقة سليمة .

وهنا أصل إلى الأمر الثالث ...

البرنامج الإذاعي الذي تقدمه الإذاعة البريطانية ـ وهذه الإذاعة تعرف واجبها وتحس بمسؤوليتها عن مستمعيها «١٠٦ ملايين» لذلك فهي تقدم برامجها بالإنجليزية السليمة «القواعد والنطق» وتقدم برامج جديدة منها هذا البرنامج الذي أتحدث عنه الآن ـ البرنامج يحمل اسم ، دقيقة واحدة .. ويقول عنه النقاد الذين يعرفون أهداف الإذاعة إنه أضحك الكثيرين ضحكاً راقياً ، وكان في نفس الوقت يعودهم على حضور البديهة ويعلمهم اليقظة والرشاقة في التعبير .

يضم البرنامج مذيعاً ذكياً متيقظاً .. ومادة مدروسة لتحقيق الغرض من البرنامج .. كما يضم أربعة ضيوف دائمين يتمتعون بقدرة عالية على الحديث التلقائي المرتجل .. في أي موضوع يطرح عليهم .

في الثواني العشر الأولى من البرنامج يقدم المذيع « نيكولاس بارسون» شلة الأربعة بيتر جونس ، كليمنت فرويد ، ديرك نيمو - كينث وليامز ويشرح شروط البرنامج :

- سأطلب من واحد من الضيوف أن يتحدث في موضوع معين لمدة دقيقة واحدة دون تكرار أو تردد أو خروج عن الموضوع .. وسيقف الثلاثة الآخرون له بالمرصاد يدقون الجرس إذا وقع في الخطأ .. وعندئذ يكون على الضيف المعترض أن يكمل الحديث في نفس الموضوع باقي الدقيقة .. بيتر جونس ... تحدث في موضوع « الخرافات » لمدة دقيقة واحدة .. ولتبدأ الآن .

وفي الحال يبدأ بيتر .

- ألمس الخشب .. لعل هذا هو أقرب الخرافات التي تعيش بيننا اليوم وهناك أقوال كثيرة تربط الخشب مرة بالصليب . وتربطه مرة أخرى بالخشب الذي ..

ويأتي صوت الجرس معلناً اعتراضاً ما .. انه يعترض لأن بيتر جونس كرر كلمة « الخشب » ويطلب المذيع من الضيف المعترض أن يكمل الحديث في موضوع الخرافات لمدة « كذا » ثانية وليبدأ الآن .

وفي الحال يبدأ الضيف .

– أنا لا أؤمن بالخرافات .. وأستطيع أن أروي لكم كيف أن .. ١٣ في الشهر إذا صادف يوم جمعة .. فإنني لا أهتم أبداً .. صحيح انني أبقى في بيتي لا أبرحه – ولكن دون اهتمام بأي شيء .. أما القطط السوداء التي تمر أمامي في الطريق .. فإنني أخشاها .. ليس لخرافة ما .. ولكن لأن عينيها تلمعان لمعاناً مثيراً . و. بـ ...

ويعترض الضيف الثالث .. لقد « تردد » الضيف .. وتستمر المباراة في البراعة في التعبير واليقظة في ألا يكرر كلمات أو معنى .. ويتبارون في اللغة السليمة .. والحديث المسترسل .. فإذا قال أحدهم «الواقع أن الـ .. الحقيقة التي – الـ – » فهناك من يعترض عليه ويسكته .. ويضحكون عليه ..

في حلقة هذا البرنامج حدث شيء طريف .

طلب مذيع البرنامج من أظرف الضيوف – وكلهم ظرفاء – أن يتحدث في موضوع « نيوبيلاس أندروميكاس » لمدة دقيقة واحدة .. وليبدأ ..

وصرخ الضيف معترضاً .

– ما هي نيوبيلاس أندروميكاس ؟

فقال المذيع :

– لا أقول لك .. تحدث في موضوع « نيوبيلاس أندروميكاس » لمدة دقيقة واحدة ولتبدأ الآن .

وفي الحال ابتدأ الضيف يتكلم :

– بينما كنت أُقلب في الموسوعة البريطانية منذ يومين أو ثلاثة إذا بي

ألتقي بهذا الموضوع الهام الخطير «نيوبيلاس أندروميكاس» .. فرحت فرحاً شديداً بأن أجد هذا الموضوع في موسوعتي .. ونسيت السبب الأصلي الذي كنت من أجله أبحث في الموسوعة .. وقضيت ساعات أقرأ وأقرأ وأقرأ ..

ويعترض ضيف لتكرار كلمة اقرأ .. فيطلب المذيع من المعترض أن يكمل الحديث في نفس الموضوع – غير المعروف لمدة الثواني التي بقيت من الدقيقة ..

واعتراض من هنا .. واعتراض من هناك.. وجمهور الحاضرين يضحك ويصفق ... خصوصاً عندما يشرح المذيع أن نيوبيلاس أندروميكاس هو اسم مجموعة شمسية بعيدة عن مجموعتنا ..

ثم يأتي موضوع آخر .. ورابع .. وخامس .. ومداعبة من هنا وسخرية من هناك واللغة المنطوقة لغة سليمة راقية ... تؤثر في المستمعين الذين يضحكون .. ولكنهم يتأثرون ويعتادون ويتأكد المثل الحديث (الناس على دين إذاعاتهم) .

أعزائي الذين يلعنون الظلام .

هذا البرنامج Just A Minute يستطيع أن يوحي بشكل الشمعات التي يمكن أن تقدموها في الإذاعة أو التليفزيون من أجل أن تقوم الإذاعة والتليفزيون بواجبهما نحو الإنسان تعوده على الأسلوب السليم والنطق الجيد الواضح والتعبير الدقيق .. وحضور الذهن واليقظة وسرعة التصرف ... لتجعل من هذا الإنسان إنساناً أفضل ... وتقضي على ظاهرة «اللألأة» التي أصبح كل الناس في كل مجالات الحياة يتبعونها في حديثهم .

أرجوكم أضيئوا شموعاً .. فقد بلغني وأنا أكتب هذا الخطاب أن شمعتي التي أوقدتها في إذاعة الشباب ... قد نفخت فيها وأطفأتها الإدارة الجديدة .. لإذاعة الشباب .

اللغة العربية ... للأتفال !!

هذا الإحساس الذي أحسه نحو ابنتي ... الذي تحدثت عنه في الصفحة السابقة .. يجب أن تحس به الإذاعة نحو كل المواطنين ...

هي أمهم التي يجب أن تهتم بهم .. من كل النواحي ، ليخرجوا مواطنين صالحين .

والنطق السليم للغة العربية والقدرة على الحديث السليم هي واحدة من أوائل واجبات الإذاعة نحو مواطنيها .. وأطفالها ... بالدرجة الأولى .

قريباً ... كنت أجلس في منزلي إلى مكتبي .. أعد هذا الكتاب .

وكان الراديو الذي يقبع على مكتبي دائماً مضبوطاً .. كما هو دائماً – على واحدة من الموجات القصيرة التي أسمع عليها الخدمة الدولية لإذاعة الـB. B. C. باللغة الإنجليزية .... وكنت قد فرغت من الاستماع إلى نشرة الأخبار طافت بي كل أنحاء العالم في ٩ دقائق ... وأغلقت الراديو ... لأعود إلى استكمال هذا الكتاب .

ولكن صوت أغنية أطفال من راديو الجيران جعلتني أعطيها أذني واهتمامي كله ... لأن المعنى كان جيداً .. يكون موعظة مباشرة للأطفال ... ولكن لا بأس من الموعظة المباشرة للأطفال .

«إذا كنت تقدم على عمل ما
ففكر فيه قبل أن تنفذه
حتى لا تقع في الخطأ
وإذا وقعت في الخطأ
فتعلم من خطئك
حتى لا تقع فيه مرة أخرى»

سرني ما سمعت من الراديو البعيد .. ولكن شيئاً ما .. شيئاً ما .. أثار تساؤلي .

وجعلني أسرع إلى جهاز الراديو الصغير الموجود في المطبخ .. وحملته معي ووضعته قريباً من أذني لأتأكد من هذا «الشيء الما» وانزعجت مما سمعت .. ولكنني أسرعت أسجله .

انزعجت لأنني أدرك الأثر العميق الذي يحدثه هذا «الخطأ الصغير» في الناس .

فالناس على دين إذاعاتهم .. في كل شيء . إذا كانت الإذاعة تنطق لغة عربية سليمة .. نطق الناس مثلها .. فهي أم .. يتكلم أولادها وينطقون كما تفعل هي بالضبط .

والأغنية قتلت من حروف الهجاء :

الراء ـ الطاء ـ القاف .. وحروفاً أخرى كنت ألاحظ أن أغاني الأطفال تقتلها أيضاً وهي «اللام» .

واستمعت إلى الأغنية مرة أخرى بعد أن انتهت .. وتعجبت .

كانت كلمات الأغنية تقول :

أبل ما تعمل حاجة فكو .... قبل ما تعمل حاجة فكر

شوف فايدتها ايه وضووها ... شوف فايدتها ايه وضررها
جايز تغلت غلتة موه ..... جايز تغلط غلطة مرة
لكن نفس الغلتة أوعى تكووها ... لكن نفس الغلطة أوعى تكررها

إذا ظلت الإذاعة والتليفزيون يهملان الآداء باللغة العربية للكبار والصغار فسوف تتحقق في المستقبل القصة التالية .

حـوفان ناكصـان ..!

القصة المنشورة هنا روجعت جيداً .. وليس بها خطأ مطبعي واحد
أحمد بهجت

الكاهوه في ٢٣٢٥/٩/١٣

السيد الفاضل وزيو الثكافة

أوفع لسيادتكم ملاحظة هامة للغاية واجياً التوجيه .. ومعذوة إذا كلت اني لا أكاد أصدكها ولا أتصور أنها صحيحة .

هل كانت لغتنا الجميلة الحلوة مكونة من ثمانية وعشوين حوفاً .. يعني حوفين أكثر من الحووف التي نحفظها ويحفظها أولادنا .

أثاو هذا الموضوع معي بالأمس أستاذي العالم اللغوي طاها وفيك الأستاذ بمعهد اللغة العوبية .

كال لي الأستاذ وفيك أنه كوأ في بعض كتب التراث التي لم تحرك عندما تخلصوا من الكتب القديمة ليفسحوا المجال للكتب المسجلة على أفلام .. كوأ في هذا الكتاب حكاية كديمة جداً .

صبي صغيو سأل أحد الشعواء القدامى :

– هل أنت الكائل «فاني لآت بما لم تستطعه الأوائل» .

فلما أجاب الشاعو بأنه هو الذي كال هذا البيت .. كال الصبي :
- الأوائل جاءوا بثمانية وعشوين حوفاً ، فهل تستطيع أن تأتي بحوف واحد زيادة عليها .
جعل هذا الكشف أستاذ الدكتوو طاها يتساءل :
- ماذا حدث في الكوون السابكة حتى ضاع حوفين من حووف الهجاء .
وأخذ يبحث ... واستغرك بحثه سنوات طويلة حتى أوشك أن يثمو البحث ..
وكد كال لي أمس :
- كان الأكدمون في الكون العشوين لديهم شيء اسمه الواديو ينقل إليهم أصوات الإذاعة ... وشيء مختلف اسمه التليفزيون ينقل إليهم الصوت مع الصووة .. وكانوا يذيعون ويغنون ويتكلمون .. وكانوا ينطكون الحووف مخففة وكيكة .. بدأت المذيعات والمطربات أولاً ثم تبعهن المذيعون والمطوبون .. وزاد التخفيف .. ومع مووو الوكت خف الحوفان تماماً ... واستتبع هذا أن اعتاد الشعب كله على عدم نطكهما فزالا تماماً ولم يعد لساننا العوبي كادراً على نطكهما .

أوفع هذا الأمو الخطيو لسيادتكم لا أكصد منه إعادة البحث عن هذين الحوفين فلا محل لعودتهما بعد أن زالا تماماً ... ولا يوجد تسجيلات للغة التي كانت تحوي الحوفين فقد مسحت الإذاعة كل الشوائط الكديمة .

ولكن لتصدووا أواموكم بالاهتمام بالنطك الدكيك حتى لا تزول من لغتنا الجميلة حووف أخوى .

وتكبلوا سيادتكم فائك الاحتوام .

سابت أبو تالب تالب
بكلية اللغة ٢٣٢٥/٩/١٣
طبق الأصل
إيهاب الأزهوي

أما بعد ! !

فقد وضعت هذا الكتاب من أجلك أنت ... ابن بلدي .

لأنك أنت (الحاضر) وأولادك وذريتك (المستقبل) المعنيون بما جاء فيه .

دفعني إلى وضعه إيمان كبير ضخم بما جاء في عنوانه

(الناس على دين إذاعاتهم)

فما دام الوطن يحتاج – دائماً – إلى ناس أصحاب صفات عظيمة فيجب أن تكون إذاعاتهم عظيمة .

قال الرسول الكريم .. صلى الله عليه وسلم :

«الإيمان بضعة وتسعين شعبة .. أعلاها شهادة ألا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق» .

من إيمان المرء أن يرفع العوائق عن الطريق .. حتى لا يتعثر السائر في حجر أو يتعطل عندما يأتي عند حفرة .

وطريق الإذاعات مليء بالعوائق – أغلبها زرعها الاستعمار هنا وهناك . وأقام الأصنام في عقول تشرف على إدارتها ثم غادر البلاد وأعلن استقلالها وبقيت الأصنام في بعض العقول تنفجر ألغامها في أرجل أبنائها وتعطلها عن التقدم والرقي .

وأنا هنا أشهد ألا اله إلا الله ... أولاً .

ثم أنير الطريق وأكشف ما فيه من أذى وعوائق حتى تسير خطوات إنسان اليوم وخطوات الأجيال القادمة إلى التقدم والرقي للوطن كله .

وأقتبس من اللورد ريث فلسفته التي وضعها للإذاعة منذ أكثر من

نصف قرن .. وأضع معناها الكبير في كلمات جديدة .

لا يجب أن تكون الإذاعة بهلواناً يهرج أمام الناس ويجعلهم يضحكون على بلاهته .. انه يجب أن يكون رسولاً يعلم الناس حكمة العصر وعلومه .. ليؤثر بها في الناس فيصلح أحوالهم .

عزيزي القارئ ... اقلب الصفحتين التاليتين فإنهما ليستا موجهتين لك .

يا حضرات المنتفعين ! !

الصفحتان التاليتان موجهتان لكم .

يا حضرات المنتفعين ... بكل ما ذكرت في هذا الكتاب من أدواء . أنتم لا تحبون القراءة .. وبعضكم - كما قال البعض - لا يعرفون القراءة .. ولذلك سأجعل هذا الخطاب الموجه إليكم قصيراً مركزاً .

تحت عنوان (للمشاهد رأي) نشرت إحدى الجرائد اليومية كلمة موجهة إليكم :

(المسلسلات التليفزيونية .. ليست فهلوة وشطارة وتهريجاً وتجارة وثراء واستخفافاً بعقولنا ... فاتقنوا هذه الصناعة .. من أجل الوطن ومن أجل عقولنا) .

وأستعير من هذه الكلمة لأوجه كلمتي إليكم :

«يا أيها الفهلوية - المهرجين - التجار - المستخفين بالعقول المحققين للثراء على حساب إغراق قدرات المواطنين على التجديد والبناء ... يا من لا تعرفون من الثقافة غير ثقافة الأرقام والأرباح على حساب نشر السموم والأغذية الفاسدة بين الناس» .

أنا أعلم أنك تملك أدوات قوية للتمويه ... تملك إقامة سهرات تدعو إليها أقلاماً تستأجرها لتكتب ما تريد لرفع قيمة العمل الفني الذي تنتجه .. تملك إقامة مهرجانات توزع فيها جوائز (أوسكارية) على انتاج ضار لتقيم تعتيماً على الحقائق التي يجب أن يعرفها كل الناس .. وإذا كان هناك من يكتب كثيراً ينقدك ويكشفك فكلف رئيس تحرير المجلة التي ينشر فيها بكتابة مسلسل طويل للإذاعة والتليفزيون وأعطه أجراً كبيراً خاصاً واطلب منه بأن يمنع هذا الطويل اللسان من الكتابة .

أنت بهذا لست مجرد معتاد (كمعتادي الأفيون والذباب) بل أنت عون للعدو الذي يعيش بجوار أرضنا ... أنت خير عون لهذا العدو .. تعمل لصالحه ورهن إشارته ... تمزقنا من الداخل بما تنتجه .. لنصبح ضعافاً بطيئي الفهم لنكون لقمة سائغة سهلة لهذا العدو في السباق الذي تسير فيه دول العالم .. ودول المنطقة لتحقيق التفوق.

إذا أردت أن تعرف كيف أنك عون لهذا العدو فاقرأ هذا الكتاب ببطء بنفس بطء مهلهلاتك البطيئة وعندئذ .. قد تستطيع أن تطرد أصنام الأفكار الملغومة التي سيطرت عليك وعلى أمثالك من المنتفعين طويلاً .

أو على الأقل .

اقرأ ما جاء خلال الكتاب من «مواقف» ..

وأختتمها بـ

«الموقف الأخير» .

الموقف الأخير

في الجزء الأول من هذا الكتاب تجد قصة قصيرة ذات معنى خاص تحت عنوان «تجربة في الغابة الحديثة» ... انها قصة تقع في زحام الناس .. أرجو أن تعيد قراءتها الآن ... قبل أن تقرأ الصفحة الأخيرة من الكتاب ..

الموقف الأخير

قصة تختتم كتاب

«الناس على دين إذاعاتهم» .

المَوقِفُ الأخِير

قصة قصيرة جداً .. في موقف واحد كبير جداً .

عضّ على شفته السفلى وهو يحاول أن يطرد هذا القلق الذي يلح على ذهنه .. ونظر حوله .. «ياه !!» قال لنفسه ما كان يجب أن يسمح لنفسه أن يكون جزءاً من هذا الزحام ... كان يجب أن يدرك أن هذا الموقف المتوتر سوف ينتج .. لماذا لم يفهم ولم يتخذ قراراً سريعاً فينسحب .. في أول الأمر ... ولكن الوقت قد فات الآن ولم يكن من الممكن أن يخرج من وسط الزحام .

ولكن لا بأس ... فليكن هذا درساً له للمستقبل .. انه يجب أن يبتعد تماماً عن مثل هذا الازدحام ... فإن لحظات القلق هذه تستطيع أن تحرق الدماء .

وتنهد في عمق وهو يحاول إبعاد الخواطر المقلقة عن ذهنه .. وراح يشغل نفسه بمتابعة ما يجري حوله في الزحام ... كان بعضهم يضحك وهو يقول :

– أنا أشاهد مسلسل يونس شلبي للمرة الثانية وأضحك كثيراً .

وتسللت ابتسامة باهتة إلى شفتيه وهو يستعيد بعض المواقف الضاحكة من المسلسل .... «حد يحب واحد اسمه «حيرم» ؟» .

وسمع صوتاً يرد ... كان الصوت قادماً من جوار أذنه من الزحام ...
« أنا لا أحب يونس شلبي في هذا المسلسل لأنه « يجمع » ... كنت أحب أن يظل على شخصيته التي عرف بها .. هذا الذي لا يجمع في الكلام والأفكار . »

واتسعت ابتسامته وهو يتذكر كيف كان يونس شلبي يتكلم كلاماً غير موصول .. ويفكر بطريقة مفككة .. ولكن الابتسامة خبت بسرعة وهو يحس بضغط الزحام عليه وعاد القلق يسيطر عليه .

كان الحديث حول المسلسلات مستمراً . ولكنه كان قد غرق في أفكاره فلم يعد يلتفت لما يقال ... انه يحس أحياناً أن تفكيره مثل تفكير يونس شلبي المفكك .. هل صحيح أنه لا يفكر بسرعة بسبب إدمان هذه المسلسلات ؟ .

لقد قرأ هذا الرأي السخيف لواحد من هؤلاء الذين يهوون الكتابة في الصحف ؟ هل هذا معقول ؟ ... ما دخل المسلسلات في التفكير البطيء .. وفي أنه يفهم متأخراً .

وفجأة إذا به يذكر كلمات واضحة قالها هذا الرجل السخيف في إحدى مقالاته .

« ان من يترك نفسه لعبث الفن البطيء والمتكرر الذي يقدمه إعلامنا ـ من تمثيل وغناء – سوف يصبح هو نفسه بطيء الفهم .. بطيء اتخاذ القرار .. سوف يفقد اليقظة والملاحظة والقدرة على حسن تقدير الأمور . »

هل هذا معقول ؟ ... كلام فارغ ... كلام فارغ .

ما اسم هذا الكاتب السخيف ... ركز ذهنه وأوشك أن يتذكر الاسم .. أحس بالاسم على طرف لسانه ... ولكن صيحة مرتفعة هرّبت من ذهنه الاسم .. الصيحة كانت «السلسلة» وضحك .. يبدو أن كل المزدحمين لا زالوا يتحدثون عن المسلسل .. ولكن واحداً يسميه (السلسلة) انها فعلاً «سلاسل» توثق المستمعين والمشاهدين كأسرى الحروب .

صوت آخر كان يصرخ «السلسلة انقطعت» .

ولم يفهم بسرعة ... إلا عندما اهتزت أرضية المعدية تحت قدميه .. ونظر حوله فوجد نظرات الرعب في كل الوجوه .. وسمع صرخات هنا وهناك .. وأحس بنفسه ومن يجاورونه يرتفع .. بسرعة .. وفي لحظة واحدة كانت المعدية قد انقلبت .. وأحس بالماء يطبق عليه ... ولم يكن قد توصل إلى إجابة عن الأسئلة التي يفكر فيها .. ولا توصل إلى اسم الشخص الذي كان منذ قليل على طرف لسانه .....

إيهاب الأزهري

المحتويات

صفحة

الجزء الثاني

الجزء الثالث

مطابع الشروق

بيروت : ص ب : ٨٠٦٤ - هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٢١٣ - برقيا : داشروق - تلكس : SHOROK 20175 LE
القاهرة : ١٦ شارع جواد حسني - هاتف : ٧٧٤٨١٤ - ٧٧٤٥٧٨ - برقيا : شروقت - تلكس : 93091 SHROK UN